أعلام المسلمين
٤٥

الشيخ عبد القادر الجيلاني

الإمام الزاهد القدوة

تأليف

الدكتور عبد الرزاق الكيلاني



دار القلم
دمشق



تأليف

الدكتور عبد الرزاق الكيلاني

الطّبعَة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


الشيخ
عبد القادر الجيلاني

قالوا في هذا الرجل

● «الإمام العارف شيخ العراق في وقته، ومَنْ تُضرب الأمثال بنور بصيرته وصفاء سريرته، له كرامات مشهورة وأخبار مدوّنة مسطورة».

الحافظ أبو بكر محمد بن
عبد الغني البغدادي الحنبلي
المعروف بابن نقطة المتوفى سنة ٦٢٩.

● «وأما أئمة الصوفية المشهورة مثل: الجنيد وأتباعه، والشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي، فالشيخ عبد القادر كلامه كله يعود على اتباع المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور».

الشيخ ابن تيمية، الفتاوى ١٠/٥٠٧.

● «الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام، علم الأولياء».

الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٠/٤٣٩.

● «شيخ العصر، وقدوة العارفين، وصاحب المقامات والكرامات، انتهى إليه التقدم في الوعظ، والكلام على الخواطر».

الذهبي، العبر في خبر من عبر ٣/٣٦.



الإهـداء

إلى العلماء العاملين المخلصين أهدي سيرة واحد منهم.

إلى الذين يتطلعون إلى أن يكونوا دعاة ومصلحين ومرشدين أهدي قدوة صالحة لهم.

لعل الله سبحانه وتعالى يبعث في هذه الأمة من يجدِّد لها دينها، ويوقظها من غفوتها، وينبهها من غفلتها، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وبالإجابة جدير. وهو حسبنا ونعم الوكيل.



كَلِمَةُ شُكْرٍ

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[1] صدق الله العظيم.

«من لم يشكر الناس، لم يشكر الله»[2].

وأنا أشكر كلَّ من مدَّ لي يد العون والمساعدة على تأليف هذا الكتاب، وأخصُّ بالذكر منهم الأستاذ الفاضل الجليل الشيخ وهبي سليمان الغاوجي، والأستاذ الفاضل الشيخ محمد بشير الشقفة اللذين راجعا الكتاب. وقوّما كثيراً من اعوجاجاته وكتبا تقديماً له.

والأستاذ السيد محمد أيمن المراد الذي راجع الكتاب أيضاً، وصحح كثيراً من أخطائه.

والأستاذين الفاضلين السيد محمد موفق لطفي، والسيد عبدالعزيز محمد صالح، اللذين أفاضا عليّ من المراجع التي كنت في مسيس الحاجة إليها لتأليف هذا الكتاب.

فلهم مني، جميعاً، جزيل الشكر والعرفان بالجميل، وجزاهم الله سبحانه وتعالى خير الجزاء في الدنيا وفي الأخرى، إنه سميع الدعاء.

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود كما في جامع الأصول رقم ١٠٣٣.



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب
بقلم الشيخ وهبي سليمان غاوجي

قطوف من رياض كتاب: (الشيخ عبد القادر الجيلاني) تأليف الفاضل الدكتور عبد الرزاق الكيلاني زاده الله تعالى هدى وتوفيقاً:

عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة. وعند قراءة تراجم العلماء الصالحين خاصةً، تنزل الرحمات على قلوب قارئيها، ولقد عشت ساعات رحمة وأنس وفرح وسرور وتعلّم وتفقّه، وتزهّد وتزكّي وأنا أقرأ كتاب الطبيب الموفق السيد عبد الرزاق الكيلاني حفظه الله تعالى، في حياة جده الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى.

١ ـ إنَّ شاباً غضاً يترك بلاده جيلان إلى بغداد، عاصمة الدنيا، في طلب العلم، ومعه أربعون ديناراً، هي جميع نفقته مدة طلب العلم، ويعرض له اللصوص وقطاع الطرق فيجعل الله تعالى صدقه في القول سبباً لتوبة أولئك النفر من اللصوص وقطاع الطرق، وإنابتهم إلى الله تعالى، كما نقرأ القصة في الكتاب، لجدير بأن يكون موفقاً وهادياً.

وإن شاباً مكتمل الشباب والرجولة يقضي نحو (٣٤) عاماً في طلب الفقه والحديث والتفسير والعقائد والتصوف وغيرها لجدير بأن يكون قد حصل على علم كثير.

ثم إن كهلاً غمر نفسه في ميدان التربية والتوجيه، والزهادة والإقبال على الله تعالى، وزكّى ربُّه نفسَه، وملأ بالتعفف عن الدنيا قلبه، ورقّاه بالإقبال على الله تعالى وحده، وعدم المبالاة بالدنيا، وحطامها، وحبب إليه تلاوة القرآن والصلاة والذكر والأنس بالله تعالى، لجدير بأن يكون قد حصل على فضل عظيم وخلق كريم.

وإن رجلاً أقام في التدريس والوعظ والإرشاد (٣٤) عاماً، لا يعرف سوقاً ولا يدير تجارة، لا يخالط الناس على دنياهم، ولا يزاحمهم على لُعاعتها، لا يخضع لكبير، ولا يتملق لغني، ولا يصل إليه من مال الدنيا شيء مهما كثر، إلا واسى به المحاويج، ثم هو الكريم بالمال الذي يأتيه مع عزته وعفته، فينفق على طلابه، وهم ألوف، طعاماً وشراباً ومسكناً وملبساً، لجدير بأن يكون قد أفاد الكثير الكثير.

وإن رجلاً يبلغ عدد من يتخرج عليه وعلى بعض معاونيه كل عام (٣) آلاف إنسان، ثم ينتشرون في بلاد الله تعالى ينشرون العلم والصلاح والسلوك بالقال والحال، فيبلغون في مدى (٣٤) عاماً قرابة مائة ألف طالب، لجدير بعد ذلك بأن يكون موفقاً، نادرة زمانه، وكل زمان، بعد رسول الله ﷺ، فلقد خصَّه الله تعالى أن يكون إماماً، معلماً للأمة وموجهاً لها، وموفقاً في تربية الأمة وتزكية نفوسها وأعمالها، وأن يبلغ به الأمر ما لم يبلغ برجل في زمانه، ولا بعد زمانه. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢ ـ لقد زان الطبيب الفاضل عبد الرزاق كتابه في الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، بهذه الطاقات من الورود والرياحين وهذه الغرر من اللآلىء من أخبار الشيخ، والذي قلته هو غيض من

فيض، والذي أريده في هذه الكلمة، وأرجو أن تكون في سبيل الله تعالى، وسبباً للمثوبة والأجر، ودلالة للناس على خيرٍ دلني الله تعالى عليه: والمؤمنون بعضهم لبعض نَصَحَة، أن أقول مستشهداً بأقوال الدكتور في سيرة الشيخ ما يلي:

ـ كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى وقدّس سره رجل العقيدة السليمة الصافية:

قال عند وفاته رحمه الله تعالى: مُرّوا بأخبار الصفات على ما جاءت ـ الفتح الرباني ص ٣٧٣.

وقال رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي كيّف الكيف وتنزه عن الكيفية، وأيّن الأين وتعزز عن الأينية، ووُجِد في كل شيء وتقدس عن الظرفية، وحضر عند كل شيء وتعالى عن العندية، فهو أول كل شيء وليس له آخرية. إن قلت: أين؟ فقد طالبته بالأينية. وإن قلت: كيف؟ فقد طالبته بالكيفية. وإن قلت: متى؟ فقد زاحمته بالوقتية. وإن قلت: ليس، فقد عطلته عن الكونية. وإن قلت: لو، فقد قابلته بالنقضية. وإن قلت: لِمَ، فقد عارضته في الملكوتية. سبحانه وتعالى لا يُسبق بوقتية، ولا يُلحق ببعدية، ولا يُقاس بمثلية، ولا يُقرن بشكلية، ولا يُعاب بزوجية، ولا يُعرف بجسمية. سبحانه وتعالى، لو كان شخصاً لكان معروف البنية، ولو كان جسماً لكان معروف الكمية؛ بل هو واحدٌ رداً على البنوية (النصارى)، صمدٌ رداً على الوثنية، لا مثيل له طعناً على الحشوية، لا كفء له رداً على من ألحد بالوصفية، لا يتحرك متحرك في خير أو شر، في سر أو جهر، في

بر أو بحر إلا بـإرادته، رداً على القـدرية. إلـخ. . كذا في الفيوضات الربانية ص ٢٩ .

٢ ـ كان الشيخ المدرس الموفق والمربي القدوة. كان يحضر مجلسه نحو سبعين ألفاً من الناس، ويبلغ عدد المحابر أحياناً أربعمائة محبرة. كما كان يكثر في مجلسه التائبون من العصاة، حتى بلغ عددهم مائة ألف تائب، والمسلمون من الكفار، حتى أسلم على يديه خمسة آلاف مشرك وكافر. كذا في «قلائد الجواهر» ص ١٩ .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: كان يتكلم في ثلاثة عشر علماً، كانوا يقرؤون عليه درساً في التفسير ودرساً في الحديث ودرساً في المذهب. ـ وكان يفتي على مذهبي الشافعي وأحمد بن حنبل ـ، ودرساً في الخلاف، ودرساً في الأصول، وفي النحو. وكان يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر. كذا في «رجال الفكر والدعوة» للندوي ص ٥٨ .

أما مواعظه فأشهر من أن يشار إليها في هذه الكلمة، وأشير إلى بعض كلماته: يا غلام قصّر أملك، وقلل حرصك، صلِّ صلاة مودع، لا ينبغي لمؤمن أن ينام إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه؛ فإن أيقظه الحق عز وجل في عافية كان مباركاً، وإلا يجد أهله وصيته ينتفعون بها بعد موته، ويترحمون عليه؛ ويكون أكلك أكل مودع، ووجودك بين أهلك وجود مودع، ولقاؤك لإخوانك لقاء مودع. أوجدْ في قلبك: أنا مودع. . إلخ، كذا في الفتح الرباني ص ٢٨٦ .

٣ ـ كان الشيخ أمّاراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكـر، قال الندوي: كان صدّاعاً بالحق، قوياً في الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر حتى للخليفة والملوك والسلاطين والأمراء، والخاصة والعامة. وكان رحمه الله تعالى يقول: سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي. وكان يقول: عليكم بالعزيمة والإعراض عن الرخصة، من لزم الرخصة وترك العزيمة خيف عليه من هلاك دينه. العزيمة للرجال لأنها الأشق والأمر، والرخصة للنساء والصبيان لأنها الأسهل. كذا في الفتح الرباني المجلس ٦١.

وفي سنة ٥٤١ هـ ولّى المقتضي لأمر الله القضاء يحيى بن سعيد المعروف بابن المرجم، فظلم العباد وأخذ الرشوة، فخاطب الشيخ عبدالقادر الخليفة من المنبر قائلاً: وليت على المسلمين أظلم الظالمين. ما جوابك غداً عند رب العالمين أرحم الراحمين؟ فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي المذكور لوقته. كذا في قلائد الجواهر ص ٨.

٤ ـ أخلاق الشيخ رحمه الله تعالى: لقد أطال وأجاد الطبيب الفاضل في ذكر أخلاق الشيخ رحمه الله تعالى؛ وأجيز لنفسي رَوْماً للاختصار أن أكتفي بذكر عناوين تلك الأخلاق، وما أجملها. فهي الكرم، والجود، والصدق، والزهد، والصبر، والحب، والتوكل، والحلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعبادة، والتقوى والورع.

٥ ـ لقد جلّى الطبيب الفاضل أمر التصوف من خلال أقوال ثقات العلماء، وأحوال أهل التصوف، وتاريخ التصوف في حياة المسلمين، بما لا بد من قراءته من الكتاب، ولا تجدي هنا خلاصة، وحين يذكر تربية الشيخ عبد القادر الصوفية للناس يذكر أنها تقوم على الأسس التالية، وأذكر عناوينها فقط: الصبر،

الشكر، التواضع، الصدق، الإخلاص، التوكل، الزهد في الدنيا وطلب الأخرى، الرضا، الحب، المجاهدة، الرحمة.

أما بعد: فقد زيَّن الطبيب الفاضل كتابه الماتع النافع بذكر أقوال العلماء الأعلام في الشيخ عبد القادر وسيرته وأعماله، وأحواله، وبذكر كتب الشيخ وأقواله ووصاياه، وأخباره، وقصصه، موثقة، منسوبة إلى الكتب المنقول عنها؛ مما يجعلنا نعد هذا العمل مؤهلاً للحصول على الأجر العظيم من الله تعالى، والثقة بما فيه من القراء الكرام، ولا أقول رتبة الدنيا ودرجاتها. فالطبيب زاهد في الدنيا كجده رحمه الله تعالى، ومظاهرها وزينتها، كما يعلم ذلك عنه من عرفه أو سمع به.

فجزاك الله تعالى خيراً عظيماً، أيها الطبيب الفاضل على عملك هذا الطيب، ورزقني والقراء الكرام حسن الاستفادة منه علماً وحالاً، قولاً وسلوكاً؛ وبارك الله تعالى لك في العمر والعمل، وزادك من فضله صلاحاً وتقوى وعافية وتوفيقاً، وأكرمك بفضلٍ خاص وثواب خاص يوم يقوم الأشهاد، وجمعك بجدك الأعلى صلى الله تعالى عليه وسلم، وجدك عبد القادر قدس الله تعالى سره، تحت لواء المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وأتباعه وأحبابه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه الفقير إلى الله تعالى

وَهْبِي سُلَيْمَان غَاوْجِي

تَقْدِيمُ آخر لِلْكِتَابِ
بِقَلَمِ ٱلشَّيْخِ مُحَمَّد بَشِيرٍ ٱلشَّقْفَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن اهتدى بهداه وبعد:

فن الترجمة:

ـ فإن الترجمة لعظماء الرجال مهمة صعبة، ووظيفة شاقة، والترجمة لخواص العظماء وسرواتهم أصعب وأشق خصوصاً إذا كان الكاتب قصير الباع متواضعاً فأنى له أن يبلغ قياس هاماتهم الشامخة كي يفصِّل الثوب الذي يسع هذه العظمة دون ضيق خانق، أو سعة مُخِلَّةٍ بجمال الحلة وهيبة لابسها؟!!.

ـ هذا هو المعيار[1] الذي ينبغي أن يعمل به في التعريف بالرجال. نعم؛ إنَّ الترجمة لشخص بمثابة تفصيل ثوب له على مقاسه، ليس بالفضفاض الطوال حتى لا يُقال فيه: «طولٌ بلا طَوْلٍ ولا طائل». ولا بالضيق المحرج حتى لا يُقال فيه: «أضيق من ظل الرمح»، ولكن ينبغي أن يكون القص بعد التقدير كما قالوا في المثل: «قَدِّرْ ثم اقطع»، فمن لم يكن ماهراً في التقدير، عارفاً

---

(١) المعيار: هو الظرف المساوي للمظروف. معجم لغة الفقهاء (ص ـ ٤٤٣).

بالمعايير يُحسن انتقاء الكلمة الصادقة، والعبارة اللائقة بالشخص والمقام والمناسبة، فإنَّ همته سوف تقعد به عن درك الغاية المطلوبة.

ـ قال سعدي الشيرازي:

والقول لم تُعْمِلْ به التَّأمُّلا
كالثوب من غير قياس فُصِّلا
قليلهُ مِنْ بَعدِ إعمالِ الفِكَرْ
أفضلُ من طولِ الكلامِ في الهَذَرْ
لا تَرْمِ آلافَ السهامِ خائبا
وارمِ إذا تَعْقِلُ سهماً صائبا

ـ وما قدمته يقال فيمن خاض ميدان التصنيف، وكتب في سير الرجال، أما من كان غريباً عن هذا المجال، وليس من فرسان هذا الميدان، فإنه كالمدلج في ليالي المحاق[١]، ومن كان هذا حاله فإنه يكون في الاهتداء إلى مقصوده «أضل من ضب»[٢]، كما أن قلمه سيكون «أضعف من يدٍ في رحم»[٣]، والعَلَمُ الذي يُعَرِّفُهُ ويُترجم له سيكون عند مِثْل هذا الكاتب «أضيع من قمر الشتاء».

الشيخ الإمام:

هذه حال كاتب هذه السطور عندما طُلب إليه أن يكتب تقديماً

---

(١) هي الليالي الثلاث في آخر الشهر وهي شديدة الظلمة.
(٢) تقول العرب: «أضل من ضب» لأنه إذا خرج من حجره لا يهتدي إليه.
(٣) المقصود يد الجنين في بطن أمه فهي في غاية الضعف.

لكتاب الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمة الله تعالى عليه، لما يجده في نفسه من الهيبة والتوقير، وما يكنه للشيخ من عظيم التقدير، وكأن إنائي الصغير عاجز عن استيعاب بحره الزاخر، وعيني الحسيرة كليلة عن التحديق في إشراقاته المنيرة، وجُلُّ ما يمكن أن أقوله في هذا المقام عن الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه:

ـ إنه ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وتربية الرجال، وجلالة شأنه في الجود والكرم وقوة اليقين على الله عز وجل، والتأثير في القلوب، وتفرده بالغايات في المحاسن، وجمعه شتات المفاخر، لذا أكتفي بالنقل من قول من ألان الله تعالى لهم فيه العبارة، ونقحوا فيه الكلام، فأحسنوا تقدير الشيخ وعرفوا المقام.

ـ قال أبو الحسن الندوي: (لقد ظهر الشيخ «عبد القادر الجيلاني» في بغداد، وتسلَّم الزعامة الدينية وعاش نحو قرنٍ فرداً فريداً في الدعوة إلى الله تعالى، والتف حوله العالم الإسلامي، وأثَّر فيه تأثيراً لم يؤثر مثله عالم أو مصلح من مدة طويلة)[1].

ـ وقال: (إن من أَجَلّ كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى إحياء موات النفوس والقلوب، وزرع الإيمان وخشية الله تعالى وحبه فيها، وإشعال مجامر القلوب، التي انطفأت، من جديد؛ فقد أعاد الله تعالى به إلى قلوب لا يحصيها إلا الله تعالى حياةً وإيماناً، وهبّت بمواعظه وتربيته رياح من

---

(١) رجال الفكر والدعوة (ص ـ ٢٥٢).

الإيمان عاشت بها قلوب ميتة. ونشطت بها نفوس خامدة، وانطلقت في العالم الإسلامي موجةٌ من الإيمان الجديد، والروحانية القوية والأخلاق الفاضلة، والتقوى. وقد هيأ الله تعالى له الزعامة الدينية والروحية في العالم الإسلامي، فاختار له بغداد ـ عاصمة المملكة العباسية وقلب العالم الإسلامي ـ وجاءته بغداد ـ وهي أكبر مدن العالم ـ تسعى وازدحم الناس عليه ازدحاماً كبيراً. . . وكان يحضر مجلسه نحو من سبعين ألفاً)[1] هـ.

ـ وقال: (ظل العالم الإسلامي في حاجة شديدة إلى داعٍ شعبي، وشخصية روحية رفيعة، أكثر اتصالاً بالشعب وطبقات الجماهير، ينفخ في المجتمع بدعوته ومواعظه، وبتزكيته للنفوس وإصلاحه للأخلاق روحاً دينية وحياة إيمانية[2]. . . تخفف غلواء حب الدنيا، وتحد من شدته وحدته، وتوقظ في النفوس الإيمان، وتثير عقيدة الآخرة، وتحرك في القلوب الحب لله عز وجل والحنين إليه، وتحثُّ على الطموح وعلو الهمة وبذل الجهد في الحصول على العلم بالله تعالى وعبادته، ونيل رضوانه، والمسابقة في سبيله وتدعو الى التوحيد الكامل، والدين الخالص دعوة صريحة مكشوفة[3]، فكان هذا المصلح في شخص الشيخ «عبد القادر الجيلاني») [4] رحمة الله تعالى عليه.

---

(١) رجال الفكر والدعوة (ص ـ ٢٥٦).
(٢) المرجع السابق (ص ـ ٢٤٨).
(٣) المرجع السابق (ص ـ ٢٥٠).
(٤) المرجع السابق (ص ـ ٢٥٢).

الطبيب المؤلف:

- ومؤلف هذا الكتاب السيد عبد الرزاق الكيلاني طبيب متخصص بالطب البشري، حذق فيه وبرع في فنه وشهد له بذلك أقرانه، وهو إلى ذلك حسن السيرة والسلوك، ملتزم بدينه يعرف ما له وما عليه، في سمت وصمت وحسن خلق وأدب جم، وطبيعة متواضعة، حريص على صحبة العلماء وأهل الفضل، حسن الاستماع إلى نصائحهم ومواعظهم، شديد التأثر بأحوال المخلصين، محب للمطالعة، ويعتني في تفهم دقائق الأمور، وإدراك غوامضها، والتعرف على أحوال الناس ودراسة واقعهم، لذا عني بتأليف كتاب في الأمثال الشعبية وآخر في الحكايات الشعبية، وثالث في الصحة[1].

وهو لا يزعم أنه أديب بارع، أو فارس من فرسان الفصاحة والبلاغة، ولا من أرباب الشعر والبيان، وإنما ينزع في أسلوبه إلى العبارة البسيطة التي يسهل على عامة الناس فهمها، كما أنَّ النزعة العقلانية هي السمة البارزة في كتابه. لذا أُعرِضَ بالكلية عن ذكر كرامات الشيخ رحمه الله تعالى، ولم يذكر فيها إلا ما كان من قبيل قراءة الأفكار والخواطر بعد أن قدَّم لها مقدمة علمية عن محاضر روسي[2] ليثبت أن ما كان من مثل هذه الكرامات فإن العلم يشهد

---

(١) كتاب (الأمثال الحموية)، وكتاب (كان يا ما كان)، وكتاب (المنحة في أحاديث الطب والصحة) وغيرها.

(٢) انظر (ص ٢٥٥) من الكتاب.

لـه والتجربـة تـؤيده، واكتفى بـالقول القـائل «الاستقـامة عين الكرامة». وأكّدَ مراراً وتكراراً أن منهج الشيخ رضوان الله تعالى عليه الاتباع لا الابتداع، وإمامه نصوص الكتاب والسنة، وعقيدته عقيـدة السلف، ومنهجه ربـاني، وطريقـه محمدي، وشـريعته إسلامية، وحقيقته إحسانية، هذا علمي بالمؤلف، وأحسبه كما قلتُ، ولا أزكي أحداً على ربي عز وجل.

وأمـا موضـوع الكتاب فلعـل وراءه أسبابـاً حفـزت المؤلف إلى اختياره، فقد شهد أثر التربية الروحية في تكوين الشباب إذا حاصرتهم الشهوات، وأحاطت بهم المغـريات، ولاحقتهم الفتن، كيف تسمـو بهم فوق هذا كله بإرادة قوية، وروح صافية، وعاطفة جيَّاشة بحب الله تعالى ورسوله ﷺ، وإرادة للآخرة. فالمؤلف يتكلم عن تجربة وشهادة عيان، فاختار هذه الشخصية المشهورة في تاريخ الـدعوة والإصـلاح «الشيخ عبدالقادر الجيلاني» رحمه الله تعالى ليقـول للدعاة: إنَّ في الإسلام كنوزاً ينبغي أن تُستغل، وطاقـات روحية ينبغي أن تستثمـر، وضياعها ضياع لعناصر هامة في الدعوة، وقصور في كمال الإسلام، ونقص في تصوره وشموله، ألا وهي التزكية والتربية، والعناية بصفاء الروح ونقائهـا، ومعرفـة دقائق التـوحيد، وعلم الإخـلاص، وحقيقة اليقين.

وإذا كانت هذه العلوم موجودة في مدرسة التصوف فإنَّ اسمه وما لابسه من بدع وانحرافات، وأهوال وطامات ينبغي ألا يحول بيننا وبينها، وهي من صميم الإسلام ولبابه، فبدلاً من رفضه وما فيـه جملة وتفصيلاً، نُعْمِـلَ فيه التصفيـة والتنقيـح، والغـربلة والتشريح، حتى يعود ماءً مصفى، وشراباً مروقاً، ليس فيه إلا ما

وافق السنة وأقره الكتاب وعمل به جماعة السلف وأئمة العلم. وهذا ما فعله الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، وهذه أبرز فكرة يركز عليها المؤلف في كتابه، وأظنها من أهم الأسباب الداعية لاختيار موضوع الكتاب وشخصيته المباركة، ففي الكتاب «فصل» لإنصاف التصوف وأهله لكن على أساس من الحق بعيداً عن التعصب له أو عليه.

حكمٌ ومحاكمة:

ـ معذورون أولئك الذين يرفضون اسم التصوف، ومتكلفون أولئك الذين يبالغون في البحث عن أصله، واسمه، واشتقاقه، ومغبونون بل خاسرون أولئك الذين يرفضون كل ما فيه عصبية دونما تمحيص أو تروٍ، وظالمون أولئك الذين يرفضون كل من تسمى بهذا الاسم دون التعرف على أحوالهم، وأعمالهم واعتقادهم. وجاهلون أولئك الذين يعممون حكم الواحد على الكل، أو حكم القليل على الكثير، أو حكم المجموعة على الجماعة، أو حكم الفرد على سائر الناس، أو حكم الجاني على سائر أهل بلده.

ـ لقد أجمعت أمة الإسلام على أنَّ الأساس والميزان والحكم والعمل إنما يكون في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، لذا فإن كل مسلم يلتزم بهذا الأساس ويعتزّ به ويطالب نفسه وغيره بالتزامه ويزن الأمور بميزانه. وهذا الأساس يشكل الوحدة الفكرية والعلمية والعملية عند المسلمين بأسرهم لا يختلف في ذلك اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان.

ـ فالهدف إذن واحد، ولكن الخلاف إنما ينشأ عن الاختلاف في فهم النصوص وتأويلها أو في صحتها وثبوتها، أو ناسخها ومنسوخها. وأشده إنما يكون عند غفلة بعضهم عن جوانب من تكاليف الإسلام، وإهمال بعضٍ من أحكامه، قال تعالى: ﴿فنسوا حظاً مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ (المائدة ـ ١٤).

ـ أما عذر أولئك الذين يرفضون كل ما لم يرد في الكتاب والسنة فمقبول، وهذا المبدأ لا ترتاح فطرة المسلم التي فطر عليها إلا إليه، فما لم يرد في هذين المصدرين الكريمين من أسماء وأفكار، ونظمٍ ومبادىء، وعقائد وقواعد، واصطلاحات وقوانين وتشريعات فإنَّ فطرة المسلم تمجُّه وترفضه، وتنأى عنه وتمقته، وتشعر أنه من قبيل الرجس، اللهم إلا ما كان من قبيل العلوم التي تعين على فهم الكتاب والسنة والاستنباط منهما وتقريب فهمهما إلى الناس لتحقيق البلاغ والبيان.

ـ فينبغي ألا يخطر على بال مسلم أنه يمكن أن يُرفع له عمل، أو تُقبل له عبادة ما لم تكن مشروعة، (قيل للفضيل بن عياض[1]: ما معنى قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال: أخلصه وأصوبه، والخالص: ما كان لله تعالى والصواب: ما كان على السنة. فإذا كان العمل خالصاً ولم يكن على السنة فلا يقبل، وإذا كان على السنة ولم يكن خالصاً فلا يقبل. وإنما يقبل

---

(١) مجموع الفتاوى ـ لابن تيمية (ج ١١ ـ ص ٥٨٤).

العمل الخالص لوجه الله تعالى إذا كان على سنة رسول الله ﷺ).

ـ والاتباع ينبغي أن يكون في كل شيء من حياة المسلم بدءاً من العقيدة والنية والإخلاص والهم والتمني، إلى القول والذكر والعبادة والعمل، ولا تتحقق المحبوبية إلا بهـذا قال تعـالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ (الآية ٣١/آل عمران).

ـ وبعد هذا فلْيُنْظَرْ ما يُشير إليه اسم «التصوف» في اصطلاح القوم من حقائق وما يختص به من علوم ومعارف، ورياضات ومجاهدات وزهادة وعبادة، وذكر وفكر، ما كان منها من صميم الإسلام ولبه، وأحكامه وتكاليفه، وليُسَمَّ بما يُناسب ذلك، فإنه أرضى للرب عز وجل، وأدعى للقبول في قلوب المـؤمنين، وآنس لأرواحهم، وأسلم لمنطقهم، وأبلغ في الدلالة على المقصد، والإشارة إلى الغاية والهدف، والتعريف بالمراد والمطلب، فإنَّ أول فوائد الاسم الدلالة على المسمى.

ـ ومهما قلبنا النظر في المعنى اللغوي لكلمة «التصوف» وبحثنـا في أصلها واشتقـاقها لا نجـدهـا تـدل على الحقيقـة الاصطلاحية التي ينطوي عليها من قريب ولا من بعيد، علاوة على أنَّ هذا الاسم لم يكن مشهوراً عند السلف ولا متداولاً بينهم.

ـ ولكن حين نعجز عن محاكمة التاريخ الذي اصطفح عبر قرون عديدة على تسمية القوم بهذا الاسم حتى أوصله إلينا.

ـ وحين نعجز أيضاً عن إيقـاف استمرار هـذا الاصطلاح

بأصواتنا الضعيفة وكلماتنا المعدودة حتى إننا لنرى أنه سوف يتجاوزنا ويمر عبرَ قرونٍ تأتي، فإننا نريد أن نسجل للعلم والإنصاف: أنَّ التعصب لاسم «التصوف» والحرص على الاحتفاظ به ليس له ما يبرره، خصوصاً إذا ما ثبت أنه سبقتنا بالتسمي به متصوفة الرهبان من النصارى والبوذيين وغيرهم من أهل ملل الكفر.

- كما أنَّ إنكار ورفض ما ينطوي عليه من حقائق إيمانية، وأخلاق مثالية - لمجرد التسمي بهذا الاسم - ظلمٌ له ولأهله، وخسارة أيما خسارة لمن حكم عليه هذا الحكم الجائر، لأنه ظَلَمَ نفسه إذ تعدى مرتين، مرةً ظَلَمَ العلمَ، ومرةً ظَلَمَ أهلَهُ، وهل علومهم إلا: «علم الإحسان»، أو تقول: «علم الإخلاص»، أو تقول: «علم العبودية»[1]، أو تقول: «علم التزكية»، وهل أهله إلا: «الربانيون»[2] أو تقول «أهل الله»، أو تقول: «العلماء بالله»، أو تقول: «أهل الذكر» أو تقول: «العارفون بالله». قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (الآية ٤٣/النحل)، وقال تعالى: ﴿الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ (الآية ٥٩/الفرقان).

- فبأي اسم سميته أو سميت أهله مما مَرّ فإنك تجده في كتاب أو سنة، وهو يدل على القوم واختصاصهم بلا لَبْسٍ ولا غموض.

---

(١) انظر كتاب «العبودية» لابن تيمية.

(٢) انظر كتاب «ربانية لا رهبانية» لأبي الحسن الندوي.

ـ وتبقى كلمة «التصوف» كلمة تراثية تدل على حقائق إيمانية، فلا ينبغي أن نهملها لما تدل عليه. كما لا ينبغي أن نتعصب لها كأنها نصٌّ في سنة أو كتاب، كما لا يرغب المسلم أن يُسمى بها بعد أن سماه الله عز وجل «مسلماً» فقال تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين﴾[1].

الإنصاف «وأقيموا الوزن بالقسط»:

ـ إنه ليس من الإنصاف أن نَغْمِط الناس أشياءهم، وغالباً ما ينبع ذلك عن فساد في الاعتقاد والظن، فمن ظن بالناس العصمة لا بد أن يكون قاسياً في حسابهم ومؤاخذتهم، فإذا ما أخطأ أحدهم أخذناه بخطئه، ورفضنا خيره وصوابه كما رفضنا شره ومعصيته، وحكمنا عليه وعلى أمثاله وعلى من انتسب إليه أو رضيه أو أثنى عليه، أو جلس إليه بالرفض جملة وتفصيلاً، وقد قال تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ (الآية ٩/الرحمن).

ـ حقاً إنَّ التعميم ذميم، وإنَّ ربنا سبحانه لا يظلم مثقال ذرة، ولا أعلم أحداً من فقهاء الإسلام حرم ذبيحة الجزار العاصي ـ إذا كانت شرعية ـ بسبب معصيته، بل إنَّ اليد التي يذبح بها تُحلُّ الذبيحة ولو كانت عاصية بخاتم الذهب. ولم يأمر رسول الله ﷺ بإراقة الماء الذي وقعت فيه ذبابة، ولكن أمر بطرح الذبابة، ويبقى الماء صالحاً للشرب، ولم يأمر بكسر أو تحريق آنية الكفار وثيابهم، ولكن أُبيح الانتفاع بها بعد التطهير، ولم يأمر بإتلاف الإناء الذي ولغ فيه الكلب، بل أمر بتطهيره بالتراب ثم يستعمل

(١) الآية ٧٨ /سورة الحج.

كالعادة، والأمثلة على هذا في شريعتنا كثيرة، وكلها تفيد أنه ينبغي على المسلم أن يدفع ما يَضر، ويُبقي على ما ينفع، فيدفع من الضرر بمقداره لا أزْيَد، ويُبقي على النافع ما أمكن، ولا يكون كالدب الذي ذَبَّ عن رأس صاحبه الذبابة بصخرة فقتل صاحبه وطارت الذبابة، قال تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ (الآية ٩/الرحمن).

- نعم إنَّ الأمثلة في شريعة الإسلام على الإنصاف وعدم الإجحاف كثيرة، وكثيرة جداً. ومن المقرر عند علماء الأمة أن التوبة في الإسلام تتجزأ في الذات الواحدة كما أن المعصية تتجزأ، فكيف نأخذ أناساً بجرائر آخرين؟! وقد قرر العلماء أن المسلم المقيم على معصيتين أو أكثر إذا تاب عن واحدة منها بشروط التوبة، تُقبل توبته، وأنَّ الله عز وجل لا يحاسب مانع الزكاة على ترك الصلاة إذا كان مصلياً، ولا يعاقب شارب الخمر على فطر رمضان إذا كان يصومه، كما لا يحاسب السارق على الزنى إذا كان لا يزني، وهكذا فالمعصية أيضاً تتجزأ. وقد يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب، وحسنات وسيئات، فيثاب على هذه ويعاقب على تلك كما روى البخاري في صحيحه: «أن رجلاً كان يسمى حماراً، وكان يُضحك النبي ﷺ، وكان يشرب الخمر، ويجلده النبي ﷺ، فأُتي به مرة، فقال رجل: لعنه اللهُ ما أكثرَ ما يُؤتىٰ به إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: لا تَلْعَنْهُ فإنه يحبُّ اللهَ ورسولَه»[1].

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية (ج ١٠ ـ ص ٨، ١٦).

فهذا يبين أن المذنب بالشرب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله، وحب الله ورسوله ﷺ أوثق عرى الإيمان[1]، فكيف بمن يحكم على من لا يُحصى من الخلائق من علماء وعباد وزهاد وعارفين ومربين ودعاة ومرشدين بسبب فساد بعض من ينتسب إليهم، يحكم على الكل بالفساد، ونعوذ بالله من ذلك الحكم، ما أظلمه، وما أبعد صاحبه من الإنصاف ومن فهم الإسلام ومن حقيقة الدين؛ وقد قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (الآية ١٥ / الإسراء).

- إنَّ طوائف الحلولية، والاتحادية، والباطنية، والإباحية، والذين أسقطوا التكاليف، والذين قالوا بمخالفة الحقيقة للشريعة والباطن للظاهر، والذين قالوا بعصمة الولي وتقديمه على النبي، والذين قالوا بفناء النار، ومساواة المسلمين في نهاية الأمر بالكفار، وما إلى ذلك من الأقوال والعقائد والفرق والجماعات التي تناقض كلمة التوحيد، وتمرق من الدين بمخالفة نصوصه المحكمة في دلالتها، والقطعية في ثبوتها، لا يقبلها قلب مسلم، ولا تركن إليها إلا نفس ظالمة مثلها لتمسها النار.

- إنَّ المسلم إنما اعتنق الإسلام لتوحيد الله عز وجل، واتباع نبيه ﷺ، فلا ينبغي له أن يخرج منه من أخبث أبواب الكفر والزندقة وأقبحها عند الله عز وجل. وما جواب المسلم لهؤلاء إلا كجواب أولئك القوم من الصحابة الذين أُمروا من رسول الله ﷺ أن يُطيعوا أميرهم، فأمرهم أن يُلقوا أنفسَهم في النار، فقالوا:

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية (ج ١٠ - ص ٨، ١٦).

«إنما فَرَرْنا إلى رسول الله ﷺ من النارِ»؟! فكيف نُلْقي أنفسنا فيها، وقال رسول الله ﷺ: «لو دَخَلوها ما خَرَجوا منها، إنما الطاعةُ في المعروفِ»[1].

- نعم إن تلك الطوائف التي اندست بين القوم، أو دست من أقوالها المشبوهة في كتبهم ومقولاتهم وأشعارهم حتى شوَّشت وشوَّهت على الخُلَّص منهم، لا ينبغي أن تحول بيننا وبين إنصاف القوم، وتحرير أقوالهم حتى نعرف سقيمها من صحيحها، ونفيد منها، ونعرف معروفها وننكر منكرها. قال ابن تيمية[2] رحمه الله تعالى: (وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم. اهـ).

- لقد علمنا الإسلام نظرية تجريد الحق عن قائله، والخير عن فاعله، فالحق والمعروف والخير، حق وخير ومعروف بصرف النظر عن صاحبه، والمنكر منكر كذلك.

- فهذا حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه يرثي مطعم بن عدي بعد وفاته وقد مات على الكفر، بقصيدةٍ يشكر له فيها معروفه إذ أجار رسول الله ﷺ حتى دخل مكة يوم منعته قريش عند عودته من الطائف، وكان فيما قال:

أَجَرْتَ رسولَ الله فيهم فأصبحوا
عبادَكَ ما لبَّى مُحِلٌّ وأحرما

---

(1) سيرة ابن كثير (ج ٣ - ص ٤٢٧).

(2) مجموع الفتاوى (ج ١١ - ص ١٨).

وما تطلعُ الشمسُ المنيرةُ فوقهم
على مثله فيهم أعــزَّ وأكــرمــا

- وقال النبي ﷺ يوم بدر: «لو كان المُطْعِمُ بنُ عديّ حيّاً ثم سألني في هؤلاءِ النَّتنىٰ لوهبْتُهُم له»[1]. يريد: لَقَبِلَ شفاعته في أسرى بدر جميعهم، وذلك جزاء معروفه - وهو على الكفر -!!!

- وأثنى رسول الله ﷺ على أخلاق أهل الجاهلية وهم أهل جاهلية وأوثان فقال: «يا علي أيّةُ أخْـلاقٍ للعربِ كـانتْ في الجاهليةِ؟ ما أشْرَفَها! بها يتحاجزون في الحياة الدنيا»[2].

- ومع ذَمِّهِ ﷺ للشعر أثنى على نصف بيت من الشعر ما لم يثن على كلام أحد من الناس فقال: «أَشْعَرُ كلمةٍ تكلمتْ بها العربُ كلمةُ لبيد»، وفي رواية: أصدقُ بيتٍ قاله شاعرٌ، وفي رواية: «أصدقُ كلمةٍ قالَها شاعـرٌ»، وفي رواية: «أصـدقُ بيتٍ قالتْـه الشعراءُ»:

«أَلا كلّ شيء ما خــلا الله باطلُ»[3]

وما ذلك إلا لموافقة كلمته للحق، والواقع.

- وأثنى على شعر أمية بن أبي الصلت مع كفره، فقال ﷺ: «آمن شعرُ أميةَ بنِ أبي الصلْتِ وكَفَرَ قلْبُه»[4] فلم يمنعه الكفر من

---

(١) سيرة ابن كثير (ج ٢ - ص ١٥٤).
(٢) سيرة ابن كثير (ج ٢ - ص ١٦٩)، وأشار إلى الحديث بالغرابة.
(٣) والروايات كلها في صحيح مسلم (ج ١ - ص ١٧٦٨) - كتاب الشعر.
(٤) أورده السيوطي في الجامع الصغير (ج ١ - ص ٤).

إبداء إعجابه بالشعر، للإيمان والتوحيد الذي كان يفيض به شعره، وفي صحيح مسلم: «كَادَ ابنُ أبي الصلْتِ أن يُسْلِمَ»[1].

وأخيراً: هل فيما سقناه مقنع للمجحف أن يُنْصفَ ويتبع سبيل المنصفين؟!

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾[2]؟!:

- إذا كنا نطالب الناس بالاتباع ولا نتبع فمن نحن إذن؟، ولقد عَلِمنا أنه لا حياد مع النصوص والمنقول عن السلف، فإما اتباع وإما ابتداع، فلا منزلة بين المنزلتين، ولا برزخ بين الحالين، ولا أعرافَ بين جنة الاتباع ونار الابتداع، فإما إلى هؤلاء وإما إلى هؤلاء.

- وقد قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ (الآية/١٥٦/آل عمران) ومن أخلاق الذين كفروا ألا يعترفوا بحق أو خير عند عدوهم لمجرد أنه عدو لهم، ولو كان عدوهم على شيء من الحق يعلمونه.

قال تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، وهم يتلون الكتاب﴾ (الآية/١١٣ - البقرة).

وقال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ (الآية/ ١٤ - النمل).

---

(١) انظر (ج ١ - ص ١٧٦٨).

(٢) الآية ٤٤/ البقرة.

ـ فحريٌّ بالمؤمن أن يتخلَّق بخلق القرآن لا بخلق الكفار، ولقد أنصف القرآن الكريم حتى الخمر حين قال: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾[1] (الآية ٢١٩/البقرة) فذكر منافع الخمر مع أنها «أمُّ الخبائث» ثم رجَّح التحريم فقال: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾. كما أن كفر فرعون ودعواه الربوبية لم تسقطه من ميزان الاعتبار في نظر الدعوة، فَأُمِرَ له بِالْانةِ القولِ والتكنية: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ (الآية ٤٤ ـ طه). (قال: كنِّياه[2]، قُولا لَهُ: يا أبا مُرَّة. اهـ.).

ـ ألا ما أبعد الذين يناصبون العداء هذا الاسم وأهله، عن خُلُقِ القرآن حين يضربون صفحاً عن الحقائق والعلوم التي يختصُّ بها القوم وهي من الإسلام لُبابُه، وواسطةُ قِلادته، وزبدة محضه. وما ذلك إلا لما غفلوا عن جوانب من شريعة الإسلام وتكاليفه، أَوْ لَمْ يُدركوا حقيقة علومهم فظنوها ضرباً من الكناية أو الاستعارة أو المجاز أو غيرها من علم البديع والبيان والمعاني. وكلا الجهلين مُغْرٍ بالعداوة كما قال تعالى: ﴿ونسوا حظاً مما ذكِّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة..﴾ (الآية ـ ١٤/المائدة).

ـ إنَّ الذين يضربون بثلث الإسلام عرض الحائط هم أشد

---

(١) والمقصود من المنافع ما تدره من ربح في تجارتها أما شربها فضرر محض، هذا مع العلم بأن شربها وتجارتها بيعاً وشراءً حرام بالكتاب والسنة.

(٢) الترتيبات الإدارية ـ للكتاني (ج ١ ـ ص ٣٩٠)، وبدائع الفوائد ـ لابن القيم (ج ٤ ـ ص ١٢٢).

الناس عداء لمن يعتني بهذا الثلث وهو «الإحسان»، وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهو أحد ثلاثة هي أركان الدين كما في حديث جبريل عليه السلام: «هذا جبريلُ جَاءَكم يُعَلِّمُكُم دِينَكم»[1].

- وإنَّ المسلم ليتساءل كيف الوصول إلى حقيقة الإحسان؟ ومَنْ مِنْ علماء المسلمين عَلِمَ هذه الحقيقة واعتنى بها علماً وتعليماً وطريقاً وحالاً وذوقاً؟! أو تكلم بها وأشار إليها ودندن حولها، وأفنى العمر مجتهداً في الوصول إليها؟!.

- وإذا ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة فمن هم الذين اعتنوا بعلم الأخلاق وتزكية النفس ومحاسبتها، وألَّفوا فيه المؤلفات وحفظوا لنا من هذا العلم ونظرياته ومبادئه ما لم يسبقهم إليه أحد، ثم لم يكن علمهم تجريدياً، ولكنهم تحلوا بأحسن الأخلاق، وأكمل الصفات، وربوا على ذلك أمماً وأجيالاً، وأحدثوا في كل ميدان حلُّوا فيه ثورةً اجتماعية على الأخلاق الفاسدة، وانقلاباً أخلاقياً تحلت به مجتمعات عديدة وأمم وشعوب مختلفة.

- ولقد فرق النبي ﷺ بين المتدين وأخلاقه فقال: «إذا أَتَاكُم من تَرْضَوْنَ دينَه وخُلُقَه فَزَوِّجوه»[2] فليس كل متدين حسن الأخلاق

---

(١) انظر كتاب العبودية لابن تيمية (ص - ٤٣)، والدين: إيمانٌ وإسلامٌ وإحسان.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم، كما في الجامع الصغير (ج ١ - ص ١٦).

ـ لا والله ـ ولا كل ذي خلق ذا دين.

ـ وإذا كان الشِّرك منه ظاهر وخفي، فمَنْ من علماء الأمة دقَّق ومحَّص فيما هو أخفى من دبيب النمل في إفساد «الإخلاص»، والانحراف بقلب المؤمن عن مقصده وغايته وهي «إرادة وجه الله عز وجل»، ومن هم العلماء الذين صنفوا في علم «الإخلاص» وصفات المخلصين الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ (الآية ٢٨ / الكهف).

ـ وإذا كان المؤمن لا يفلح إلا في الصلاة الخاشعة، فمن هم القوم الذين يعتنون بعلم «الخشوع» وكيفية التحقق به، ويحاسبون أنفسهم على الخواطر الشاغلة عن الله عز وجل كما يحاسب الفقهاء على ترك ركن من أركان الصلاة؟ ويبذلون الغالي والرخيص لإقامة ركعة خاشعة لا يحضرون فيها إلا مع الله عز وجل؟

ـ ثم من هي الطائفة من أمة الإسلام التي اشتهرت بإدامة ذكر الله عز وجل، وعُرفت بهذه العبادة الخفيفة على اللسان، الثقيلة في الميزان، الحبيبة إلى الرحمن، والمطلقة عن الزمان والمكان وأحوال الإنسان[1]، اقتداءً برسول الله ﷺ إذْ «كان يذكُرُ اللهَ عزَّ وجلَّ على كل أحيانِه»[2] وما أكثر الحث على الذكر في القرآن

(١) لا يمنع الذكر إلا في ثلاث حالات: عند قضاء الحاجة، وعند قضاء الشهوة، وفي مكان النجاسة.

(٢) الجامع الصغير (ج ٢ ـ ص ١١٧) ـ وفيه: رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة. اهـ.

الكريم وسنة النبي ﷺ، وما أعظم فضله وأجـره وخصائصه؟!

- إننا لو ألغينا هذه العلومَ وغيرها مما اختص به هؤلاء القوم، وأقوالَهم، وما صنفوه فيها، لـو ألغيناها من قامـوس الإسلام، ورفعناها من المكتبة الإسلامية، لمجرد نسبتها إليهم، فأين البديل عنها في مصنفات الإسلام وتراثه؟!.

ولـو ألغينا هؤلاء القـوم من حيـاة المسلمين وتـاريخهم وحركاتِهم الإصلاحية، ودعواتهم الربانية فبمن نقتدي، ومن نتبع في تطبيق ما لا يحصى من نصوص الكتاب والسنة التي قامت في أشخاصهم وطبقوها في حياتهم فكانوا نصوصاً حيَّةً تمشي على الأرض.

ترى هل من أحد يهدينا إلى الخُلْفِ والبديل؟؟! وما أصدق قول الشاعر في الذين عذلوا هؤلاء القوم وأسرفوا في عذلهم وملامهم حين قال:

أَقِلُّوا عليهمْ لا أبـا لأَبـيـكُـمُ
مِنْ اللَّوْمِ أَوْ سدوا المكانَ الذي سدّوا

- إنَّ تعطيل ما لا يحصى من نصوص الكتاب والسنة علماً وعملاً بعيدٌ جداً من الاتباع، وإذا كان من المسلَّمات ألا نقبل إلا ما وافق المنصوص، فإنه ليس من المنصوص أن تُعطّلَ النصوص. قال ابن تيمية: (من جعل طريق أحدٍ من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من النساك والعباد أفضل من طريق الصحابة فهو مخطىء ضال مبتدع، ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض

الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً، فهو مخطىء ضال مبتدع. ا هـ)[1].

مكمن القوة:

- قال تعالى على لسان لوط عليه السلام: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ (الآية ٨٠ / هود). قال رسول الله ﷺ: «رَحْمَةُ الله على لوط، لقد كانَ يأوي إلى رُكْنٍ شديد - يعني اللَّهَ عزَّ وجَلَّ -»[2].

- إنَّ مكمن القوة عند القوم أنَّ جذور علومهم وأصولها في الكتاب والسنة، وسر خصوصيتهم في الذكر والاتباع.

- ففي القرآن الكريم عقائد وأحكام وأخلاق، اختص بالعقائد علماء التوحيد، وبآيات الأحكام الفقهاء، وبالأخلاق هؤلاء القوم.

- وفي القرآن الكريم ذكرٌ وفكر وسياحة، وزهد وإخلاص وإحسان، وقد أولاها القوم اهتمامهم وركزوا عليها حتى خصوا بها.

- وفي القرآن الكريم ذكر أيام الله، وآيات الله، وآلاء الله[3] عز وجل وتقدَّس اسمه. ولقد اهتم القوم بذلك. ويُقال في السنَّةِ مثل ما يُقال في القرآن الكريم.

- ولكن مكمن قوة القوم وسر خصوصيتهم ترجع إلى مداومة الذكر وصدق الصحبة ودِقَّة الاتباع.

---

(١) مجموع الفتاوي (ج ١١ - ص ١٥).

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية المذكورة من السورة.

(٣) انظر الفوز الكبير - لشاه ولي الله الدهلوي (ص - ٢).

- ففي الذكر من الفوائد والخصوصيات ما لا يحصى، وقد عَدَّ ابن القيم[1] للذكر أكثر من مائة فائدة ذكر منها في الفائدة العاشرة: (أنه يورث الذاكر المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله تعالى كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت. اهـ).

- كما ذكر في الثانية عشرة والثالثة عشرة: أنه يورث القرب منه، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه، ويفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد معرفة.

- وذكر في الفائدة الثانية والأربعين[2]: أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق كقوله تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا﴾، ﴿والله مع الصابرين﴾، ﴿وإن الله مع المؤمنين﴾، ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾. وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر، كما في الحديث الإلَهي: «أنا مع عبْدِي ما ذَكَرَنِي وتحركتْ بي شَفَتاه»، وفي أثر آخر: «أهْلي أهْلُ ذِكْرِي وأهلُ مُجَالَسَتي..» إلخ.

- قال: والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أَخَصُّ من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معيَّةٌ لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة، وإنما تُعلم بالذوق، وهي مزلَّةُ أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث، بين

---

(١) كتاب الوابل الصيب (ص-٦٦٣)، في فوائد الذكر.

(٢) المرجع السابق (ص- ٣٩٢).

الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق، بين العابد والمعبود. ا هـ .

- فالذكر هو الركن المكين الذي يأوون إليه في سلوكهم، وهو أساس المقامات كلها والأحوال والأذواق والمواجيد، والزهد والإخلاص والمراقبة والمشاهدة والمعرفة والولاية والكرامة والخصوصية، وهو الذي يُشعل جمرة الحبّ في القلوب ويوقد نار المحبة، ويولِّدُ حرارة الاتباع، والصحبةُ أساسٌ فيه، وبالصحبة يتعلم استثمار الذكر وكيفية السير به إلى المذكور سبحانه وتعالى.

- قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لو تَدُومُونَ على ما تَكُونُونَ عِندي، وفي الذِكْر، لَصَافَحَتْكُمُ الملائِكةُ على فُرُشِكُمْ وفي الطُّرُقَاتِ...»[1] الحديث.

- وقال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم﴾ (الآية ٢٨ / الكهف).

- وأما الاتباع فهم فيه على مذهب ابن عمر رضي الله تعالى عنه الذي قيل فيه: «لو نظرت ابن عمر رضي الله عنه إذا اتبع أثر النبي ﷺ لقلت: هذا مجنون[2]! وروى أبو نعيم في الحلية عن نافع عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه كان في طريقِ مكةَ يقولُ برأسِ راحلتِهِ يُثْنِيها ويقول: لعلَّ خُفًّا يقعُ على خُفٍّ - يعني خف راحلة النبي ﷺ»[2].

- ومن حرصهم على الاتباع عُرفوا بأنهم أرباب العمل

(١) رواه مسلم. كذا في المشكاة (ج ٢ - ص ٧٠١).
(٢) انظر حياة الصحابة (ج ٢ - ص ٦٥٥).

بالحديث الضعيف، وهذا لعمري خصوصيةٌ للقوم وليس عيباً فيهم، لأنه لا يقدر على ذلك غيرهم. فإنَّ مَنْ ثبتَ عنده ضعف الحديث لا يجد في نفسه الهمة للعمل به، ولا قوة الإرادة لطلبه، لأنه يغلب على النفوس التثاقل عن التكاليف الشرعية، فإذا ما وجدت في الحديث ضعفاً وجدت لترك العمل به عذراً، وتكتفي بصحيح الأحاديث وحسنها. والحقيقة: أنه لا يقوى على العمل بالحديث الضعيف إلا عاشق متيم، حيثما لاحت له نار المحبوب مال إليها كما قال حاديهم:

لَمَعَتْ نارُهُم وقد عَسْعَسَ الليلُ
ومَلَّ الحادي وحارَ الدليلُ
فتأملتها وقلتُ لصحبي
هذه النار نار ليلى فميلوا

- فهم يرون أنه «حديث شريف»، وحظه «أنه ضعيف»، ولكن ضعفه لم يقطع نسبته عن المحبوب ﷺ، وإلا لقالوا موضوع.

- إنَّ هذه الثروة الضخمة من الأحاديث الضعيفة التي تنسب إلى الرسول ﷺ، حفظها هؤلاء القوم في أعمالهم وآدابهم وأورادهم بحيث لا يمكن أن يُروى قولٌ عنه ﷺ مهما كان ضعيفاً إلا وتجد من يعمل[1] به، وهذا من معجزات الإسلام الخالد،

---

(١) قال الإمام النووي في الأذكار (ص-٧): قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً. وأما الأحكام كالحلال والحرام والبيع والنكاح والطلاق وغير ذلك فلا يعمل فيها إلا بالحديث الصحيح أو =

وكمال القيادة المحمدية، وخيرية هذه الأُمة، لأنَّ بكمال الاتباع كمال الدين. وتمام النعمة وحقيقة الرضوان كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (الآية ٣ / المائدة).

ـ وكذلك حقيقة المحبوبية وكمال المغفرة، قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ (الآية ٣١ / آل عمران).

ـ كما أنَّ العمل بالحديث الضعيف بمثابة الحماية للحديث الحسن والصحيح والقرآن الكريم، كحماية السنن للفرائض في باب الصلاة، إذ قال العلماء: السنن القبلية تقطع طمع الشيطان، والبعدية لجبر النقصان. وهكذا قال الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في «الغنية» في آخر كتاب الآداب وفيه الكثير من الأَحاديث الضعيفة: ينبغي للإنسان أن يحفظ الآداب في جميع أموره من الوضوء والصلاة والبيع والشراء وغير ذلك. وعَلَّلَ ذلك فقال: فإذا ترك الآداب طمع الشيطان في السنن ثم في الفرائض، ثم في الإخلاص، ثم في اليقين[1]. ا هـ.

= الحسن، إلا أن يكون في احتياط في شيء من ذلك كما إذا ورد حديث ضعيف بكراهة بعض البيوع أو الأَنكحة فإن المستحب أن يتنزه عنه ولكن لا يجب. ا هـ.

(١) (ج ١ ـ ص ٢٥١).

الشيخ عبد القادر والإسلام:

أكثر ما يذكر الشيخ إذا ما ذكرت طريقته، فاسمه الكريم ممتد كامتدادها، ومنتشرٌ ومشتهرٌ حيثما انتشرت واشتهرتْ، فشهرته الصوفية فاقت شهرته العلمية، وشخصيته التربوية فاقت شخصيته التعليمية. فقوته في الدعوة والنصيحة للمسلمين عامتهم وخاصتهم مشهودٌ له بها، كما أنَّ له سلطاناً قوياً في الوعظ، وجرأة على السامع لا يقوى عليها إلا النادر من الرجال، وكان الشيخ رحمه الله تعالى يعرف هذا من نفسه فأسمع إليه يقول: «عندي وقاحة ترجع إلى دين الله عز وجل، قد رُبّيت بيد خشنة غير منافقة»[1].

ـ لذا فهو لا يرضى من الواعظ نكتة يُضحك بها الناس، أو حديثاً تنبسط إليه نفوسهم بل لا بد من قرع رؤوسهم دائماً بلسانٍ خشن، فيقول: «ويحك، تقعد في هذا المقام تعظ الناس ثم تضحك بينهم، وتحكي حكايات مضحكة، لا جرم لا تفلح ولا يفلحون، الواعظ معلِّم ومؤدِّب، والسامعون كالصبيان، والصبيُّ لا يتعلم إلا بالخشونة ولزوم الحزم، والعبوس، وآحاد أفراد منهم يتعلمون بغير ذلك هبة من الله عز وجل اهـ»[2].

وتظهر شدته وقوة زجره في مخاطبته للناس، فاسمع إليه يقول مثلاً في المجلس التاسع والعشرين من الفتح الرباني: اسمعوا يا منافقين... يا مشركين بالله عز وجل ما عندكم منه ولا من

(١) الفتح الرباني (ص ـ ٢٦).

(٢) المصدر السابق (ص ـ ٢٣٦).

رسوله ﷺ خبر. أسلموا وتوبوا وأخلصوا. . .

ويلـك أنت مشرك، منافق، مراءٍ، مداخلٍ، زنديق، ويلك على من تتبهرج؟ على من «يعلم خائنـةَ الأَعين ومـا تخفي الصدور»[١]. ا هـ. وما أكثر ما يخاطب الناس بمثل هذه الكلمات في مواعظه.

- ثم إنَّ الشيخ رضي الله تعالى عنه واثقٌ من موقعه في الإسلام، عارف بموضع قدمه منه، وعارف أيضاً مقامه عند ربه عز وجل بما ينشرح له صدْره من صفاء الإلهام، وحقائق الإيقان، لذا تراه يقول: «يا غلام: اجعلني مرآتك، اجعلني مرآة قلبك وسرك، مرآة أعمالك، ادْنُ مني فإنك ترى في نفسك ما لا تراه مع البُعْد عني، إن كان لك حاجة في دينك فعليك بي فإني لا أجاملك في دين الله عز وجل. . . . . دع دنياك في بيتكِ وادن مني، فإني واقفٌ على باب الآخرة، وقِفْ عندي واسمعْ قولي. . . إلخ»[٢].

- كما أن غيرته الإسلامية غيرة طامحة جامحة، فهو يغار على الإسلام في نفس المسلم فيقول له: «ويحك قميص إسلامك مخرق، ثوب إيمانك نجس. أنت عريان، قلبك جاهل، سِرُّكَ مكدَّر. صدرك بالإسلام غير مشروح، باطنك خراب وظاهرك عامر، صحائفك مسودة، دنياك التي تحبها عنك راحلة، والقبر والآخرة مقبلان إليك، تنبه لأَمرك. . .»[٣].

---

(١) الفتح الرباني (ص - ١٠٠).
(٢) المصدر السابق (ص - ٢٦).
(٣) المصدر السابق (ص - ٢٣٦).

ـ كما أنه شديد الشفقة على المسلمين ويتمنى لو استطاع أن ينقذ كل واحد منهم فيقول: «إقبالي عليكم لله تعالى، أخذي منكم لله تعالى، لو أمكنني دخلت مع كل واحد منكم القبر وجاوبت عنه منكراً ونكيراً رحمة وشفقة عليكم...»[١].

ـ وشديد الخوف على ضياع دين الإسلام، وأمة الإسلام، وأخلاق الإسلام فاسمع إليه يقول: «الإسلام يبكي ويستغيث، يده في رأسه من هؤلاء الفجار، من هؤلاء الفسّاق، من هؤلاء أهل البدع والضلال، من الظلمة، من اللابسين ثياب الزور، من المدعين ما ليس فيهم... الكلب ينصح صاحبه في صيده وزرعه وماشيته، وحراسته... وإنما يطعمه عند عشائه لقمة أو لقيمات، أو يطعمه شيئاً يسيراً، وأنت تأكل نعم الله تعالى وتشبع منها ولا تعطيه منها مطلوبه، لا توفيه حقه، ترد أمره، لا تحفظ حدوده»[٢].

ـ وكأن هذه الغيرة على الإسلام والمسلمين، وهذا الحماس لدين الله عز وجل، وهذه الهمة العالية في إصلاح الخلق التي تجاوزت شخصه وبلده ـ عاصمة العالم الإسلامي ـ وشملت كل بلاد الإسلام، ودين الإسلام، وحرصت حتى على هداية غير المسلمين، كأن هذه الآمال، والآلام، وتلك النية الخالصة لإصلاح الخلق، جعلت من دعوته إلى الله عز وجل استمراراً، ولاسمه بقاءً على مَرِّ العصور، وإنَّ كل بناء يقوم على اسم الله تعالى، ولذكر الله تعالى خالصاً لوجهه الأقدس من الأرجح أن

---

(١) الفتح الرباني (ص ـ ٢٩٧).

(٢) المصدر السابق (ص ـ ٣٠١).

يدوم، قال تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (الآية ١٢٧ / سورة البقرة).

الشيخ عبد القادر والوعظ:

أكثر ما يُعَدُّ للشيخ في مصنفاته المجالس الوعظية فله في كتاب الغنية[١] أربعة عشر مجلساً في (٦٤٦) صفحة. وفي كتاب الفتح الرباني اثنان وستون مجلساً في أكثر من ثلثمائة صفحة.

- وأكثر ما يركز في مواعظه على أعمال القلوب والأمور الإيمانية، واليقين، والإخلاص، وهي أساس الدين. يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى في أول «كتاب علم السلوك»[٢]:

هذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب - التي قد تسمى «المقامات والأحوال» - وهي من أصول الإيمان، وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله تعالى وإخلاص الدين

---

(١) هذا الكتاب حققه مؤخراً الأستاذ: فرج توفيق الوليد - أستاذ مساعد في كلية الشريعة من جامعة بغداد. وقدَّم بهذا التحقيق فوائد جليلة للكتاب ولدارسيه - جزاه الله تعالى خيراً -، وزاد عليه فوائد كثيرة لطلاب العلم علاوة على تخريج الأحاديث وترقيم الآيات، فترجم للأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب، وذكر بعض أدلة الأحكام، ووضح الكلمات الغريبة، كما ترجم للشيخ في مقدمة الكتاب ترجمة مختصرة مفيدة - فجزاه الله خيراً. والكتاب في ثلاث مجلدات ويقع في (١٥٠٩) صفحات، مع فهارسه الشاملة لكل مواده. ولعل الله عز وجل ييسر لكتاب الفتح الرباني من يخدمه هذه الخدمة أيضاً.

(٢) انظر (ج ١٠ - ص ٥) من مجموع الفتاوى لابن تيمية.

له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك. . . . أقول: هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق، المأمورين في الأصل ـ باتفاق أئمة الدين. . ا هـ.

ـ ولقد ذكرنا أن الشيخ رحمه الله تعالى أوتي قوة في الوعظ قلما توجد في مثله ممن يتصدرون مجالس التذكير ويقومون بهذه المهمة، وإنك لتشهد هذه القوة في كل ورقة من مجالسه الوعظية بل في كل صفحة، بل إنك تلمس هذا إذا قرأت بضعة أسطر لا على التعيين من أي مجلس من مجالسه.

ـ وأحسب أن هذه القوة العجيبة في الوعظ نابعة من أسس ثلاثة قامت عليها شخصيته العظيمة، والتزمت بها روحه الطاهرة رضي الله عنه وهي: قوة الإيمان مع الاستقامة، والحفظ، وقوة الإلهام. ومن لم يؤت هذه الصفات لا يستطيع أن يخاطب الناس كما يخاطبهم الشيخ، كما لا يستطيع أن يدعي الدعاوى التي يعلن بها الشيخ رحمه الله تعالى على رؤوس الأشهاد، إلا إذا كان قوي النفاق ذرب اللسان، ومع ذلك فإنه سيفتضح ولو بعد حين، ولن يوجد له في نفوس الناس القبول والإجلال والتعظيم، ولا في أقوال العلماء وشهاداتهم الثناء والاعتراف والتبجيل كما شهد الناس عامتهم وخاصتهم للشيخ رحمه الله تعالى، كما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرءٍ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ـ فمن لم يكن مؤمناً موقناً بما يدعو إليه ملتزماً به واثقاً أنه

على الطريق السوي والشرع المحمدي، والصراط الربـاني لا يخرج عنه قيد أنملة، ولم يترك منه نقيراً ولا قطميراً ولا فتيلاً إلا ألزم نفسه به.

ـ ومن لم يكن محفوظاً عن المعاصي والمخالفات لا يجرؤ أن ينهي الناس عما يفعل ـ بهذه القوة وهذا الزجر ـ وحتى لو كانت تحدث له توبة ورجعة فإنَّ ذل المعصية وسواد الوجه الذي تورثه يطفئان من عزة النفس، ويبالغان في كسر اعتزازها واستعلائها وهيمنتها على السامع، فكيف يقوى العاصي أن يقول كقول الشيخ وقبل ساعة كان في مخالفة؟!. إنَّ ظلمة المعصية تُميت في نفس الواعظ حياة الكلمة، وتضعف قوتها، وتطفىء نورها، وتزيل أثرها وسلطانها على النفوس، وتَذْهبُ ببلاغتها. أو تقول: تفقد الكلمة معناها مع المعصية.

ـ ومن لم يكن يعرف مقامه عند ربه عز وجل بقوة الإلهام، وصفاء القلب، واستشعار القرب، ولذة المناجاة ووضوح التجاوب في مقام الإحسان، لا يجرؤ على قول الشيخ أو أن يدعي دعواه.

ـ وقد قالوا في الحكم: «إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله عز وجل فانظر في ماذا أقامك».

ـ كما قالوا في الإلهام: «الإلهام ضوء من سراج الغيب يسقط على قلب صاف لطيف فارغ». أي فارغ مما سوى الله عز وجل.

ومع هذه القوة والعزة والاستعلاء على السامع والهيمنة عليه في الوعظ، ومع هذا التقريع والزجر، تجد في حنايا روح الشيخ الذل والانكسار للرب القهار، وتجد الرحمة والشفقة، والحياء

الـذي تفيض به روحـه إلى درجة متنـاهية من الـرقة والحس المرهف، واسمع إلى الشاعر الأديب سعدي الشيرازي يُـدلي للشيخ الجليل بهذه الشهادة الخالصة في «روضة الورد» فيقول:

رأيت عبد القادر الكيلاني قُدس سره في حرم الكعبة، واضعاً رأسه على الحصا وهـو يقول: إلٰهي، اعف عني، وإن كنت مستوجباً العقوبةَ فاحشرني يوم القيامة أعمى حتى لا أذوب خجلاً من رؤية وجوه الصالحين(١).

ثم قال سعدي:

أُعفـر وجهي كلمـا هبت الصبـا
على الترب كي ترضى لعجزي وتقصيري

فيا شاغلاً قلبي بذكراك يا ترى
أعندك لي ذكرىٰ تُديم سروري

وبعد: أنصحك أيها الأَخ المسلم أن تقرأ مجالس الشيخ الوعظية لترى صدق ما قلت، واقرأها على أهلك. وأتركك منذ الساعة مع كتاب المؤلف، جزاه الله تعالى خير الجزاء، وبعث في هذه الأمة من ينفخ فيها روح الحياة والدعوة والتجديد، والله على ما يشاء قدير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وشرف وكرم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقير إلى الله تعالى
محمد بشير الشقفة

---

(١) كتاب روضة الورد (ص ـ ٨٥).

المقــدّمَة

الحمدُ لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده. الحمد لله عز وجل القائل: ﴿. . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير﴾[1] ﴿. . . قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. إنما يتذكر أولوا الألباب﴾[2]، والقائل سبحانه وتعالى: ﴿. . إنما يخشى الله من عباده العلماءُ، إن الله عزيز غفور﴾[3] ﴿. . فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[4].

ثم الصلاة على نبينا وشفيعنا سيدنا محمد الذي أرسله الله سبحانه وتعالى بالحق بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الحق بإذنه وسراجاً منيراً وعلى آله وصحبه وورثته من العلماء، وسلّم عليهم يا رب تسليماً كثيراً.

---

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.

(٢) سورة الزمر، الآية ٩.

(٣) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٤) سورة النحل، الآية ٤٣.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1] ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من حديث: «.. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر». رواه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

انبجس نور الإسلام الوهّاج، ونبعه الصافي، من مكة المكرمة، ثم انساب هادئاً رقراقاً إلى المدينة المنورة، ولما اشتد عوده فيها، وقوي هديره اندفع يجتاز الصحارى والوهاد، والسهول والجبال، كالإعصار لا يقف أمامه شيء حتى وصل في أقل من قرن من الزمان، إلى حدود الصين في الشرق، وإلى جبال البيرينيه والمحيط الأطلسي في الغرب.

بلّغ النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ما كان حياً. وقبل أن يتوفاه الله سبحانه وتعالى، قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله» رواه مالك في الموطأ[2]. ولكن كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحتاجان إلى من يحسن الاستنباط منهما. وقد قام بهذه المهمة، بعد وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم جملة من صحابته الكرام رضي الله عنهم، ومن تبعهم

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) جامع الأصول جـ ١ ـ ص ٢٧٨.

بإحسان من العلماء العاملين المخلصين، ورثـة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد رسم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لطريق الذي يجب أن تسير عليه أمته ومن يأتي بعده من العلماء العاملين، فقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ «خطَّ خطاً، وخطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال: هذه سبيل الله، وهذه سبلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ: ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[1] رواه ابن ماجه وأحمد والبزار.

وسار على هذا الطريق العلماء العاملون المخلصون الذين استنبطوا الأحكام من الكتاب والسنة، بعد ما طرأت أمور وحدثت أشياء لم تكن موجودة في زمن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فوضعوا بذلك سياجاً لهذا الطريق لئلا يتفلت منها السـائرون من أمة محمد ﷺ فتخطفهم الشياطين فتهلكهم، ولكن لما طال على الأمة الأمد، وامتد الزمان، وبعدت الشقة: أخذ هذا السياج يتلاشى في نفوس الناس شيئاً فشيئاً، وأخذوا يتفلتون من الطريق المستقيم، سبيل الله شيئاً فشيئاً، وأخذت تجتالهم الشياطين وتـرمي بهم في كل اتجاه سوى الاتجاه الصحيح، وبخاصة بعـد ما أقبلت عليهم الـدنيا فافتتنوا بها ونسوا ما ذكروا به.

ولكن الله سبحانه وتعـالى قد تكفـل بحفظ دينه وكتـابه. والأنبياء قد ختموا بسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ انظر تفسير الآية في تفسيري ابن كثير والخازن.

لذلك أصبحت مهمة الحفظ موكولة إلى العلماء العاملين المخلصين، ورثة الأنبياء، هؤلاء الذين عناهم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عندما قال فيما رواه أبو هريرة: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1].

وليس من الضروري أن يكون المجدد في كل مائة سنة واحداً، لأن كلمة (من) تشمل المفرد والجمع. وهكذا ظهر في الأمة الإسلامية، على مر العصور، علماء صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه، حملوا بأيديهم مشاعل النور لينيروا الطريق للسالكين وليردوا التائهين ويهدوا الضالين، ويحيوا النفوس التي كادت تموت، وينتشلوا الذين كادوا يسقطون في ظلمات الجحيم، وهذا يعد من أعظم الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي سبيل إحياء دينه، وإعادة التوازن إليه، وهو أيضاً من أعظم القربات إليه تعالى، ولا يستطيع القيام به إلا من أعطاه الله تعالى بسطة في العلم ونوراً في العقل، وحكمة في التفكير والسلوك.

ولقد كان هؤلاء العلماء الأعلام كثيرين ـ والحمد لله تعالى ـ في الأمة المحمدية؛ منهم كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ومنهم كبار التابعين كسعيد بن المسيب والحسن البصري والشعبي وابن سيرين وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وعمر بن عبدالعزيز وطاووس بن كيسان وغيرهم، ومنهم أئمة المذاهب الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، ومنهم سفيان الثوري، والفضيل بن عياض، والليث بن سعد، وأسد بن الفرات، وعبدالله بن المبارك، ومنهم عزالدين بن عبد السلام والنووي

(١) رواه أبو داود في كتاب الملاحم.

ومنذر بن سعيد البلوطي وابن تيمية، ومنهم محمد بن علي السنوسي في ليبيا، وابن باديس والبشير الإبراهيمي في الجزائر، والنورسي في تركيا، وبدر الدين الحسني ومحمد الحامد في الشام، وكثير غيرهم رحمهم الله تعالى أجمعين، هؤلاء الذين قال فيهم ابن القيم رحمه الله: «قوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وجهاد بالحجة والبيان. وهذا جهاد الخاصة، من أتباع الرسل. وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته، وشدة مؤونته، وكثرة أعدائه»(١).

ومن هؤلاء العلماء الأعلام، وقد يكون في الذؤابة منهم، الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى في القرن السادس الهجري، أتى بعد أن اختل ميزان المجتمع الإسلامي اختلالاً كبيراً، وأقبل الناس على الدنيا إقبالاً عظيماً، وأهملوا الآخرة إهمالاً شديداً، بعد أن فسدت الأخلاق وانحطت القيم، وأصيب بعض الناس ببطر الغنى وبعضهم الآخر بمذلة الفقر. فحمل رحمه الله تعالى المشعل بيده ووقف على ناصية الطريق ينادي: إليّ أيها التائهون، إليَّ أيها الضالون، إليَّ أيها الضائعون. طريق الإسلام من هنا، عودوا إليه قبل أن تجتالكم الشياطين وتهلككم الأهواء وتفتنكم الدنيا، وظل هكذا يبين ويدعو ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر طوال حياته التي استمرت تسعين عاماً من سنة ٤٧١ هـ إلى سنة ٥٦١ هـ لم يخش أحداً إلا الله تعالى ولم تأخذه في الحق لومة لائم، فأسلم على يديه ألوف الناس وتاب عشرات الألوف،

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ٧٠.

وعاد الاعتدال إلى الميزان، واختفت البدع، ووضح الطريق.

ولم أجد أحداً من المؤلفين قد درس هذا الشيخ العالم الكبير دراسة وافية وأعطاه حقه الذي يستحقه. فقد كتب عنه، رحمه الله تعالى، كثير من المؤلفين القدماء، ولكن بعضهم أساء إليه من حيث يريد أن يحسن، بما ألصقه به من الكرامات التي لا يتحملها العقل، كما أنَّ المؤلفين المحدثين الذين كتبوا عنه كانت كتاباتهم مختصرة، كالشيخ يونس السامرائي والأستاذ فخري الكيلاني، أو أشركوه مع غيره في كتاباتهم ولم يخصوه ببحث مستقل به وحده كأبي الحسن الندوي والدكتور ماجد عرسان الكيلاني جزاهم الله خيراً.

لذلك رأيت أن أقوم بهذا البحث عنه، رحمه الله تعالى، لعلي أوفيه بعض حقه الذي يستحقه، ولا أظنني مستطيعاً، فهو أكبر من ذلك بكثير، وأوسع من ذلك بكثير، وعلى أية حال إن كنت قد أحسنتُ بعض الإحسان فمن الله سبحانه وتعالى فهو صاحب المنّة والفضل، وهو أهل الثناء والحمد، ثم ممن قدَّم لي يد المساعدة ونور لي طريق البحث والتنقيب، فلهم مني جزيل الشكر، وجزاهم الله تعالى خير الجزاء، وإن كنت قد أسأت في شيء فمن نفسي وأستغفر الله العظيم.

أما منهاج البحث الذي سأسير عليه فهو كالآتي:

الباب الأول:

لمحة جغرافية، لمحة تاريخية، لمحة اجتماعية، لمحة عن الحياة الثقافية.

الباب الثاني: المولد والنشأة ومرحلة الدرس والتحصيل:

الفصل الأول: مولد الشيخ عبد القادر ونشأته، نسبه، طفولته.

الفصل الثاني: رحلته إلى بغداد والامتحان الأول له.

الفصل الثالث: الشيخ عبد القادر في بغداد، فترة الدرس والتحصيل، شيوخه وأساتذته، حياته في بغداد.

الباب الثالث: مرحلة التدريس والتهيؤ للإرشاد والإصلاح:

الفصل الأول: صفات الشيخ عبدالقادر وأخلاقه.

الفصل الثاني: علم تزكية النفس: نشوؤه وتطوره وضرورته للمجتمع.

نشوء علم التزكية. حقيقته. أقوال أعلام الصوفية فيه. أقوال العلماء فيه. هل التصوف ضروري للمجتمع الإسلامي؟ ماذا فعل الصوفية للإسلام في تاريخه الطويل؟ النتيجة.

الباب الرابع: مرحلة التمكين وتربية المريدين:

الفصل الأول: علومه ودروسه.

الفصل الثاني: عقيدته: الاتباع، التوحيد، مسألة الصفات، القضاء والقدر، التوكل والعمل، الورع، الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، الجهاد، التوبة والاستغفار، الإخلاص، الخوف والرجاء، رأيه في الفرق الضالة، روايته للحديث.

الفصل الثالث: طريقته: الصبر، الشكر، التواضع، الصدق والإخلاص، التوكل على الله تعالى، الزهد في الدنيا، الرضا، الحب، المجاهدة، الرحمة، السماع، الشيخ المرشد، أسس الطريقة القادرية.

الفصل الرابع: كرامات الشيخ عبد القادر.

الباب الخامس:

الفصل الأول: وفاته ووصاياه.

الفصل الثاني: زوجاته وأولاده وحفدته.

الفصل الثالث: انتشار العائلة الكيلانية.

الفصل الرابع: تلاميذ الشيخ عبد القادر.

الفصل الخامس: مدرسة الشيخ عبد القادر بعد وفاته.

الفصل السادس: أقوال العلماء في الشيخ عبد القادر.

الفصل السابع: المؤلفون الذين ذكروا الشيخ عبد القادر في كتبهم.

الفصل الثامن: كتب الشيخ عبد القادر، نثره وشعره.

الخلاصة.

البَابُ الأَوَّل

لمحَةٌ جُغْرافِيَّةٌ وَتارِيخيَّةٌ وَاجْتِماعِيَّةٌ وَثقافِيَّةٌ



تـمْهيـد

للبيئة والمحيط تأثير كبير في تكوين شخصية الإنسان، لذلك لا بأس أن أورد فيما يلي لمحة جغرافية وتاريخية عن منطقة جيلان. ثم لمحة عن الحالة الاجتماعية والثقافية في ذلك العصر.

لمحة جغرافية:

جاء في كتاب «مراصد الاطلاع على أسماء الأَمكنة والبقاع»[1] لصفي الدين عبد المؤمن البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ، وهو مختصر من كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي:

«جِيلان: معرب كيلان، اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، وهي قرى كلها في مروج بين الجبال على ساحل بحر طبرستان (أي بحر قزوين).

جَيْلان: قوم من الفرس من أهل اصطخر نزلوا في طرف البحرين، ونزل عليهم قوم من بني عجل فدخلوا فيهم، فهم يسمون جيلان.

---

(١) ص ٣٦٨.

الجِيل: هم أهل جيلان. والجيل: قرية من قرى بغداد على جانب دجلة، ويسمونها: الكيل».

وجاء في كتاب (الأنساب)[1] للإمام أبي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني:

«الجيـلاني: نسبة إلى جيـلان، وهي بلاد معـروفـة وراء طبرستان، سميت باسم من بناها من نسل يافث بن نوح، وجيلان أيضاً خشب صلب من شجر العناب».

وجاء في كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي:

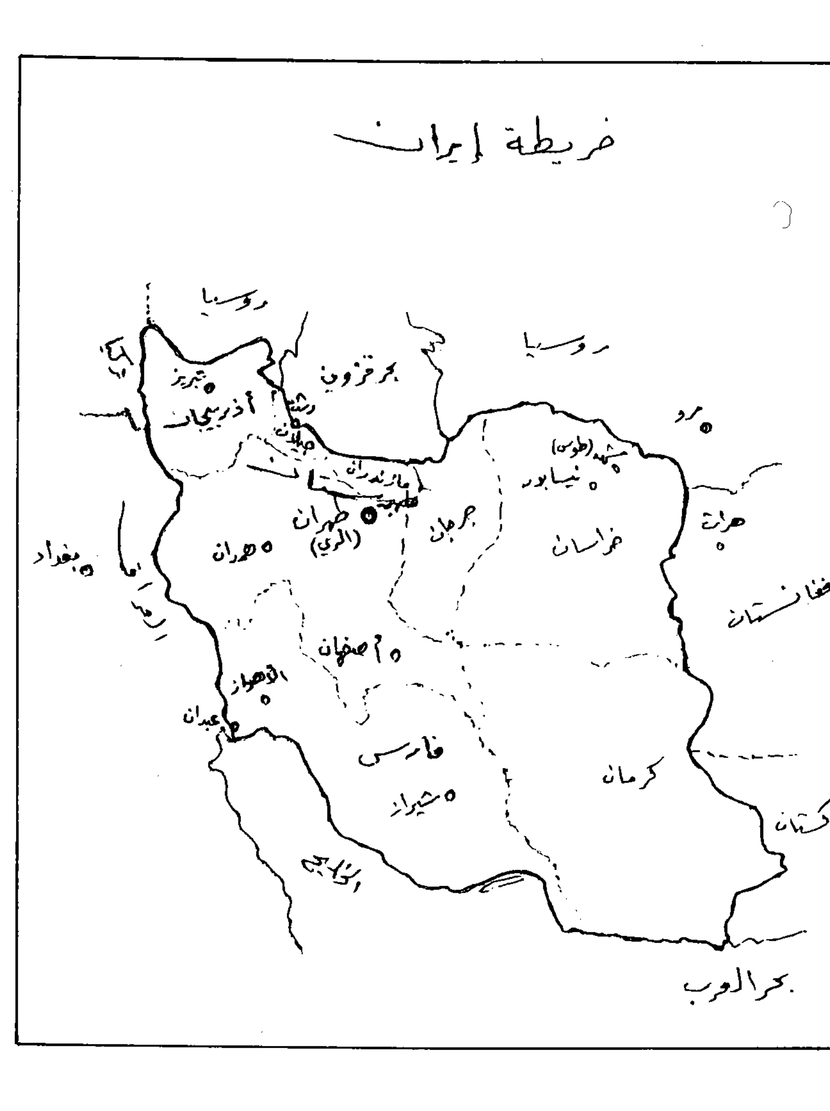
«جِيلان: بالكسر، اسم لبلاد كثيرة وراء بلاد طبرستان، وليس في جيلان مدينة كبيرة، إنما هي قرى في مروج بين الجبال؛ ينسب إليها: جيلاني وجيلي، والعجم يقولون: كيلان، والنسبة إليها: كيلاني».

أما أبو الحسن الندوي فيقول في كتابه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) نقلاً عن دائرة معارف البستاني:

«جيلان أو كيلان ويقال لها أيضاً بلاد الديلم وهي في القسم الشمالي الغربي من بلاد فارس، يحدها شمالاً ناحيـة تاليس الروسية، وجنوباً بغرب سلسلة جبال البرز الفاصلة بينها وبين

---

(١) ٢/١٤٦.



خريطة إيران
روسيا
بحر قزوين
روسيا
تبريز
أذربيجان
رشت
جيلان
مازندران
مرو
مشهد (طوس)
نيسابور
طهران
(الري)
همدان
جرجان
خراسان
هراة
بغداد
أصفهان
الأهواز
عبدان
فارس
شيراز
كرمان
الخليج
بحر العرب

أذربيجان وعراق العجم، وجنوباً بشرق مازندران، وشمالاً بشرق بحر قزوين».

إذن فجيلان أو كيلان بلاد تقع جنوبي غربي بحر قزوين.

أما كتب الجغرافيا الحديثة[1] فتقول: إن إيران مقسمة إلى أربعة عشر إقليماً، أحدها إقليم جيلان الذي يقع في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وهو إقليم كثير الأمطار، كثير الأنهار، ذو تربة خصبة، كثير السكان، يزرع فيه جميع أنواع الحبوب مع الشوندر والشاي والفواكه والخضروات. وأهم مدنه مدينة (رشت) على ساحل بحر قزوين؛ وقد حدث في هذا الإقليم في سنة ١٩٩٠ م سلسلة من الزلازل والهزات الأرضية ذهب ضحيتها أكثر من ثلاثين ألف قتيل[2]. ويبلغ طول إقليم جيلان ٢٢٥ كلم وعرضه من الجبال إلى البحر يتراوح بين ٢٥ كلم و ١٠٥ كلم.

لمحة تاريخية:

في السنة الثامنة من الهجرة أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم رسائل إلى ملوك جزيرة العرب والبلاد التي حولها، ومنها رسالة إلى كسرى أبرويز ملك الفرس، حملها إليه عبد الله بن حذافة رضي الله عنه. وبعد ما قرأ كسرى الرسالة مزقها، وعندما علم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بذلك دعا

---

(١) كتاب الجغرافيا للصف الأول الثانوي في الكويت ص ١٤٣.

(٢) في ٢١/٦/١٩٩٠ حدث زلزال شديد في هذا الإقليم راح ضحيته أكثر من ٢٥ ألف قتيل و ١٠٠ ألف جريح.

عليه فقال: «اللهم مزِّق ملكه»، فاستجاب الله سبحانه وتعالى الدعاء.

وبدأ تمزق ملك كسرى في يوم مهران أو يوم النخيلة سنة ١٥ هـ، وكانت قيادة المسلمين لجرير بن عبد الله والمثنى بن حارثة الشيباني، فقتل قائد الفرس مهران وكثير من أتباعه. ثم تبعته معركة القادسية سنة ١٦ هـ بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه التي استمرت أربعة أيام وقتل فيها رستم وأكثر قواد الفرس العظام واستسلمت فرقة حرس القائد رستم التي كانت تدعى بجند شاهنشاه وكان عددهم أربعة آلاف رجل، فانضموا إلى المسلمين ثم اعتنقوا الإسلام[١].

ثم معركة المدائن في سنة ١٦ هـ وكانت المدائن عاصمة كسرى، وهي على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وكان اسمها طيسفون، وسماها العرب المدائن لكثرة ضواحيها، وانتصر العرب في هذه المعركة أيضاً التي كانت بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه.

ثم معركة جلولاء في سنة ١٦ هـ أو سنة ١٧ هـ بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أيضاً.

ثم معركة نهاوند أو فتح الفتوح في سنة ١٩ هـ أو

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي جـ٨، ص ٥١.

سنة ٢٠ هـ[١] بقيادة النعمان بن مقرن رضي الله عنه الذي قتل في المعركة فتولى القيادة بعده حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه. وقد قضى المسلمون في هذه المعركة على جيوش الفرس قضاءً شبه كامل، فقتل منها الكثير واستسلم منها الكثير، وانفتحت البلاد بعد هذه المعركة أمام المسلمين فانساحوا فيها يفتحون البلدان الواحدة تلو الأخرى؛ ففتحوا همذان في سنة ٢٣ هـ وقم وقاشان وأصبهان في سنة ٢٣ هـ أو سنة ٢٤ هـ.

وبعد معركة نهاوند بشهرين فتح المسلمون الري (طهران الآن) بقيادة البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه. كما فتحوا حصن قزوين وجيلان والببر والطيلسان وزنجان، وهي من بلاد الديلم[٢]. وكانت هذه البلاد تنتفض عليهم فيعيدون فتحها المرة تلو الأخرى.

ثم فتحوا أذربيجان بقيادة حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه في سنة ٢٠ أو سنة ٢٢ هـ، كما أعاد فتح جيلان القريبة منها، ولكنها انتقضت فأعاد فتحها سعيد بن العاص، ثم أسلم أكثر أهلها وقرؤوا القرآن[٣].

أما يزدجرد آخر ملوك الفرس، فقد هرب، بعد معركة نهاوند،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٩٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣١٤.

(٣) فتوح البلدان ص ٣٢٠.

إلى اصطخر ومنها إلى خراسان، ثم إلى مرو حيث قُتل هناك في سنة ٣١ هـ، وانتهت بموته دولة آل ساسان، وتمزقت دولة الفرس استجابة لدعوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، بعد ما مزق ملكهم كسرى رسالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وانساح المسلمون في بلاد الفرس، واستشهد كثير منهم في تلك البلاد، كما استوطنها كثير منهم أيضاً، وتزوج كثير منهم من نساء الفرس، فقد ذكر البلاذري[١] أن الحسن والحسين رضي الله عنهما ابني علي بـــن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه كانا في جيش سعيد بن العاص عندما غزا طبرستان وجيلان. وقد تزوج الحسين رضي الله عنه بعد ذلك من شاهبانو بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس[٢]، وعند ذلك أخذ الفرس يدخلون في دين الإسلام زرافات ووحداناً، وامتزج العرب بالفرس وأخذت اللغة العربية تنتشر في البلاد المفتوحة، ولا تزال قبور بعض أعلام العرب المسلمين شاهدة حتى الآن على توغل العرب في تلك البلاد، ولعل أبرزها قبر قثم بن العباس رضي الله عنهما، الذي لا يزال قائماً حتى الآن يزار في مدينة سمرقند[٣]، وحذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه توفي في المدائن ودفن فيها، وسلمان الفارسي رضي الله عنه توفي أيضاً في قرية قريبة من المدائن ودفن فيها،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٦.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي جـ ٨ ص ٥٣.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٩٨.

وتدعى الآن (سلمان باك) نسبة إليه، وغيرهما كثير من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من المسلمين، طاب لهم المقام في تلك البلاد فسكنوا فيها وتوفوا فيها، ليس في إيران وحدها بل وفي باكستان والهند وأفغانستان وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون. لذلك لا ينبغي لنا أن نستغرب وجود عائلات، في تلك البلاد، أصولها عربية، وإن كانوا الآن يتكلمون الفارسية أو الأوردية أو البلوشية... ولا يعرفون من اللغة العربية شيئاً.

ومنذ بدء القرن الثالث الهجري - أي في خلافة المأمون - بدأت الولايات البعيدة في إيران تستقل استقلالاً ذاتياً عن مركز الخلافة في بغداد، وتتشكل فيها دويلات لا تتبع بغداد إلا بالاسم فقط. ففي خراسان تشكلت الدولة الطاهرية، نسبة إلى طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون، من سنة ٢٠٥ هـ إلى سنة **٢٥٩ هـ** وكانت عاصمتها نيسابور. وحاولت هذه الدولة أن تستولي على طبرستان وجيلان ولكنها فشلت، فقد استدعى أهل طبرستان وجيلان رجلاً علوياً من الري اسمه الحسن بن زيد بن محمد من نسل سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه في سنة ٢٥٠ هـ وهزموا تحت قيادته جيوش الدولة الطاهرية. وهكذا تشكلت الدولة الزيدية في طبرستان وجيلان من سنة ٢٥٠ هـ إلى سنة ٣١٦ هـ[1]. وقدم مع الحسن بن زيد، من الري ابن ابن عمه إدريس بن موسى، ومعه أخوه داود بن

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي جـ٨ ص ٦٠، وتاريخ أبي الفداء جـ١١ ص ٤٤.

موسى بن عبد الله، وهو الجد الرابع للشيخ عبد القادر رحمه الله[1]، كما سيأتي بيان ذلك. ثم حلت الدولة الزيارية نسبة إلى مرداويج بن زيار، من الديلم، (من سنة ٣١٦ هـ إلى سنة ٤٣٣ هـ) محل الدولة الزيدية.

وننوه هنا بأن الحسن بن زيد مؤسس الدولة الزيدية العلوية كان له أثر كبير في نشر الإسلام في بلاد الديلم وجيلان، وكذلك الداعية الإسلامي العالم الحسن بن علي الملقب بالأطروش، الذي وُجِد في ذلك الوقت والذي يرجع إليه الفضل الأكبر في نشر الإسلام في طبرستان وبلاد الهند[2].

ثم قامت دولة البويهيين في سنة ٣٢٠ هـ واستمرت حتى سنة ٤٤٧ هـ، وأصل البويهيين من بلاد الديلم، وكانوا يدينون بالمذهب الشيعي، وقد سيطروا على جميع مناطق إيران تقريباً، ما عدا جيلان، وجزءاً من طبرستان التي بقيت خاضعة للدولة الزيارية كما ذكرنا سابقاً، وامتدت سيطرتهم إلى مدينة بغداد مركز الخلافة العباسية، وأخذوا يتحكمون في الخلفاء، فيعزلونهم وينصبونهم كما يشاءون ويريدون، ولم يعد للخليفة العباسي من الأمر شيء سوى ذكر اسمه في خطبة الجمعة مقترناً باسم السلطان من آل بويه. وكانت عاصمة البويهيين مدينة شيراز في جنوبي إيران.

وفي سنة ٤٣٢ هـ قامت دولة السلاجقة التي استمرت حتى

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ١٣٠ ـ ١٣٣.

(٢) مروج الذهب للمسعودي جـ ٢ ص ٢١٤.

سنة ٥٨٣ هـ، وقد حلت هـذه الدولـة مكان دولـة السامـانيين والغزنويين في خراسان وما وراء النهر، ومكان دولة البويهيين في إيران والعراق، كما امتدت أيضاً إلى الروم في آسيا الصغرى (الأناضول). وأصل السلاجقة من قبائل الأتراك (الغز) الذين هاجروا من بلاد تركستان واعتنقوا دين الإسلام، وكانوا يدينون بـالمـذهب السني، على عكس البـويهيين. وقـد اتسـع ملك السلاجقة حتى دخلوا بغداد في سنة ٤٤٧ هـ بقيـادة السلطان السلجوقي طغرل بك، وقضوا على دولة البويهيين نهائياً. وكانت عاصمة السلاجقة السياسية مدينة الري ثم أصفهان، وكان طغرل بك قد قضى قبل ذلك في سنة ٤٣٣ هـ على الدولة الزيارية التي كانت قائمة في طبرستان وجيلان[١].

في إحدى ذرا الجبال التي تقع في أذربيجان، إلى الغرب من إقليم جيلان كانت توجد قلعة منيعة تدعى قلعة (آلموت). وهي كلمة ديلمية معناها (عش النسر)، وكان ثمة رجل يدعى الحسن بن الصباح، من المرجح أنه فارسي من مدينـة طوس (مشهد الآن) وإن ادعى هو غير ذلك[٢]، كان يعتنق المذهب الإسماعيلي الباطني، وقد عمل في بـلاط السلطان السلجوقي ملكشاه، مع وزيـره نظام الملك، ثم رحـل في سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) من الري إلى أصفهان وأذربيجان ثم زار بلاد الشام

---

(١) سلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد المنعم محمد حسنين ص ٣٥.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي جـ ٨ ص ١١٨.

ودخل مصر في سنة ٤٧١ ، حيث درس المذهب الإسماعيلي في دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله في القاهرة. وعاد منها إلى إيران في سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م)، وأخذ يدعو إلى المذهب الإسماعيلي فاستجاب له كثيرون. واستطاع هو وجماعته أن يستولوا على قلعة آلموت من صاحبها العلوي، بالغدر والخديعة في سنة ٤٨٣ هـ، وأسس فيها دولة الحشاشين أو الفدّاوية، حيث كان يعوّد أتباعه على الحشيش بمقدار، كما نقل ذلك الرحالة الإيطالي ماركو بولو، وانتقلت هذه الكلمة (الحشاشون) إلى اللغات الأجنبية وأصبحت assassins ولكن أصبح معناها القتلة أو السفاحين، لأن حسن الصباح كان قد اعتمد مبدأ اغتيال خصومه غيلة وغدراً بطرق شتى تدل على المكر والخداع والذكاء حتى بث الرعب والخوف في قلوب معاصريه، وصار الأمهات يخوفن أولادهن بشيخ الجبل واستمر ذلك إلى وقت قريب عندنا في بلاد الشام، وقد استولى هؤلاء الحشاشون على أكثر من مائة قلعة تنتشر في جبال البرز التي تمتد من أذربيجان إلى جنوبي قزوين نحو إقليم كرمان، وكانت هذه القلاع تتحكم بطرق المواصلات والبريد والقوافل، فبثوا الرعب في قلوب الناس وفرضوا عليهم الإتاوات والضرائب، وسلبوا القوافل، واغتالوا كل من وقف في طريقهم، وقد حاول السلاجقة القضاء عليهم ولكنهم فشلوا بسبب منعة تلك القلاع، إذ كانوا يحاصرون القلعة فتمتنع عليهم بسبب وفرة الماء والغذاء فيها، ثم يدهمهم الشتاء بثلوجه وبرده القارس في تلك الأصقاع فيضطرون إلى فك الحصار عنها. وقد اغتالوا في العاشر من رمضان سنة ٤٨٥ (١٠٩٢ م) الوزير العظيم نظام

الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشـاه، وبعده بشهـر مات السلطان مسموماً، كما اغتالـوا الأمير (أنَـرْ) في سنة ٤٩٢ هـ والوزير فخر الملك في سنة ٥٠٠ هـ[1] وغيرهم كثيرين، وحاولوا اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام مرتين بعد أن استولوا على قلاع مصياف والرصافة والقدموس، ولكن الله سبحانه وتعالى نجاه منهم، وقد اتخذ حسن الصباح لنفسه لقب (داعي الدعاة) وأسقط عن أتباعه التكاليف، وكان من مناصري الفرقة النزارية من الإسماعيلية التي انشقت عن الدولة الفاطمية في مصر بعد وفاة المستنصر بالله حفيد الحاكم بأمر الله في سنة ٤٨٧ هـ وكان قد خلّف ولداً شاباً اسمه نزار كانت له ولاية العهد، وولداً طفلاً اسمه المستعلي ابن أخت الأفضل بن بدر الجمالي الأرمني، قائد الجيوش، فأسر الأفضل نزاراً وسجنه، وولّى مكانه ابن أخته المستعلي، وهكذا انقسمت الإسماعيلية إلى فرقتين: النـزارية والمستعلية. ومات حسن الصباح في سنة ٥١٨ وحل محله خلفاؤه من بعده وظلوا يقاومون الدولة السلجوقية وهجماتها إلى أن دالَتْ دولتهـا، ثم كانت نهـايتهم في إيـران على يـد هـولاكـو في سنـة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م) عندمـا اجتاح إيـران فخرب قـلاعهم وشردهم في البلاد، كما كانت نهايتهم في بلاد الشام على يد الظاهر بيبرس في سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٢ م)، فلجأت شراذمهم إلى الهند، وأخذ رؤساؤهم يتسمّون بآغاخان فكان في سنة ١٢٣٣ هـ

(١) سلاجقة إيران والعراق ص ٩٠.

آغاخان الأول ثم تبعه الثاني فالثالث. والآن هم تحت إمرة آغاخان الرابع، كريم.

في ذلك العصر الذي كان يمور موراً بالاضطرابات السياسية والعسكرية والعقائدية والمذهبية، وُلد الشيخ عبد القادر الجيلاني في سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م). أي أنه ولد في زمن السلطان السلجوقي ملكشاه ووزيره العظيم نظام الملك. وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أي في سنة ٤٨٣ هـ احتل الإسماعيليون بقيادة حسن الصباح قلعة آلموت، وبدأوا ينشرون مذهبهم الإسماعيلي، ويفرضون الضرائب والإتاوات على الناس، ويروعونهم باغتيال من يخالفهم أو يقف في طريقهم، ثم وسعوا سلطتهم إلى القلاع المجاورة، في جبال البرز التي تطل على إقليم جيلان.

وفي سنة ٤٨٥ توفي السلطان السلجوقي ملكشاه، وبوفاته اندلع النزاع بين ابنيه، بركيارق، الابن الأكبر من جهة، ومحمود الابن الأصغر وأمه تركان خاتون من جهة أخرى، ثم بين بركيارق وعمه تاج الدولة تتش والي دمشق، وانتهى النزاع بموت محمود وأمه ومصرع تتش في المعركة قرب الري، واستتباب الأمر لبركيارق في سنة ٤٨٨ هـ[١]، أي في السنة التي غادر فيها الشيخ عبد القادر وطنه جيلان متجهاً إلى بغداد. كل هذا بالإضافة إلى النزاعات المذهبية بين أتباع المذهب الشافعي وأتباع المذهب الحنبلي والتي كانت كثيراً ما تصل إلى القتل والسلب والنهب

(١) سلاجقة إيران والعراق ص ٨٨.

ونبش القبور، كان يحدث في الوقت الـذي أطل فيـه الشيخ عبد القادر على هذا العالم.

وقبل أن نبحث في حياة الشيخ عبد القادر وتطورها، من المفضـل أن نذكـر لمحة عن الحيـاة الاجتماعيـة في الأقطار الإسلامية في ذلك العصر.

لمحة اجتماعية:

وضع الإسلام الخطوط العريضة للحياة الاجتماعية في الأمـة الإسلامية، معيشة وسطاً، لا إفراط ولا تفريط، لا إسراف ولا تقتير، بل موازنة بين الدنيا والآخرة، مع رجحان كفة الآخرة دوماً. لأن فتنة الدنيا أكبر، والنفس إليها أميل، فكفة الآخـرة هي التي يجب أن تكون الراجحة دوماً. لذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كثيراً ما يحذر أصحابه من الدنيا وفتنتها، ومن الميل إليها فتهلكهم كما أهلكت من قبلهم فيقول: «إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها. . .»[1] رواه البخاري ومسلم.

إنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يعلم أن الدنيا ستبسط على المسلمين ويقسم على ذلك، لذلـك كان يقـول لأصحابـه: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[2] رواه مسلم، وكان يقـول لهم: «إن الدنيـا حلوة

---

(١) جامع الأصول جـ ٤ ص ٥٠١.
(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ٢٠٨٠.

خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء..»[1] رواه مسلم والنسائي. ويقول عليه وآله الصلاة والسلام: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[2] رواه البخاري.

وقد وعى الصحابة رضي الله عنهم هذا الدرس وحفظوه جيداً، وطبقوه في حياتهم وسلوكهم، وكذلك فعل التابعون ومن تبعهم بإحسان، لذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، قال عمران ـ أي ابن الحصين ـ فلا أدري أذكر بعد قرني: قرنين أو ثلاثة، ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِمَن» متفق عليه[3].

فكان أبو بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت والزبير بن العوام وطلحة رضي الله تعالى عنهم من كبار الأغنياء، ولكن الدنيا لم تجاوز أيديهم ولم تصل إلى قلوبهم أبداً، فهذا أبو بكر رضي الله تعالى عنه يتصدق بماله كله لجيش العسرة (غزوة تبوك)، وعمر رضي الله تعالى عنه يتصدق بنصف ماله، وعثمان بن عفان يتصدق بثلثمائة جمل بأقتابها، وفي رواية: تصدق بألف دينار نثرها أمام رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله

---

(١) جامع الأصول جـ ٤ ص ٥٠٤.
(٢) جامع الأصول جـ ١ ص ٣٩٢.
(٣) سنن النسائي رقم ٣٨٠٩.

وسلم، فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ما على عثمان ما فعل بعد هذا. وهذا عبد الرحمن بن عوف تأتيه مرة قافلة من الشام محملة بأنواع البضاعة فيتصدق بها جميعها في سبيل الله. وهذا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بعد أن أصبح خليفة للمسلمين وأصبح أقوى حاكم في الأرض في ذلك الوقت، يهابه كسرى وقيصر، يأتيه رسول كسرى فيراه نائماً في ظل شجرة، في ثوب مرقع بالٍ، فيدهش لما يرى، ويقول: لقد عدلت فأمنت فنمت.

ولما فتح سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه المدائن واستولى على كنوز كسرى، أرسلها إلى عمر بن الخطاب في المدينة المنورة، فوضعها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في المسجد وصار يقلبها بيديه ويقول: «إن قوماً أدّوا هذا لأمناء» فقال له سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: «لقد عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا».

وأبو حنيفة ومالك بن أنس والليث بن سعد وغيرهم كثيرون من التابعين وتابع التابعين كانوا من كبار الأغنياء ولكن الدنيا لم تجاوز أيديهم ولم تصل إلى قلوبهم أبداً، فقد حفظوا درس رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم جيداً وطبقوه قولاً وعملاً.

ثم خلف من بعدهم خلف أخذوا ينسون الدرس شيئاً فشيئاً وأخذت الآخرة تتفلت منهم شيئاً فشيئاً وأخذت الدنيا تزحف نحو قلوبهم شيئاً فشيئاً، فقد أقبلت الدنيا عليهم إقبالاً شديداً بخيلها

ورَجِلِها، بأموالها وقِيَانِها وزخارفها، فنسوا ما ذكروا به.

وأول ما ظهر الاختلال كان في التطاول في البنيان وتزيين المساجد وزخرفتها، ثم امتد إلى التفاخر في اللباس والرياش، ثم إلى جمع العديد من القينات ومجالس الغناء، ثم إلى مجالس اللهو والشراب، حتى في مكة المكرمة والمدينة المنورة كانت تقام مجالس اللهو والغناء والشراب.

وبدأ الخلل يتسرب إلى الموازنة بين الدنيا والآخرة منذ بدء الدولة الأموية، فقد فاض المال وكثر في أيدي الناس بعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت، ولكن الإيمان كان يقف للمال بالمرصاد ويوجهه إلى وجهاته المشروعة، وعندما بدأ الضعف يتسرب إلى الإيمان عند كثير من الناس، بدأت النفوس تجمح وتطغى ﴿كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى﴾[1] وبدأ يصيبها بطر الغنى، وبدأ الميزان يختل ويميل نحو الدنيا، ثم عاد إلى الاعتدال مع الميل قليلاً نحو الآخرة في زمن الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، حتى اكتفى الفقراء في زمنه، ولم يعد الأغنياء يجدون من يأخذ زكاة أموالهم، ثم عاد إلى الاختلال بشدة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وأخذ الأغنياء يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقراً، وصار المال يصرف في غير مصارفه الشرعية، وظهر الشح في الناس، وظهر التبذير والإسراف في غير ما شرع الله سبحانه وتعالى،

(١) سورة العلق، الآيتان ٦ و ٧.

ووُجِدَتْ في المجتمع المسلم صور من الغنى الفاحش والتبذير والإسراف وصور من الفقر المدقع والجوع والحرمان، الذي أخذ يظهر منذ بدء القرن الثاني للهجرة، ويشتد مع تقدم السنين والأيام كما في عهد يزيد بن عبدالملك الخليفة الأموي الذي أتى بعد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وفي عهد الخليفة العباسي الأمين المتوفى سنة ١٩٨ هـ، وفي عهد أخيه المأمون المتوفى سنة ٢١٨ هـ، وفي عهد الخليفة العباسي المعتضد الذي تزوج من قطر الندى بنت خمارويه والي مصر، والذي أنفق أباها على جهازها أموالاً طائلة لم يسمع بمثلها من قبل.

وهذه الأموال تصرف في سمعة ورياء، أو للشعراء والمادحين، أو للأنصار والمحاسيب، وكان عامّة الشعب يئن تحت وطأة الجوع والفقر والحرمان والغلاء.

لمحة عن الحياة الثقافية:

انبجس نبع الإسلام من مكة المكرمة صافياً رقراقاً، وعندما اشتد عوده انساب في السنة الأولى للهجرة إلى المدينة المنورة، وهناك اكتمل نضجه وأصبح قوياً متدفقاً، فانساب، منذ السنة الثامنة للهجرة، في الجزيرة العربية حتى عمّها، ثم أخذ ينتشر فيما حولها شرقاً وغرباً وشمالاً، فوصل في الشرق، إلى السند والهند، وفيما وراء النهر إلى حدود الصين، ووصل في الشمال إلى أذربيجان وأرمينية، حتى حاصر القسطنطينية، ووصل في الغرب إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ثم اتجه شمالاً عبر جبل طارق إلى إسبانيا وفرنسا حتى وصل إلى مدينة بواتيه، كما غطّى جزيرتي صقلية وكريت أيضاً.

وأثناء سيره في هذه البلاد الواسعة، أخذت تصب فيه روافد كثيرة ، لا تمت إلى نبعه الأصلي بصلة، روافد بعضها مستمد من الحضارة الفارسية، وبعضها من الفلسفة الهندية، وبعضها من الفلسفة الإغريقية اليونانية، وبخاصة بعد أن أخذ خلفاء المسلمين يهتمون بترجمة ما يستطيعون الوصول إليه، من كتب وثقافات الأمم الخالية، حتى إن الخليفة المأمون عندما انتصر على الأمبراطور البيزنطي ميشيل الثالث، لم يفرض عليه مالاً وإنما فرض عليه أن يعطيه ما عنده من مخطوطات بيزنطية قديمة.

ولم تكن هذه الروافد كلها صافية بل كان فيها كثير من الكدر، مما جعل نهر الإسلام العظيم يتكدر ماؤه كلما انساب في البلاد وكلما مرَّ عليه الزمان، ولكن الله سبحانه وتعالى هيأ له محطات تصفية، تصفيه من الكدر وتحاول العودة به إلى صفائه الأول، وهذا ما عناه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقوله الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود[1].

لقد كانت هذه الفلسفات التي طرأت على الإسلام، بعضها يمجد الروح على حساب البدن، وبعضها يمجد البدن على حساب الروح، وبعضها يمجد العقل ولا يعترف إلا به وبأحكامه، والإسلام بريء من ذلك كله لأنه يعطي كل ذي حق حقه.

أخذ بعض مفكري المسلمين، كواصل بن عطاء،

---

(١) جامع الأصول جـ ١١ ص ٣٢٠.

وعمرو بن عبيد، والنظّام، والعلاّف وغيرهم، بتأثير من الفلسفة اليونانية يمجدون العقل تمجيداً كبيراً، ويعتقدون أن الإنسان يخلق أفعال نفسه وأنه تام الاختيار، ولا يؤمنون بالقضاء والقدر، واعتزل واصل أستاذه الحسن البصري رحمه الله تعالى لأنه لم يوافقه على آرائه هذه فسمي هو وجماعته بالمعتزلة وأصبح مذهبهم المذهب الرسمي للدولة في عهد المأمون والمعتصم والواثق، ولكن هجومهم هذا تكسر على صخرة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، ثم قضى عليهم أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ). رحمه الله تعالى قضاءً مبرماً.

وفي مقابل المعتزلة ظهرت فرقة الجبرية على يد جهم بن صفوان لذلك سُموا بالجهمية أيضاً، وهم ينفون عن الإنسان أي اختيار، ويجعلونه كالريشة المعلقة في الهواء، تحرّكها الرياح كما تشاء.

كما ظهرت فرقة المرجئة، على يد يونس بن عون النميري، لذلك يسمون اليونسية أيضاً، ومن زعمائهم غسان الكوفي وعبيد المكتئب. ومن أقوالهم: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

هذا بالإضافة إلى فرقة الشيعة التي بدأ ظهورها في عهد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه، وما تفرع منها من القرامطة والإسماعيلية وجماعة أخوان الصفا التي ذكرها أبو حيان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، والتي كانت تزعم أنه متى امتزجت الفلسفة اليونانية بالشريعة الإسلامية

فقد حصل الكمال، وكان ظهور هذه الجماعة في منتصف القرن الرابع الهجري.

ظهور هذه الفرق المختلفة جعل علماء أهل السنة والجماعة يسارعون إلى التسلح بالفلسفة والعلم العقلي ليدافعوا عن مذهبهم تجاه هذه الفرق جميعها، وليقارعوا الحجة بحجة مثلها أو أقوى منها، وهكذا ظهر علم الكلام الذي كان من أبرز رافعي لوائه أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ) والذي كان قد نشأ معتزلياً على مذهب أستاذه الذي تربى في حجره أبي علي الجبائي، ثم ترك الاعتزال وعاد إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وهاجم المعتزلة وفند حججهم ودحض آراءهم، وقضى على مذهبهم.

وبعد فتح بلاد الشام والعراق وإيران وما وراء النهر والسند ومصر وشمال إفريقيا، أخذت تظهر أمور لم يجد علماء الأمة لها حلاً في كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، فسارعوا إلى استنباط الأحكام من نصوص القرآن والسنة وأقوال الصحابة وأفعالهم ثم لجؤوا إلى القياس والرأي وهكذا ظهرت وتمايزت المذاهب الفقهية كمذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وأبي ثور والأوزاعي والليث بن سعد وغيرهم، ثم اصطلحت الأمة على أربعة مذاهب منها، هي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي وأهملت المذاهب الأخرى. وأُطلق على هذه المذاهب، مذاهب أهل السنة والجماعة، وقد وقفت جميعها في مواجهة الفرق الضالة وعلى رأسها المعتزلة، حتى إذا دالت دولتها، انقلبت هذه المذاهب إلى التناحر فيما بينها

تارة، وفيما بينها وبين الشيعة تارةً أخرى. ففي سنة ٤٠٨ هـ حصل نزاع بين أهل السنة وأهل محلة الكرخ الشيعة، وكذلك في سنة ٤٣٣ وسنة ٤٤٤ وسنة ٤٤٥ هـ[١]. وفي سنة ٤٦١ هـ حصل نزاع في دمشق بين المغاربة (أصحاب الفاطميين) والمشارقة (أصحاب العباسيين) حتى رموا بيوت بعضهم بعضاً بالنار مما أدى إلى احتراق المسجد الأموي في دمشق[٢].

«وفي سنة ٣٢٣ هـ هجم الحنابلة على بيوت الأحناف فكسّروا ونهبوا وأحرقوا حتى اضطر الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩) إلى إصدار بيان ينذرهم فيه بالقتل، وفي سنة ٣٢٧ هـ حصل نزاع بين الحنابلة والأحناف أيضاً بسبب اختلافهم في تفسير الآية ٧٩ من سورة الإسراء وهي: ﴿ومن الليل فتهجدْ به نافلة لك عسىٰ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾.

وفي سنوات ٤٦٩ و ٤٧٠ و ٤٧٥ و ٤٧٨ و ٤٩٥ حصلت فتن كثيرة بين الحنابلة والأشاعرة في بغداد.

«وعندما توفي أبو الحسن الأشعري في سنة ٣٢٤ هـ اضطر أصحابه إلى إخفاء مكان قبره عن الحنابلة خوفاً أن ينبشوه لأنهم كانوا يعتقدون أنه يقف مع المعتزلة ضدهم. وفي سنة ٤٤٧ هـ تبادل الشافعية والحنابلة الهجمات والقتل والسلب والنهب بسبب اختلافهم على الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة،

---

(١) سلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد المنعم حسنين ص ١٧٥.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ٥٩.

فالشافعية كانوا يرون الجهر بها بينما الحنابلة كـانوا لا يـرون ذلك»[١].

وفي سنة ٥٤٦ هـ حدثت فتنة كبيرة في جامع المنصور ببغداد بين الحنابلة والشافعية أيضاً. كل هذا يدل على أنانية بعض علماء أهل السنة في ذلك الوقت وعلى جهل عامتهم.

* * *

في هـذا الجو الـذي كان يمـور بالاضـطرابات السيـاسية والعسكرية والاجتماعية والفكرية موراً والذي بلغت فيه الثقافة أوجها، ولد الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى ورضي عنه.

---

(١) الشيخ عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني، أستاذ جامعة استنبول سابقاً، النسخة الفرنسية ص ٢٦.



البَابُ الثَانِي

المَوْلِدُ وَالنَّشْأَةُ
وَمَرْحَلَةُ الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ



الفصل الأول

مَوْلِدُ ٱلشَّيْخِ عَبْدِ ٱلقَادِرِ وَنَشْأَتُهُ

اتفق المؤرخون القدماء والمحدثون على أن الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى قد توفي في سنة ٥٦١ هـ، ولكنهم اختلفوا في تاريخ ولادته، فذهب أكثرهم إلى أنه ولد في سنة ٤٧٠ هـ أو سنة ٤٧١ هـ، وقال بعضهم: إنه ولد في سنة ٤٩١ هـ. فالإمام الشيخ حسين بن محمد الديار بكرلي قال في كتابه «تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس»(١): «وفي سنة ٥٦١ هـ توفي شيخ الوقت أبو محمد عبد القادر بن صالح الجيلي، الواعظ، المفتي الحنبلي المذهب، الزاهد، أحد أعلام بغداد وله تسعون سنة». ومعنى ذلك أنه ولد في سنة ٤٧١ هـ.

وابن الجوزي يقول في كتابه «المنتظم»(٢): «توفي الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه ليلة السبت في ٨ ربيع الآخر سنة ٥٦١ هـ، وبلغ تسعين سنة». أي أنه ولد في سنة ٤٧١ هـ. وذكر الشيء نفسه ابن الأثير في كتابه «الكامل»(٣).

وقال الذهبي في كتابه «العبر في خبر من غبر»(٤): «الشيخ عبد القادر الجيلاني، الزاهد، شيخ العصر، وقدوة العارفين، ولد بجيلان سنة

---

(١) ٢/٣٦٦. (٢) ١٠/٢١٩. (٣) ٩/٩٤. (٤) ٤/١٧٥.

٤٧٠ هـ». وقال الذهبي أيضاً في كتابه «سير أعلام النبلاء»[1]: «قال ابن النجار (محب الدين بن النجار) في تاريخه: دخل الشيخ عبد القادر بغداد في سنة ٤٨٨ هـ، وعاش تسعين سنة (وفي مرآة الزمان ٩٢ سنة) وانتقل إلى الله في عاشر ربيع الآخر سنة ٥٦١ هـ».

وقال الشيخ الإمام جمال الدين الملقب بابن الصابوني في كتابه «تكملة إكمال الإكمال في الأَنساب والأَسماء والأَلقاب»: «قال محب الدين النجار في تاريخه: عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست من أهل جيلان قدم بغداد في سنة ٤٨٨ هـ وله ثماني عشرة سنة، مولده في سنة ٤٧١ هـ وتوفي ببغداد في ليلة السبت عاشر ربيع الأَول سنة ٥٦١ هـ».

أما محمد بن شاكر الكتبي صاحب كتاب «فوات الوفيات» فيقول: «عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست، قال الشيخ شمس الدين: ولد بجيلان سنة ٤٩١ هـ وتوفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ».

وفي كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب تحت رقم ١٣٤: «عبد القادر بن أبي صالح شيخ العصر وقدوة العارفين ولد سنة ٤٩٠ هـ أو سنة ٤٩١ هـ».

أما المُحْدَثون فأجمعوا على أنه ولد سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) وتوفي سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م)، وهو ما اختاره محقق كتاب الفتح الرباني للشيخ عبد القادر، ومحقق كتاب الغنية للشيخ عبد القادر أيضاً، وأبو الحسن علي الحسني الندوي يقول في كتابه «رجال

---

(١) ٢٠: ٤٤٣.

الفكر والدعوة في الإسلام»: «ولد الشيخ عبد القادر سنة ٤٧٠ في جيلان أو كيلان ودخل بغداد سنة ٤٨٨ هـ وتوفي رحمه الله سنة ٥٦١ هـ».

والأستاذ فخري نورس الكيلاني يقول في كتابه: «الموجز في تاريخ القطب الغوث والباز الأشهب الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني»: «ولد شيخنا السيد عبد القادر في إحدى مدن جيلان «نيف» في سنة ٤٧٠ هـ أي ١٠٧٧ م».

والدكتور ماجد عرسان الكيلاني يقول في كتابه «هكذا ظهر جيل صلاح الدين»: «ولد الشيخ عبدالقادر سنة ٤٧٠ هـ (سنة ١٠٧٧ م) في جيلان وسافر في سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) إلى بغداد وعمره ثماني عشرة سنة، وبقي فيها حتى وفاته في سنة ٥٦١».

والشيخ يونس الشيخ إبراهيم السامرائي يقول في كتابه «الشيخ عبد القادر الكيلاني قدّس الله سره»: «ولد الشيخ عبد القادر الكيلاني سنة ٤٧٠ هـ (سنة ١٠٧٧ م) وتوفي ببغداد ليلة السبت ثامن شهر ربيع الآخر سنة ٥٦١ هـ (سنة ١١٦٥ م)».

أما موسوعة (اللاروس) الفرنسية فتقول: إنه ولد سنة ١٠٧٧ م وتوفي سنة ١١٦٦ م.

ويقول الأستاذ محمد العيني، أستاذ جامعة استنبول سابقاً، في كتابه «الشيخ عبد القادر الكيلاني» النسخة الفرنسية صفحة ٣٢ ما ترجمته: «جاء في كتاب «نتيجة التحقيق» أن الشيخ عبد القادر ولد في مدينة صغيرة من مدن جيلان اسمها نيف Niff في

سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) وبعضهم قال في سنة ٤٧١ هـ، وكان الشيخ عبد القادر يقول لمريديه إنه دخل بغداد وله من العمر ثماني عشرة سنة، في السنة التي توفي فيها أبو الفضل عبد الواحد التميمي، وهذا توفي سنة ٤٨٨ هـ كما جاء في تاريخ ابن كثير، في عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله.

على كل حال، لعل أصح الأقوال في مولد الشيخ عبد القادر ووفاته هو ما ذكره ابن الجوزي في كتابه «المنتظم» الذي قال إنه توفي في سنة ٥٦١ هـ وبلغ تسعين سنة: وذلك لأن ابن الجوزي كان من معاصري الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى.

نسبه:

هناك اختلاف يسير بين المترجمين حول نسب الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، فبعضهم ينهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، وبعضهم الآخر، وهم الأقل، ينهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وعلى كل حال فإن نسبه ينتهي إلى سيدنا علي بن أبي طالب وسيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنهما وكرّم الله وجهيهما.

كما أن هناك اختلافاً يسيراً بين المترجمين في تسلسل آباء الشيخ عبد القادر رضي الله عنه.

فزين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ثم الدمشقي المشهور بابن رجب (٧٣٦ ـ ٧٩٥ هـ) يقول في الذيل على طبقات الحنابلة: هو عبد القادر بن أبي صالح بن

عبد الله بن جنكي دوست[1] بن أبي عبد الله بن عبد الله وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما. بينما محب الدين النجار يقول في تاريخه: هو عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست.. وينتهي إلى الحسن رضي الله عنه.

ويقول الأستاذ مصطفى جواد في حاشيته على كتاب «تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب»: «وقال الصفدي في «الوافي بالوفيات»: هو عبد القادر بن عبدالله أبي صالح بن جنكي دوست وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما. وقال كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي في «تلخيص معجم الألقاب»: محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست، له نسب في بني الحسن بن علي رضي الله عنهما».

وفي كتاب «التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول» لصديق حسن خان القنوجي: «عبدالقادر بن أبي صالح موسى بن جنكي دوست ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما»[2].

وفي كتاب «فوات الوفيات» لمحمد بن شاكر الكتبي (توفي

---

(١) جنكي دوست: كلمة فارسية معناها محب الحرب أي المجاهد (كتاب القطب الغوث للأستاذ فخري الكيلاني)، أو تعني العظيم القدر (معجم الشيوخ ١/٥٢).

(٢) ص ١٦٦.

سنة ٧٦٤ هـ): «عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما.

وفي كتاب «الأعلام» للأستاذ خير الدين الزركلي: «عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني»[١]

وفي كتاب «عبد القادر الكيلاني»[٢] للأستاذ محمد العيني: «هو أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح جنكي دوست موسى بن أبي عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه. وأمه فاطمة أم الخير بنت عبدالله الصومعي. ويذكر الشيخ عبد القادر في كتابه فتوح الغيب أن نسب أمه ينتهي إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما».

وقد أثبت العلامة علي القاري في كتابه «نزهة الخاطر» نسب الشيخ عبد القادر إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما. ويذكر الشيخ يونس الشيخ إبراهيم السامرائي في كتابه «الشيخ عبد القادر الكيلاني» نسب الشيخ من جهة أمه فيقول: «أمه هي أم الخير أمة الجبار فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الزاهد ابن الإمام أبي جمال الدين السيد محمد ابن الإمام السيد محمود ابن الإمام أبي العطاء عبد الله ابن الإمام كمال الدين عيسى ابن الإمام السيد أبي

(١) ٤ : ٤٧.
(٢) ص ٣٢ من النسخة الفرنسية.

علاء الدين محمد الجواد بن علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

وكان الشيخ عبد القادر لا يحب أن يذكر نسبه أو أن يتباهى به وكان ينهى أولاده عن ذلك أيضاً، تواضعاً منه رحمه الله تعالى، وتحقيقاً لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» رواه مسلم[1]. وفي ذلك يقول حفيده قاضي القضاة عماد الدين نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر:

نحن من أولاد خير الحسنين
من به أصلح بين الفئتين
يشبه المختار في أعلاه إذ
كان أدناه شبيهاً بالحسين
سر كتمان أبينا أصله
أنه قال بأن الفقر زين[2]

وهو في ذلك يثبت أيضاً أن نسبهم يتصل بالحسن وليس بالحسين رضي الله عنهم أجمعين.

ويرى الشيخ يونس السامرائي أن للشيخ عبد القادر رحمه الله

---

(١) كتاب جامع الأصول جـ ٦ ص ٥٦٢.
(٢) كتاب تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني صفحة ٣٥٩.

تعالى صلة نسب بكل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما فيقول: إن جدة الشيخ عبد القادر من جهة أبيه (أي والدة أبيه) واسمها أم سلمة هي من ذرية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. ووالدة عبد الله المحض أحد أجداد الشيخ عبد القادر واسمها حفصة هي بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

طفولته:

ولد الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في مدينة صغيرة اسمها نيف Niff[1] في إقليم جيلان الذي يقع في القسم الشمالي من إيران، جنوبي بحر قزوين، وهو إقليم خصب التربة، كثير الأنهار، غزير الأمطار.

ويبدو أنَّ الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كان آخر أولاد أبويه، لأنه عاش يتيماً، فقد توفي أبوه بعد ولادته بقليل لذلك عاش في كنف جده لأمه السيد عبد الله الصومعي، فكان ينسب إليه عندما كان في جيلان فيقال ابن الصومعي. وكان آخر أولاد أمه لأنها حملت به قبيل سن يأسها بقليل، حتى قال بعض أصحاب التراجم إنها حملت به وهي في الستين من عمرها، ونسبوا ذلك إلى أنها قرشية ـ أي أصلها من قريش ـ وهذا الحمل المتأخر من خواص نساء قريش[2]؛ وليس على ذلك من دليل، ولم يكن الناس في ذلك الوقت يهتمون كثيراً بتسجيل أعمار العامة من

(١) يقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان» إنه ولد في مدينة بشتير.

(٢) قلائد الجواهر ص ٣.

الرجال بَلْهَ النساء. وقد رأينا كيف اختلفوا في تاريخ ولادة الشيخ عبد القادر نفسه بين سنة ٤٧٠ هـ وسنة ٤٩٠ هـ، وعلى كل حال فإن ذلك يدل على أنه كان آخر أولاد أمه. ويبدو أنه كان له أخ واحد، لأنه عندما سافر إلى بغداد قسمت أمه ما معها من مال بينه وبين أخيه، ويقول ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»: إنَّ أخاه كان اسمه عبدالله وكان أصغر منه، وكان رجلاً صالحاً، عاش في جيلان وتوفي فيها وهو شاب[1]. ولكن كيف حملت أمه مرة أخرى بأخيه إذا كانت قد حملت به وهي في الستين من عمرها؟! لذلك أرجح أن أخاه كان أكبر سناً منه، والله تعالى أعلم.

كانت أمه صالحة تقية سليلة أئمة أطهار أبرار، وكان جده عبد الله الصومعي زاهداً عابداً حتى لقبوه بالصومعي. وكان أبوه صالحاً، فنالته بركة صلاح أبيه، وتربى في كنف أمه التقية وجده الزاهد العابد، فرباه على التقوى والصلاح ومكارم الأخلاق، فنشأ عابداً صالحاً تقياً، زاهداً في الدنيا، مقبلاً على الأخرى، طموحاً إلى معرفة أصول الشريعة وفروعها، ومداخلها ومخارجها.

ولم يكن في بلاد جيلان ما يرضي طموحه ويروي ظمأه من علوم الشريعة لذلك أخذت تحدثه نفسه بالسفر إلى بغداد حاضرة الدنيا في ذلك الزمان. وكان أهل جيلان يدينون بالمذهب الحنبلي[2] في ذلك العهد، بعد النصر العظيم الذي نالته السنّة

---

(١) ٤ : ١٩٩.

(٢) كتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني للأستاذ محمد العيني، النسخة الفرنسية صفحة ٣٦.

المطهرة على يد حاميها ورافع لوائها أحمد بن حنبل رحمه الله، مما جعل ذكره يسير في البلاد ويتغلغل في قلوب العباد. وكانت بغداد مثوى أحمد بن حنبل أيضاً حبيب أهل جيلان، وهذا مما زاد في حنين الشيخ إلى بغداد.

وقد ذكر بعض المؤلفين بعض الأحوال التي عرضت للشيخ في طفولته وشبابه، وعدُّوها من الكرامات[1]، وهي لا تزيده رفعة ومجداً وفقدانها لا يقدح فيه شيئاً، فالكرامة الكبرى هي ما كان فيها فائدة للأمة وتمكين للعقيدة، وهي كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم»[2].

أما أن تكون ولادته في شهر رمضان ثم لا يأخذ ثدي أمه في النهار فهي لا تجدي شيئاً. ولكننا نأخذ منها أن ولادته، رحمه الله تعالى، كانت في شهر رمضان من سنة ٤٧٠ هـ.

وأما أن يكلمه الثور في الحقل ويقول له: أنت لم تخلق لتكون فلّاحاً، فإنها لا تجدي شيئاً أيضاً[3]، ولكننا نأخذ منها أنه كانت لهم قطعة أرض في جيلان، وكان يعمل فيها بالزراعة، وكان

---

(١) جمع كرامة: وهي أمر خارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة، على يد رجل مؤمن.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢١٠.

(٣) قلائد الجواهر ص ٣.

عندهم دواب من البقر أو غيرها، وكان يتعهدها ويأخذها إلى الحقل يرعاها ويحرث الأرض بها. وكانت نفسه تحدثه بأن هذا العمل غير جدير به، ولا يرضي طموحه ونفسه التواقة إلى دراسة الشريعة والتبحر فيها. وأخيراً أفضى بمكنون قلبه إلى أمه فارتاعت وحزنت وبكت ما شاء الله أن تبكي، لأنها شعرت بأنه إذا ذهب إلى بغداد، وهي في مثل هذه السن المتقدمة فلن تراه بعد ذلك أبداً.
وأخيراً انصاعت لإرادة ابنها، ضحت بآمالها في سبيل آماله، وداست على أحلامها في سبيل أحلامه؛ وهذا شأن الأم دائماً وأبداً، تضحية وفداء في سبيل الأبناء. ولكنهم كانوا رقيقي الحال، وما يأتيهم من الزراعة يجعلهم يعيشون عيش الكفاف، وبغداد كانت حاضرة الدنيا في ذلك الزمان، وهذا يعني الغلاء وارتفاع الأسعار، والشيخ الصغير معتاد في بلده جيلان على الغذاء الوفير الرخيص فمن أين له مثله في بغداد. وهي كما يقول الشاعر:

بغداد دارٌ مشرقة
تضيق فيها النفقة
قارون لو حلَّ بها
جازت عليه الصدقة

ولكن الغذاء والطعام واللباس وكل حطام الدنيا لا يهم الشيخ الصغير في شيء، بل كل ما يهمه هو أن يجلس إلى شيوخ بغداد وفقهائها ويغرف من علومها وفقهها ويرضي طموحه الذي يؤرقه ويحقق أحلامه وآماله التي تدغدغه.

الفَصل الثاني

رحْلَتُهُ إلى بَغْدَادَ وَٱلامْتِحَانُ ٱلأوّلُ لَهُ

وأخذت الأم تجهز ابنها الشاب للسفر وهي تكفكف دمعاً لا يجف وتدافع لوعة لا تنقضي، فهي تعلم علم اليقين أنه فراق الأبد، وهم لا يزالون أحياء، ولكن هذه إرادة ابنها فليكن ما يريد، ومن فوقها إرادة الله سبحانه وتعالى ولا راد لمشيئته، ولعل في ذلك حكمة ستظهر بعد حين.

وكان مع أم الشيخ ثمانون ديناراً خلفها أبوه، هي كل ما تملك من حطام الدنيا فأرادت أن تعطيها جميعها للشيخ الشاب ليستعين بها في سفره وغربته في بغداد، ولكنه أبىٰ أن يأخذ إلا نصفها أي أربعين ديناراً وترك النصف الآخر لأخيه، فوضعتها أمه في كيس صغير وثبّتت الكيس في فتحة كمه من ناحية إبطه ليكون بعيداً عن أعين اللصوص والنشالين. وانتظروا موعد خروج القافلة التي تتجه من جيلان إلى بغداد فانضم إليها الشيخ الشاب وهو لا يحمل معه شيئاً من المتاع إلا نفساً طموحة تواقة، وإيماناً صادقاً متغلغلاً في أعماق قلبه، وأخلاقاً كريمة نشأ وتربى عليها وأربعين ديناراً تحت إبطه. وأوصته أمه حينما ودعته: يا بني إياك أن تكذب فإن المؤمن لا يكذب، يا بني كن صادقاً أبداً، يا بني كن صادقاً أبداً، كما ربيتك، فهذا هو أملي فيك.

وسارت القافلة تغذ السير نحو مدينة همدان في وسط إيران حتى وصلتها، فاستراحوا فيها بضعة أيام ثم أخذوا أهبتهم للتوجه إلى بغداد، وذلك في سنة ٤٨٨ هـ.

كانت القافلة قد وصلت همدان بسلام واستراحت فيها بضعة أيام ثم غادرتها إلى بغداد، وهنا كان أول امتحان للشيخ، ولعقيدة الشيخ ولإيمان الشيخ ولأخلاق الشيخ وصدقه. ولقد نجح في الامتحان أيما نجاح وإليكم التفصيل:

بعد أن غادرت القافلة همدان متجهةً إلى بغداد، وبعد أن قطعت قسماً من الطريق فوجئت بجماعة من قطّاع الطرق واللصوص على خيولهم السريعة يحيطون بها من جميع الجهات ويدعونها للاستسلام[١]. فأسقط في يد أصحاب القافلة وأناخوا رحالهم صاغرين، وبدأ اللصوص يفتشون أفراد القافلة فرداً فرداً ورحالها رحلاً رحلاً ويأخذون منها ما خف وزنه وغلا ثمنه، وجلس الشيخ ينتظر دوره في التفتيش، ومرّ عليه أحد اللصوص وهو يسأل كل فرد يمر به عما معه، وكانوا كلهم ينكرون أنهم يملكون شيئاً فيفتشهم ويستخرج أموالهم ويستولي عليها، إلى أن وصل إلى الشيخ الشاب فرآه فتى غريراً لم تكتمل لحيته بعد، يرتدي ثياباً بسيطة لا تدل على ثروة ولا جاه، وليس عليه هيئة التجار، فأراد أن يَمُرَّ به مرَّ الكرام ويتجاوزه إلى غيره، ولكنه ألقى عليه السؤال

(١) كان ذلك في أرض (ربيك)، قرب همدان، وكان عدد اللصوص ستين فارساً (قلائد الجواهر ص ٩).

الذي كان يلقيه على الآخرين، وهو يسير إلى غيره، قال: هل معك شيء، وتابع خطاه يريد أن يسير لأنه كان متيقناً من أن الجواب سيكون بالنفي، ولكن الجواب الذي أتاه جعله يتسمَّر في مكانه ويفتح فمه وآذانه دهشة، فقد أجابه الشيخ: نعم معي أربعون ديناراً، ولم يصدق اللص أذنيه، فأعاد السؤال فأتاه الجواب نفسه: نعم معي أربعون ديناراً، وظن اللص أن الفتى يستهزىء به أو يمزح معه وبعد أخذ ورد تأكد اللص من أن الفتى يقصد ما يقول، فتعجب من ذلك أشد العجب، وقال له: تعال معي إلى رئيس جماعتنا. وهناك أعاد الرئيس عليه السؤال نفسه فأتاه الجواب نفسه: إنَّ معي أربعين ديناراً، فقال له: أين هي؟ فأخرجها له من تحت إبطه، فتعجب الرجل، وعدها فوجدها أربعين ديناراً، فقال للفتى الشيخ: ما الذي دفعك إلى الاعتراف بها وهي مخبأة في هذا المكان الأمين، ونحن ما كنا نظن أنك تملك شيئاً؟ قال: لأن أمي أوصتني عندما سافرت أن أصدق دائماً وأن لا أكذب أبداً لأنَّ المؤمن لا يكذب، وقد سألني هذا الرجل: هل معك شيء فلم أكذب عليه. فتأثَّر رئيس الجماعة تأثراً كبيراً بما سمع واغرورقت عيناه بالدموع، وهو الذي لم يعرف البكاء في حياته، والظاهر أنه كان لديه بقية من إيمان، فالتفت إلى الفتى الشيخ وقال له: أنت توصيك أمك فتحفظ وصيتها ولو كان في ذلك ذهاب كل ما تملك ونحن مضى علينا كذا وكذا سنة نقطع الطريق وننهب الأموال ونروع الآمنين، ونسمي أنفسنا مسلمين، اشهدْ يا بني أنني قد تبت من الآن عن كل ذلك، ودعا أصحابه وقصَّ عليهم قصة الغلام فتأثروا بها

جميعاً ووافقوا رئيسهم على التوبة مما يأتون من أعمال تخالف شريعة الله تعالى. وردوا جميع المتاع والمال الذي نهبوه من القافلة إليها، وسارت القافلة بعد ذلك آمنةً مطمئنة بحمايتهم إلى أن وصلت بغداد، وكان ذلك ببركة الفتى الشيخ الصغير عبد القادر الجيلاني. أليست هذه أعظم كرامة له، وأليست أنفع وأجدى من أن لا يأخذ ثدي أمه في نهار رمضان ومن أن يكلمه الثور؟ فهو بذلك قد فتح قلوباً غلفاً وأحيا نفوساً ميتة، ورفع البلاء عن أمة الإسلام ومكّن للإيمان في قلوب بعض أبنائها، والنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم»[1].

لقد كان هذا أول امتحان للفتى الشيخ، كان امتحاناً لقوة إيمانه وتقواه، كان امتحاناً لقوة شخصيته وضميره، وكان امتحاناً لتغلبه على هواه، وقد نجح في الامتحان نجاحاً كبيراً. وبانت ملامح مستقبل الفتى الشيخ، وبان أنه سيكون له شأن وأي شأن، فقد بدأ الغيث قطراً، وسينهمر بعد ذلك، وسيسلم على يديه مئات الكفار والمشركين وسيتوب على يديه ألوف العصاة والخاطئين. وهذه أكبر كرامة يمكن أن ينالها ولي، فهي سنة الأنبياء والمرسلين.

ووصلت القافلة إلى بغداد، ودخل الشيخ عبد القادر بغداد في سنة ٤٨٨ هـ، في السنة التي توفي فيها أبو الفضل عبد الواحد التميمي[2]، وهي السنة نفسها التي ترك فيها أبو حامد الغزالي

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي ٤٢١٠.

(٢) كتاب القطب الغوث للأستاذ فخري الكيلاني صفحة ٥.

التدريس في المدرسة النظامية في بغداد وآثر العزلـة والاختفاء وسافر منها إلى الشام والحجاز. وخلفه في المدرسة النظامية أخوه أحمد الغزالي، ثم أبو عبد الله الطبري بأمر من السلطان بركيارق ووزيره فخر الملك بن نظام الملك[1].

---

(١) كتاب عبد القادر الكيلاني للأستاذ محمد العيني ـ النسخة الفرنسية ص ٣٦.

الفصل الثالث

الشيخ عبد القادر في بغداد

عندما وصل الشيخ عبد القادر إلى بغداد في سنة ٤٨٨ هـ، وكان عمره ثماني عشرة سنة، كانت في أوج عظمتها وقوتها واتساعها وغناها، كما كانت في أوج تقدمها العلمي والثقافي، وذلك في زمن الخليفة المستظهر (حكم من سنة ٤٨٧ إلى سنة ٥١٢ هـ) والسلطان السلجوقي بركيارق بن ملكشاه، وقد عاصر الشيخ عبد القادر في بغداد خمسة خلفاء هم المستظهر والمسترشد (حكم من سنة ٥١٢ إلى سنة ٥٢٩ هـ) والراشد (من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣٠ هـ)، والمقتفي (من سنة ٥٣٠ إلى سنة ٥٥٥ هـ) والمستنجد (من سنة ٥٥٥ إلى سنة ٥٦٦ هـ).

أمضى الشيخ عبد القادر في بغداد ثلاثاً وسبعين سنة، من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٦١ هـ، عاصر فيها كثيراً من الفتن والاضطرابات العسكرية والسياسية والثقافية والفقهية، فلم يكن للخلفاء العباسيين من الحكم إلا اسمه، أما الحكم الفعلي فهو بيد السلاطين السلاجقة، وكان الخلاف والانقسام قد وقع بينهم بعد وفاة ملكشاه في سنة ٤٨٥ هـ، فاشتعلت الحروب بين بيركيارق ومحمود ولدي ملكشاه ثم بين بيركيارق وعمه تتش ثم بين سنجر ابن ملكشاه وابن أخيه محمود بن محمد بن ملكشاه ثم بين محمود

وأخيه مسعود، ثم وقعت الحرب بين مسعود سلطان الموصل والخليفة العباسي المسترشد بالله فدارت الدائرة على الخليفة المسترشد وكان شجاعاً خطيباً فصيحاً محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رؤي خطيباً ، ولكن جيوشه انكسرت أمام جيوش مسعود في رمضان سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م)، فأسره مسعود ووضعه في خيمةٍ، في معسكره، فضجت العامة في بغداد لأَسر الخليفة حتى أمر سنجر ابن أخيه مسعود أن يطلق سراحه، ولكن أحد الإسماعيلية استغل وجود الخليفة في الخيمة بدون حراسة فدخل عليه وقتله، ثم تجددت الحرب بين مسعود والراشد بالله ثم بينه وبين المقتفي لأمر الله، وهكذا فتن واضطرابات لا تنتهي.

هذا عدا ما كان يقع بين مذاهب أهل السنة من فتن وقتل وسلب ونهب لأَتفه الأَسباب، فكانت تقع الفتن بين الحنابلة والحنفية من أجل الاختلاف على تفسير آية من القرآن الكريم أو من أجل شرب النبيذ، وتقع الفتن بين الحنابلة والشافعية من أجل الجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية، واشتدت هذه الفتن بعدما ألف أحد علماء الحنابلة أبو يعلى (توفي سنة ٤٥٨ هـ)، كتاب الصفات، حيث أُلصقت بالحنابلة تهمة التجسيم، أي أنهم يجعلون لله سبحانه وتعالى أعضاء وحركات كأعضاء وحركات الإنسان، ونتيجة ذلك ضعف المذهب الحنبلي وأخذ الناس ينفضون عنه وكاد ينقرض، لولا أن تجدَّد بعد ذلك على يد الشيخ عبد القادر رحمه الله.

ويمكن أن نقسم حياة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في بغداد إلى فترتين: الأولى من دخوله بغداد في سنة ٤٨٨ هـ إلى

تـوليه التـدريس في مدرستـه في سنة ٥٢١ أي فتـرة الـدرس والتحصيل. والثانية من توليه التدريس في مدرسته سنة ٥٢١ إلى حين وفاته في سنة ٥٦١ هـ وهي فترة التدريس والتعليم والوعظ والإرشاد.

الفترة الأولى: فترة الدرس والتحصيل:

(سأل رجل الإمامَ الشافعي فقال: يا أبا عبد الله، أيما أفضل للرجل، أن يُمكَّن له، أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يُمكّن للرجل حتى يُبتلى، فإن الله سبحانه ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكّنهم).

قال علي بن الجهم:

وارحمتـا للغـريب بـالبلد النا
زح مـاذا بـنـفـسـه صـنـعـا
فـارق أحبـابـه فمـا انتفعـوا
بـالعـيش من بعـده ولا انتفعـا

وهكذا فقد ابتُلي الشيخ عبد القادر في أول حياته في بغداد، وامتُحن امتحاناً قاسياً، وتعرض للفتن وللفقر والجوع والحرمان حتى كان يقتات أحياناً من حواشي الأنهار ويمشي على الشوك حافياً، وينام في البراري والخرب، حتى قالوا عنه مجنون، وكانت تحدثه نفسه أحياناً أن يترك بغداد إلى غير رجعة، ثم لا يلبث أن يعود عن عزمه، ويقول: لا بد من إكمال الطريق وبلوغ الهدف الذي جئت من أجله.

عندما دخل الشيخ عبد القادر رحمه الله بغداد، كانت أكبر بلد

في العالم كله، يسكنها نحو مليونين من البشر، وكانت بغداد كلها، في تلك السنة، سنة ٤٨٨ هـ تتكلم عن اختفاء أبي حامد الغزالي من المدرسة النظامية، ومن بغداد كلها، فقد كان الغزالي هو الأستاذ الرئيس في المدرسة النظامية ببغداد، كلفه بالتدريس فيها نظام الملك قبل اغتياله في سنة ٤٨٥ هـ، ولكنه قبيل اختفائه في سنة ٤٨٨ هـ دخل في أزمة نفسية عنيفة سبّبها له تفكيره في أمور الحياة وحقائق الكون. فقد أعياه الوصول إلى الحقيقة. فهل يصل إليها عن طريق الحواس، وهي قد تخطىء في كشف حقائق الكون أحياناً فتضل ويضل معها صاحبها؟ هل يصل إليها عن طريق العقل الذي يبين خطأ الحواس من صوابها؟ ولكنه قد يخطىء أحياناً أيضاً فيضل ويضل معه صاحبه، فما هو الطريق إذن؟ هل هو طريق المتكلمين، أم طريق الباطنية وإمامهم المعصوم، أم طريق الفلاسفة، وقد فندها جميعها وردها، أم طريق التصوف وقد قال عنه: «فظهر لي أن أخصَّ خواصهم ـ أي الصوفية ـ ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال» «فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك، ويكون ذلك بقطع علاقة القلب عن الدنيا وبالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وإن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق» «وعلمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، فجميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور

مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»[1]. ودخل من جراء ذلك في دوامة من التفكير أخذت عليه ليله ونهاره فامتنع عن الطعام والشراب إلا ما يقيم الأود، وامتنع عن الكلام فلم يعد يستطيع التدريس، فهرب من المدرسة ومن أهله وذويه ويمم شطر الشام، وانزوى في الجامع الأموي بدمشق حيث لا يعرفه أحد. وهداه تفكيره أخيراً إلى أن «أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون». ومن دمشق ذهب إلى الحجاز ثم عاد إلى بغداد في سنة ٤٩٨ هـ بعد أن غاب عنها عشر سنوات، ولكنه أبى أن يعود إلى التدريس في المدرسة النظامية مرة أخرى، فانسحب إلى نيسابور ثم إلى طوس[2] حيث وافته المنية في سنة ٥٠٥ هـ.

وسنرى أن الشيخ عبد القادر مرّ بهذه الأزمة النفسية أيضاً ولكن الغزالي مرَّ بها وهو في أوج نشاطه الفكري، وكان مدرساً في المدرسة النظامية، أكبر مدارس بغداد في ذلك الوقت، بينما الشيخ عبد القادر مرَّ بها وهو في مرحلة الدراسة والتحصيل، والغزالي فرَّ إلى الشام والحجاز، أما الشيخ عبد القادر ففر إلى البراري والخرب.

وقد استمرت فترة الدراسة والتحصيل عند الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٢١ هـ أي ثلاثاً وثلاثين

(١) المنقذ من الضلال ص ١٢٣، ١٢٦، ١٣١.

(٢) هي مدينة مشهد الآن في إيران.

سنة، لا نعرف فيها عنه الكثير، وذلك لأنه أمضى قسماً كبيراً منها بعيداً عن الناس وعن الدراسة والتحصيل في خرب المدائن، وإيوان كسرى وغيرها حتى كان يدعى بعبد القادر المجنون.

دخل الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بغداد، ذلك الخضم الهائل من البشر، وهو في سن الثامنة عشرة، فتى غريراً، لم يعتد على هذا النوع من الحياة، ولا يعرف أحداً في بغداد، ولا يملك من حطام الدنيا سوى أربعين ديناراً، وماذا تفعل أربعون ديناراً في بغداد. ولكنه كان يملك عقيدة متمكنة من قلبه وروحه، وأخلاقاً مستقيمة، وهدفاً وضعه لنفسه حينما غادر جيلان، وهو أن يصبح عالماً عاملاً مخلصاً، ويملك عزماً ثابتاً على أن يبلغ هذا الهدف. ولولا ذلك كله لضاع في هذا الخضم الذي رمى نفسه فيه، كما نرى اليوم من ضياع كثير من الذين يذهبون إلى ديار الغرب للدراسة والتحصيل.

وفي هذه الفترة التي وُجد فيها الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في بغداد كان كثير من علماء المسلمين قد ظهروا وكثير من مؤلفاتهم قد انتشرت، فبالإضافة إلى الغزالي وكتبه، كان قد ظهر الراغب الأصفهاني (توفي سنة ٥٠٢ هـ ١١٠٨ م) وكتابه المفردات، وأبو القاسم عبدالكريم القشيري، ونجم الدين أبو حفص النسفي صاحب التيسير، والواحدي (توفي سنة ٤٦٨ هـ) صاحب البسيط والوسيط والوجيز، والزمخشري (توفي سنة ٥٣٧ هـ) صاحب الكشاف، وكان قد نُشر كثير من كتب الحديث وتصانيفه، وصحيحه ومسنده. وكذلك كتب الفقه على اختلاف مذاهبه.

وظهر أيضاً الماوردي (توفي سنة ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م) صاحب الأحكام السلطانية، وأبو الحسن الأشعري والباقلاّني (توفي سنة ٤٠٣ هـ، والشهرستاني من علماء علم الكلام، وظهر من الفلاسفة، الشيخ الرئيس ابن سينا (توفي سنة ٤٢٨ هـ) ومن الأدباء: الحريري (توفي سنة ٥١٦ هـ) صاحب المقامات، والطغرائي (توفي سنة ٥١٥ هـ) صاحب لامية العجم. كل هذه المؤلفات وغيرها كانت مبذولة في بغداد وتتداولها أيدي الناس[١].

ومنذ أن وصل الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى إلى بغداد بدأ يسأل عن مدارس الفقهاء والمحدثين وعن حلقاتهم في المساجد وأخذ يرتادها وينهل منها.

شيوخه وأساتذته:

سمع الحديث من أبي غالب محمد بن الحسن الباقلاني، وأبي بكر أحمد بن المظفر، وأبي القاسم علي بن بيان الرزاز، وأبي محمد جعفر بن أحمد السراج[٢]، وأبي سعد محمد بن خُشيش، وأبي طالب بن يوسف. وتفقه على أبي الوفا علي بن عقيل[٣]، وأبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني الحنبلي، والقاضي أبي سعد المبارك بن علي المخرّمي (توفي سنة ٥٢٨ هـ)[٤] وأبي الحسن

---

(١) عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني، النسخة الفرنسية ص ٣٩.

(٢) هو مؤلف مصارع العشاق توفي سنة ٥٠٩ هـ.

(٣) توفي سنة ٥١٣ وكان شيخ الحنابلة في بغداد.

(٤) عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني، النسخة الفرنسية ص ٤٦.

محمد بن القاضي أبي يعلى الفرّاء الحنبلي، وقرأ الأدب وعلم البيان والبلاغة على أبي زكريا يحيى التبريزي (توفي سنة ٥٠٢ هـ) وأخذ علم التصوف عن أبي محمد جعفر بن أحمد السراج (توفي سنة ٥٠٩ هـ) وعن الشيخ حماد بن مسلم الدباس (توفي سنة ٥٢٥ هـ) وعن القاضي أبي سعد (أو أبي سعيد) المخرّمي الذي أخذ الطريقة عنه وتفقه على يديه وخلفه على مدرسته[١].
وقرأ القرآن وعلومه وقراءاته وتفسيره على أبي الوفا علي بن عقيل الحنبلي وأبي الخطاب محفوظ الكلوذاني. ومن شيوخه أيضاً أبو الغنائم محمد بن محمد بن علي الفرسي وعبد الرحمن بن أحمد بن يوسف وأبو البركات هبة الله المبارك وغيرهم... واستمر هذا الدرس والتحصيل حتى برع في الأصول والفروع وأنواع الخلاف وعلوم القرآن والبلاغة والأدب، وانصب أكثر اهتمامه على دراسة المذهب الحنبلي ثم درس معه المذهب الشافعي أيضاً.
ودام هذا الدرس والتحصيل ثلاثاً وثلاثين سنة ولكنه لم يكن متصلاً، بل متقطعاً على حسب الظروف والأحوال.

---

(١) المنتظم لابن الجوزي، والعبر في خبر من عبر، وسير أعلام النبلاء للذهبي، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب، وفوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي.

حياته في بغداد

دخل الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بغداد ومعه أربعون ديناراً، وماذا تفعل أربعون ديناراً في بغداد؟ فسرعان ما نفدت فاضطر الشيخ أن يعمل ليعيش، فكان يأكل من عمل يده[1]. وماذا عساه أن يعمل بيده وهو لا يحسن سوى الفلاحة والزراعة، وهي ليس لها سوق في بغداد، لذلك فليس أمامه سوى حمل الأثقال وخدمة الناس ليكسب قوت يومه، وكانت والدته ترسل إليه بين الحين والآخر مبلغاً من المال، على حسب ما يتيسر لها، فيصل إليه بعض هذا المال ويضيع بعضه الآخر لأنه ليس له مكان ثابت ولا عنوان معروف، وذاق الجوع والحرمان، حتى كان يقتات أحياناً بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس الذي ينبت بجانب النهر، وما كان يمد يده إلى أحد أو يسأل أحداً.

قال في أحد مجالسه: «كنت أقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر، وبلغت الضائقة في غلاءٍ نزل ببغداد إلى أن بقيت أياماً لم آكل فيها طعاماً فذهبت أتتبع المنبوذات لآكلها فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الريحانيين ـ وفي رواية

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٧٣.

الرياحين ـ فدخلت وقد كدت أصافح الموت، فإذا بشاب أعجمي يدخل ومعه خبز وشواء، وجلس يأكل فرآني، فقال: بسم الله يا أخي، فأبيت، فأقسم عليّ، فأكلت متقاصراً، فقال: من أين أنت؟ وما شغلك؟ قلت: أنا متفقه من جيلان، فقال: وأنا من جيلان، فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمىٰ عبد القادر الزاهد؟ فقلت: أنا هو. فاضطرب وتغيَّر وجهه، وقال: والله، لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقةٍ لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد ونفذت نفقتي، ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا مما كان لك معي، وقد حلت لي الميتة، فأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً فإنما هو لك، وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي. فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير. فطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب، فقبله وانصرف»[1].

وهكذا كان لا ينسى الإحسان وهو في أشد الحاجة والحرمان. وكان يقول أيضاً: «كان لباسي جبة صوف وعلى رأسي خرقة وكنت أمشي حافياً على الشوك فأقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس من شاطىء النهر، وكنت أتظاهر بالخرس والجنون»[2].

كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يرى الناس ينصتون

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٤٤ والذيل على الطبقات لابن رجب تحت رقم ١٣٤ وكلاهما عن تاريخ ابن النجار.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ١٢٦.

إلى خطبة الخطيب في يوم الجمعة وإلى وعظ الوعاظ في المساجد والمجالس، ثم يخرجون إلى الشوارع والبيوت وكأنهم لم يسمعوا شيئاً، وكان يرى أصحاب السلطان يقتصرون على جباية الأموال وأخذ البيعة لأنفسهم ولأولادهم، ويرى العلماء يشتغلون بالفتوىٰ والتأليف ويدعون الناس سادرين في شهواتهم ومخالفاتهم، وهكذا أصبح العامة أحراراً في تصرفاتهم بغير علم، جامحين في شهواتهم، هملاً وقطعاناً لا يضبطهم راع، وضعفت في كثير منهم الرغبة في الطاعات وتقاصرت الهمم وخمدت النفوس. وتبين له الفرق الكبير بين الحياة المستقيمة التقية في جيلان، وبين الحياة الصاخبة بالمخالفات في بغداد، بل بين ما كان يسمعه عن بغداد من أنها مدينة الزهاد وبين ما يراه فيها اليوم من موبقات ومنكرات، إن الناس يصلّون، ولكن صلاتهم لا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وإنهم يصومون ولكن صيامهم لا يزكي أنفسهم ولا يجعلهم يشعرون بألم الفقراء والمعدمين، وإنهم ينفقون، ولكنهم لا ينفقون أموالهم فيما شرع الله تعالى، وإنهم يسمعون المواعظ ولكنهم لا يتأثرون بها، وإن العلماء يتكلمون ويعظون ولكنهم لا يؤثّرون، إن ثمة حلقة مفقودة، جعلت الناس هكذا يسدرون، وإلى شهواتهم يوفضون، فما هي؟ وكان يمشي في شوارع بغداد فيرى المنكرات في كل مكان، يرىٰ الكذب والخداع والغش، يرى عدم الرحمة بالفقير وبالغريب، يرى مجالس الخمر والشراب في كل مكان، يسمع غناء القينات وضرب الأوتار من خلال الأبواب، ويسمع ترديد الشباب لقصائد صريع الغواني وأبي نواس، كما رأى في السنة التي دخل فيها

بغداد، سنة ٤٨٨ هـ في شهر ربيع الآخر منها، عبـدالملك وزير الخليفة المستظهر يفتتح قرب بغداد مكاناً للهو والرقص والغناء، مما حمل الشيخ ابن عقيل، شيخ الحنابلة آنذاك، على أن يتصدى له وينتقده أشد انتقاد[1].

كان يرى كل ذلك وهو شاب في مقتبل العمر، ممتلىء صحة وقوة. ولم يستطع أن يتزوج حتى الآن، ويرى أمامه المنكرات، فضاق ببغداد، وأحسّ فيها بالاختناق. وأصيب بخيبة أمل قوية فأراد أن يترك بغداد وينجو بنفسه وبدينه منها، ولكن كيف ذلك ولما يتحقق هدفه بعد، لقد جاء ليصبح عالماً عاملاً مخلصاً، ولا يزال في أول الطريق، فكيف العمل؟ لذلك وقع في حيرة شديدة وفي أزمة نفسية عنيفة، وفي صراع بين البقاء والهرب، وأخيراً رأى أفضل حل هو الهرب المؤقت ليعيد بناء روحه وشخصيته من جديد بصورة تتلاءم مع هذا الواقع الجديد وتستطيع أن تؤثر فيه وترده إلى سواء السبيل. حاول في أول الأمر أن يهرب من بغداد إلى غير رجعة، ولكنه كان قبل أن يجتاز باب الحلبة[2] يشعر بقوة خفية ترده إليها، كان في صراع نفسي شديد، كان يرى نفسه كالقرآن في بيت زنديق، أو كصالح في ثمود، فيريد أن يهرب، وفي الوقت نفسه. يريد أن يهدي هذا الزنديق ويرده إلى سواء السبيل، وأن يصلح هؤلاء القوم لعلهم يهتدون. وفي إحدى المرات ذهل

(١) عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني، النسخة الفرنسية ص ٤٢.
(٢) باب في سور بغداد.

عن نفسه وخرج من بغداد وسار على غير هدى، سار مسافة خمسة عشر يوماً عن بغداد حتى وجد نفسه في بلاد (تستر)، ثم عاد مرة أخرى إلى بغداد[1]، وكأنَّ هاتفاً كان يدفعه إليها وهو يقول: سيكون فيك منفعة لها. وكانت تضيق نفسه أحياناً حتى يغمى عليه.

قال ابن النجار في تاريخه: «كتب إلي عبد الله بن أبي الحسن الجبّائي قال: قال لي الشيخ عبد القادر: لحقني مرة الجنون وحملت إلى المارستان فطرقتني الأحوال حتى حسبوا أني مت، وجاءوا بالكفن وجعلوني على المغتسل، ثم سُرّي عني فنهضت»[2].

وكانت تضيق نفسه أحياناً حتى يصرخ صراخاً شديداً، «قال: كنت أشتغل بالعلم فيطرقني الحال فأخرج إلى الصحارى فأصرخ وأهجّ على وجهي، فصرخت ليلة فسمعني العيّارون ففزعوا وجاؤوا فعرفوني فقالوا: عبد القادر المجنون! أفزعتنا»[3]. «وقال: إنه لترد عليَّ الأثقال الكثيرة لو وضعت على الجبال تفسخت، فإذا كثرت عليَّ الأثقال وضعت جنبي على الأرض وتلوت: ﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾. ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني تلك الأثقال»[4].

---

(١) عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني، النسخة الفرنسية ص ٤٥.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٤٤، والطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ١٢٦.

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب تحت رقم ١٣٤.

(٤) كتاب الطبقات للشعراني جـ ١ ص ١٢٦.

وأخيراً آثر الابتعاد عن بغداد والانحياز إلى البراري والخرب القريبة منها مؤقتاً، ريثما يعيد بناء شخصيته ونفسه لتكون أكثر تلاؤماً مع الواقع الجديد والمجتمع الجديد وأكثر تأثيراً فيهما، وقد استمرت هذه الفترة سنوات عديدة، يصل بها بعضهم إلى خمس وعشرين سنة[1]، وبعضهم الآخر أربع عشرة سنة (الأستاذ محمد العيني أستاذ جامعة استنبول سابقاً). فقد عاش في برج مهجور قريب من بغداد سنوات عديدة حتى سمي ذلك البرج ببرج الغريب أو برج العجمي. وعاش في خرائب المدائن وإيوان كسرى عدة سنوات أخرى (١ ـ ٣ سنوات).

وعندما أحسَّ من شخصيته الاعتدال، ومن نفسه القوة على الكفاح وتحمل الصعاب ومواجهة المنكرات، عاد إلى بغداد، وإلى حلقات الدرس من جديد، ولكنه قرر منذ الآن أن يضيف إلى علوم الفقه والحديث والأدب وعلوم القرآن، علم تربية الروح وتزكيتها وتقويتها، علم التصوّف. وكان ثمة في بغداد عالم انتهت إليه تربية المريدين وانتمى إليه معظم مشايخ بغداد في ذلك الوقت هو الشيخ حماد بن مسلم الدباس (توفي سنة ٥٢٥ هـ) ومن أقواله: «القلوب ثلاثة، قلب يطوف في الدنيا وقلب يطوف في الآخرة وقلب يطوف بالمولى». ومن أقواله أيضاً: «أقصر طريق إلى الله تعالى هو حب الله تعالى» ـ الطبقات للشعراني.

عندما التحق الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بشيخه الجديد

---

(١) المصدر السابق.

حَمَّاد الدباس، توسَّم فيه شيخه الجديد الخير والفلاح، لذلك أراد أن يختبر صبره وصدقه وقوة احتماله، فصار يعامله بقسوة وشدة ليظهر معدنه الحقيقي، هل ينكص على عقبيه أم يبقى ثابتاً صلباً، انظروا إليه يقول: «خرجت مرة إلى باب الحلبة فقال لي قائل: إلى أين تمشي؟ ودفعني دفعة خررت منها وقال: ارجع فإن للناس فيك منفعة. قلت: أريد سلامة ديني، قال: لك ذاك؛ وعرفت أنه حماد الدباس، وقد كشف لي بعد ذلك جميع ما كان يشكل عليّ. وكنت إذا غبت عنه لطلب العلم وجئت، يقول: إيش جاء بك إلينا، أنت فقيه، مُرَّ إلى الفقهاء. وأنا أسكت. وفي يوم جمعة من شهر كانون الثاني، خرجت مع الشيخ حماد الدباس وجماعته لنذهب إلى مسجد الرصافة، وعندما وصلنا إلى جسر اليهود على نهر دجلة، وكنت أسير خلف الشيخ، توقف فجأة ودفعني فألقاني في الماء، في شدة البرد، فقلت لنفسي: غسل الجمعة، بسم الله الرحمن الرحيم؛ وكان عليّ جبة صوف، وفي كمي أجزاء ـ أي أوراق مكتوبة ـ فرفعت كمي لكي لا تهلك الأجزاء، وتركوني ومشوا؛ فعصرت الجبة وتبعتهم، وقد تأذيت بالبرد كثيراً[1]. وكان الشيخ يؤذيني، وإذا جئت يقول: جاءنا اليوم خبز كثير وفالوذج فأكلنا وما خبأنا لك شيئاً، فطمع فيّ أصحابه، وقالوا: أنت فقيه، إيش تعمل هنا فلما رآهم يؤذونني، قال لهم: لم تؤذونه؟ والله ما

---

(١) حدث ذلك في شهر كانون الثاني الموافق منتصف شعبان سنة ٤٩٩ هـ (قلائد الجواهر ص ٢٧).

فيكم مثله، إنما أوذيه أنا لأمتحنه فأراه جبلاً لا يتحرك»[1].

نستنتج من هذه القصة عدة أمور: الأمر الأول: أن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى قد درس الفقه أولاً ثم تحول إلى التصوف. والأمر الثاني: أنه قد تقدم في دراسة الفقه تقدماً ملموساً، فالشيخ حماد وتلاميذه يعرفون أنه متفقه. وعندما سقط في الماء اغتنم ذلك ونوى الغسل ليكسب ثواب غسل الجمعة، لأن الغسل لا يصح بدون نية، ولا يفعل ذلك إلا فقيه. والأمر الثالث: أن الشيخ حماد كان يمتحنه وقد نجح في الامتحان نجاحاً كبيراً. والأمر الرابع: أن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كان يتصف بالحلم ولولا ذلك لغضب من شيخه غضباً شديداً، والخامس: أنه كان رابط الجأش ثابت الجنان. والسادس: أنه يريد أن يبلغ الهدف الذي رسمه لنفسه مهما واجه في سبيله من صعاب.

ثم يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «قدم رجل من همذان يقال له يوسف الهمذاني (انتهت إليه تربية المريدين بخراسان توفي سنة ٥٣٥ هـ ودفن بمرو ـ الطبقات الكبرى للشعراني) وكان يقال إنه القطب، ونزل في رباط فمشيت إليه فلم أره، فقيل لي: هو في السِّرْداب، فنزلت إليه، فلما رآني قام وأجلسني، ثم ذكر لي جميع أحوالي، وحلّ لي المشكل علي، ثم قال لي: تكلمْ على الناس، فقلت: يا سيدي أنا أعجمي، فكيف

---

(١) كتاب سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ٢٠ : ٤٣٩ وما بعدها. وكتاب الأستاذ محمد العيني ص ٤٨ بتصرف.

أتكلم على فصحاء بغداد؟! فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصوله والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن، ولا يصلح لك أن تتكلم! اصعد على الكرسي وتكلمْ، فإني أرى فيك عِذْقاً[1] سيصير نخلة»[2].

نستنتج من هذه القصة أن الشيخ عبد القادر قد اشتد عوده وأن دراسته قد بدأت تؤتي أُكلها وأن تصدره للتدريس قد بات وشيكاً. كما تدلنا أيضاً على أن اللغة العربية كانت قد بدأت تنحسر أمام اللغات الدخيلة في إيران، في مطلع القرن السادس الهجري، حيث كان الحكم للسلجوقيين الأتراك. نستدل على ذلك من قول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى عندما طلب منه الهمذاني أن يتصدر للكلام فأجابه: كيف أتكلم على فصحاء بغداد وأنا أعجمي من جيلان، ومعنى ذلك أن اللغة العربية لم تكن سائدة في ذلك الوقت في جيلان.

وفي السنوات الأخيرة من الدراسة انقطع الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى إلى شيخه في الفقه القاضي أبي سعد ـ وفي رواية أبي سعيد ـ المبارك بن علي المخرِّمي (نسبة إلى المخرم وهي محلة في بغداد كان فيها قصور بني بويه، وبعضهم يقول المخزومي وهو خطأ، وقد توفي في سنة ٥٢٨ هـ)[3] ولازمه حتى وفاته وأخذ الطريقة منه. وكان المخرمي قد بنى مدرسة بباب

(١) العِذْق: عنقود البلح.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٣٩ وما بعدها.

(٣) كتاب الأستاذ محمد العيني ص ٤٦.

الأزج في بغداد، وكان يدرس فيها الفقه على المذهب الحنبلي، وعندما تقدمت به السن صار يكلف الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بإلقاء الدرس عنه ابتداء من سنة ٥٢١ هـ[1] حتى وفاته في سنة ٥٢٨*. وبذلك انتهت مرحلة الدراسة والتحصيل في حياة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وبدأت مرحلة التعليم والإرشاد والإصلاح منذ سنة ٥٢١ هـ، ونضجت وقويت بعد سنة ٥٢٨ هـ وهي الفترة الثانية من حياته في بغداد.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب رقم ١٣٤ وفوات الوفيات للكتبي ٢ :٣٧٣.

(*) ملاحظة: ذكر الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ٢٥٠) أن أبا سعيد المبارك بن علي المخرمي، أستاذ الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، وصاحب مدرسة باب الأزج التي آلت فيما بعد إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، قد توفي سنة ٥١١ هـ وعزا ذلك إلى كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، وبعد الرجوع إلى الكتاب المذكور: جـ ١٢ ص ١٨٥ طبعة دار الفكر، تبيَّن أنه توفي سنة ٥١٣ هـ وليس سنة ٥١١ هـ. بينما يقول الأستاذ محمد علي العيني في كتابه (الشيخ عبد القادر الكيلاني ص ٤٦) إنه توفي سنة ٥٢٨ هـ، ولكنني أرجح أن تكون وفاته في سنة ٥٢١ هـ أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل؛ لأنه لو كان قد توفي سنة ٥١١ هـ أو سنة ٥١٣ هـ فمن الذي قام على مدرسته في باب الأزج حتى سنة ٥٢١ هـ التي تولى فيها الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى التدريس فيها؟ وإن كان قد توفي سنة ٥٢٨ هـ التي انتهى فيها بناء المدرسة من جديد بعد هدمها وتوسيعها، وفوضت عند ذلك إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وسميت باسمه، فكيف تم ذلك كله في حال حياة المخرمي صاحبها الأصلي رحمه الله تعالى؟.

والظاهر أن أحوال الشيخ النفسية والمادية قد استقرت قبيل هذه الفترة بسنوات. والدليل على ذلك أنه تزوج. ولا نعرف تاريخ زواجه في أي سنة كان، ولكننا نعرف أن أكبر أولاده هو عبد الله الذي ولد في سنة ٥٠٨ هـ[1]، وهذا يعني أنه تزوج قبل ذلك بسنة أو سنتين. ثم تكرر زواجه حتى أصبح عنده أربع زوجات، وذلك بعد أن هدأت نفسه واستقرت أحواله.

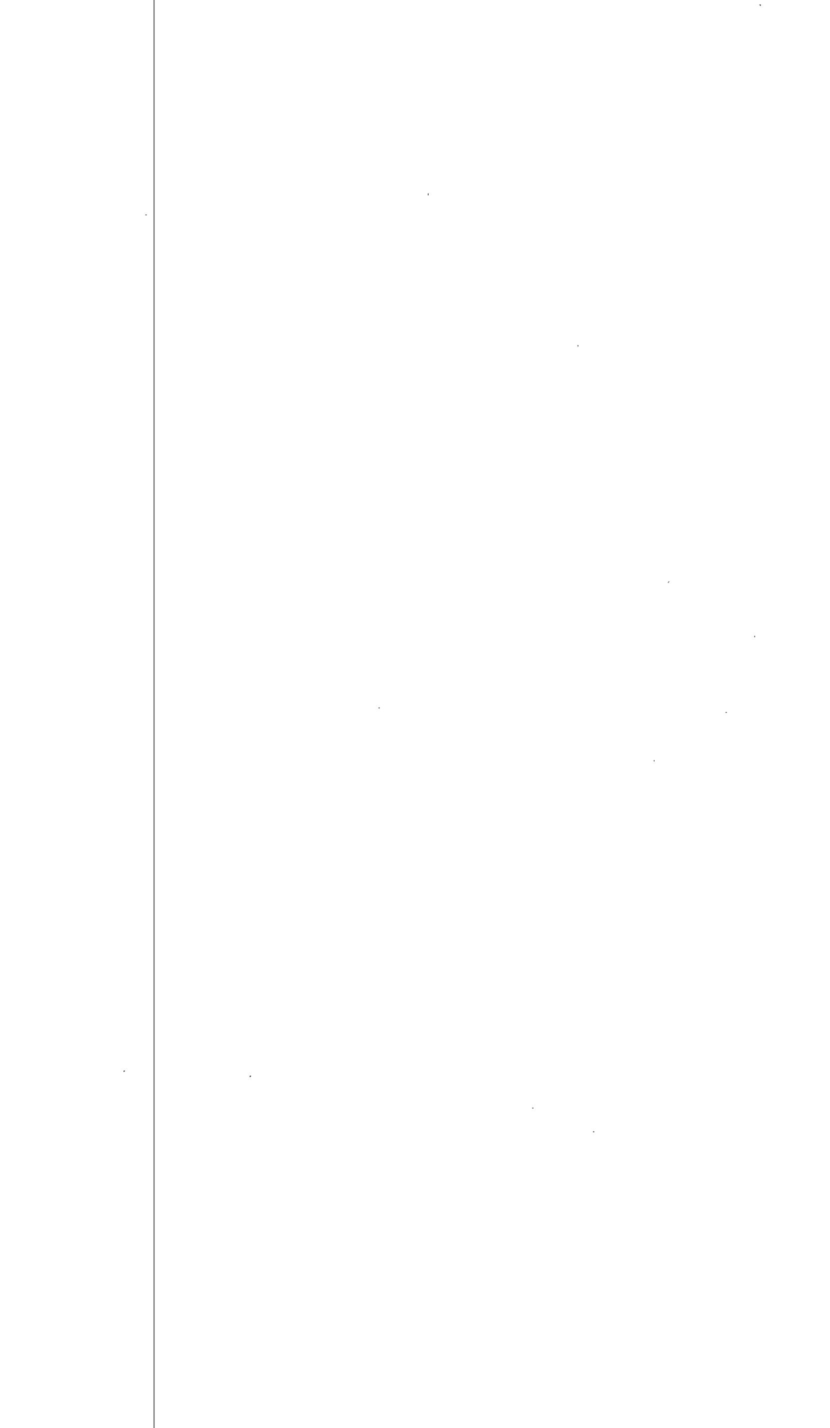
يقول الشيخ السهروردي في كتابه (عوارف المعارف)، في الباب الحادي والعشرين: قال بعض الصالحين للشيخ عبد القادر: لم تزوجت؟ قال: ما تزوجت حتى قال لي رسول الله ﷺ - أي في المنام - تزوجْ، وقال: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله، ساق الله سبحانه وتعالى إليّ أربع زوجات.

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٤.

البَابُ الثَالِثُ

مَرْحَلَةُ ٱلتَّدْرِيْسِ وَٱلتَّهَيُّؤُ لِلإِرْشَادِ وَالإِصْلَاحِ



تَمْهيد

لكي يكون التعليم والإرشاد والإصلاح ناجحاً، لا بد له من ركائز يرتكز عليها، وقد نجح الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في مرحلة التعليم والإرشاد والإصلاح نجاحاً كبيراً، فما هي الركائز التي أهّلته لهذا النجاح؟.

إنها الصفات والشمائل التي فُطر عليها منذ أن نشأ في جيلان، وأتى بها إلى بغداد، ثم طريق التزكية الذي سلكه في بغداد بعد أن درس الفقه وبرع فيه.

لذلك علينا أن نمحص هذه الركائز ونتعرف إليها، قبل المضي مع الشيخ في مرحلته الجديدة، مرحلة التمكين والإرشاد والإصلاح وتربية المريدين:

١ ـ ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

آية ٦٣، سورة المنافقون.

٢ ـ «ازهد في الدنيا يحبّك الله وازهد فيما عند الناس يحبّك الناس».

حديث حسن رواه ابن ماجه.

٣ ـ لو زهد العلماء في الدنيا لخضعت لهم رقاب الجبابرة.

من كلام الفضيل بن عياض.

هذه هي ملامح المرحلة الجديدة من حياة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في بغداد، اعتزاز بالله تعالى وبرسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فهو، قبل ذلك، في أيام محنته وفقره لم يسأل أحداً شيئاً أو يطلب من أحد شيئاً، وهو قد زهد في الدنيا بل طلقها ثلاثاً، وزهد فيما عند الناس فأقبل عليه الناس، وأتته الدنيا وهي راغمة، وخضع له الخلفاء والوزراء والكبراء.

يقول ابن رجب: «ظهر ـ أي الشيخ عبد القادر ـ للناس وجلس للوعظ بعد العشرين وخمسمائة، وحصل له القبول التام من الناس، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته وهابه الملوك فمن دونهم»[1].

وهكذا بدأ كلامه ووعظه وإرشاده قطراً ثم انهمر، والظاهر أنه بعدما نصحه يوسف الهمذاني أن يجلس للناس ويتكلم، قد تصدر للكلام وجلس للدرس. وكان هذا العمل شاقاً عليه في البدء ثم يسره الله تعالى له، فهو يقول: «كان يغلب عليّ الكلام ويزدحم على قلبي إن لم أتكلم به حتى أكاد أختنق ولا أقدر أن أسكت، وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة ثم تسامع الناس بي وازدحم عليّ الخلق حتى صار يحضر مجلسي نحو من سبعين ألفاً»[2].

ويقول ابن الجوزي: «درّس بمدرسة شيخه المخرّمي فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد، وضاقت المدرسة

---

(١) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة تحت رقم ١٣٤.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٣٩ وما بعدها.

بالناس، وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير»[1].

وكان شيخه القاضي أبو سعد (وفي رواية أبو سعيد) المبارك بن علي بن الحسين المخرمي، قد بنى لنفسه مدرسة بباب الأزج في بغداد، وكان يدرس فيها الفقه على المذهب الحنبلي، وقد انقطع إليه الشيخ عبد القادر في سنوات دراسته الأخيرة، ثم صار يساعده في التدريس، وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يأخذ علم التصوف عن شيخه حماد بن مسلم الدباس (توفي سنة ٥٢٥) وعن شيخه في الفقه أبي سعد المخرمي أيضاً الذي أعطاه الطريقة.

وكانت سلسلة طريقته كما ذكرها ابن الملقّن في كتابه (طبقات الأولياء) كما يلي: أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي عن أبي سعيد المبارك بن علي المخرّمي عن الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن يوسف بن عبدالله القرشي عن أبي الفرج عبدالرحمن بن عبد الله الطرسوسي، عن أبي الفضل عبدالواحد بن عبد العزيز التميمي، عن والده الشيخ عز الدين عن الشبلي عن الجنيد، عن سري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داود الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. أو عن الجنيد عن جعفر الحذاء عن أبي عمر الإصطخري عن أبي تراب النخشبي

---

(١) كتاب التاج المكلل تحت رقم ١٥٩.

عن شقيق البلخي عن إبراهيم بن أدهم عن موسى بن يزيد الراعي عن أويس القرني عن عمر وعلي رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم[(١)].

أما الأستاذ محمد العيني فيذكر سلسلة أخرى لهذه الطريقة هي كما يلي: الشيخ عبد القادر عن أبي سعد المبارك المخرمي عن أبي حسن علي بن محمد بن يوسف الخاكياري عن أبي الفرج يوسف الطرسوسي عن أبي الفضل عبد الواحد التميمي عن الشبلي عن أبي القاسم الجنيد عن سري السقطي عن معروف الكرخي عن الإمام علي الرضا عن الإمام موسى الكاظم عن الإمام جعفر الصادق عن الإمام محمد الباقر، عن الإمام زين العابدين عن الإمام الحسين رضي الله عنه عن الإمام علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم[(٢)].

وعندما توفي شيخه أبو سعد المخرمي، لم يجد تلاميذه أفضل من الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يفوضون مدرسته إليه. فجلس فيها للتدريس والفتوى والوعظ والإرشاد. ولكنها ضاقت بالناس فخرج إلى المصلى، خارج سور بغداد ليلقي دروسه هناك[(٣)]. ثم اشترى أهل الخير مدرسة المخرمي من ورثته

---

(١) طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٤٩٤.

(٢) كتاب عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني، النسخة الفرنسية ص ٥١.

(٣) كتاب التاج المكلل تحت رقم ١٥٩ وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٣٩ والمنتظم لابن الجوزي.

ووسعوها وبنوها من جديد على شكل مدرسة للعلم ورباط للمريدين والتلاميذ، وتم ذلك كله بأموال الأغنياء وعمل الفقراء. وصارت تدعى بمدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني، وهي لا تزال موجودة حتى الآن في بغداد وتدعى المدرسة القادرية.

لم يكن من السهل أن ينقلب الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، من رجل فقير، يحب العزلة عن الناس، يهيم في البراري والخرب حتى لقبوه بعبد القادر المجنون، إلى رجل علم وفقه وسلوك، يعلّم الناس ويعظهم، فيتلقونه بالقبول، ويزدحمون عليه حتى يضيق بهم المكان، ويبنون له مدرسة ورباطاً لا يزالان يحملان اسمه حتى الآن. إن هذا ليدل على نوع نادر من الرجال وعلى نوع فذ من السجايا والأخلاق.

لذلك لا بد لنا قبل أن نمضي في سيرة الشيخ عبد القادر رحمه الله وطريقته في التدريس والوعظ والإرشاد والإصلاح، من أن نذكر شيئاً عن صفات الشيخ رحمه الله وعن أخلاقه وسجاياه كما أوردها بعض المؤلفين لنستدل منها على شخصيته، وعلى سبب نجاحه في مهمته التي نذر نفسه لها منذ أن خرج من مسقط رأسه في جيلان، فكان له ما أراد. ولله سبحانه وتعالى رجال إذا أرادوا أراد؛ و «رب أشعث أغبرَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره». رواه مسلم[١].

إن رجلاً يافعاً يأتي من جيلان وحيداً فقيراً جاهلاً فيتشرد في

---

(١) جامع الأصول جـ ٤ ص ٦٧٧.

براري بغداد وخربها سنوات عديدة. ثم ينتهي به الأَمر إلى أن يهابه الملوك والكبراء، ثم يبقى يُذكر اسمه بكل تقدير واحترام على ألسن ملايين البشر من الناس حتى الآن؛ لا بد، إلا أن يكون ذا صفات وأخلاق متميزة. فلنلق نظرة على هذه الصفات والأَخلاق التي فُطر عليها، ثم لنتعرف بعدها إلى علم التزكية. وهما الركيزتان اللتان استطاع بهما أن يصبح إماماً لأَولياء عصره، وعلماً من أعلام الإِصلاح في القرن السادس الهجري.

الفَصل الأول
صِفَاتُ ٱلشَّيْخِ عَبْدِ ٱلقَادِرِ وَأَخْلَاقُهُ

صفاته الخِلْقيّة:

يقول الأستاذ محمد العيني في كتابه عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى:

«إنه يميل إلى الطول، تبدو عليه أمارات النبل والاستقامة، عريض الجبهة، يميل لونه إلى السمرة، يصل شعره إلى كتفيه، عريض المنكبين، متناسق الأعضاء، عذب الصوت جهوريه، ذو نطق متميز، نظراته حادة ثاقبة تجعل من الصعب على جليسه أن يديم النظر إليه، لحيته متوسطة الكثافة ولكنها طويلة، رمادية اللون (بعدما تقدمت به السن)، دقيقة النهاية، هيئته العامة توحي بالبساطة المحببة كما توحي بالطيبة والنبل والجمال أيضاً»[1].

أما الشيخ يونس إبراهيم السامرائي فيقول عن صفاته نقلاً عن موفق الدين بن قدامة المقدسي: «كان شيخنا عبد القادر نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر واللحية، طويلها، أسمر، مقرون الحاجبين، ذا صوت جهوري، وسمت وقدر وعلم»[2].

ولا بد أن الشيخ رحمه الله تعالى، كان قوي البنية، متين

(١) كتاب عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني ص ٦٢.

(٢) كتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني للشيخ يونس السامرائي ص ١٠.

الصحة، فقد ذكرنا كيف أنه سقط في نهر دجلة في الشتاء البارد وكان عليه جبة من الصوف، فعصرها ثم لبسها وسار بها ولم يصبه مرض شديد من جراء ذلك.

ويقول ابن النجار في تاريخه: «سمعت أبا محمد الأخفش يقول: كنت أدخل على الشيخ عبد القادر في وسط الشتاء وقوة برده، وعليه قميص واحد وعلى رأسه طاقية، والعرق يخرج من جسده وحوله من يروحه بالمروحة كما يكون في شدة الحر»[1]. هذا مع العلم بأن بغداد شديدة البرودة في الشتاء، وهذا يدل على متانة بنيته وقوة روحانيته رحمه الله تعالى.

صفاته الخُلُقيّة:

أما صفاته الخلقية فيقول الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف البِرْزالي الإشبيلي: «كان مجابَ الدعوة، سريعَ الدمعة، دائمَ الذكر، كثيرَ الفكر، رقيق القلب، دائم البشر، كريم النفس، سخي اليد، غزير العلم، شريف الأخلاق، طيب الأعراف، مع قدم راسخ في العبادة والاجتهاد»[2] «ومع جلالة قدره كان يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء ويفلي ثيابهم، ولا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة، ولا يلم بباب وزير ولا سلطان»[3].

وقد ذكر أبو الفداء في تاريخه أن الخليفة المقتفي طلب من

---

(١) كتاب الذيل على الطبقات لابن رجب تحت رقم ١٣٤. وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٤٩.

(٢) قلائد الجواهر ص ٩

(٣) الطبقات للشعراني جـ ١ ص ١٢٧.

وزيره أن يدعو له علماء العراق فدعاهم، فلما حضروا سأل الخليفة وزيره هل حضروا جميعهم، فأجابه: نعم ما عدا الشيخ عبد القادر وعدي بن مسافر، فقال له: لم يحضر أحد إذن. وقال مفتي العراق محيي الدين أبو عبد الله محمد بن حامد البغدادي: «كان أبعد الناس عن الفحش أقرب الناس إلى الحق، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عز وجل. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لغير ربه»(١).

ولو تحرَّينا الأَخلاق التي فُطر عليها الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ونشأ عليها في جيلان، ثم حملها معه إلى بغداد، لوجدنا أبرزها: الصدق، والكرم والإيثار، والصبر، والحلم، بالإضافة إلى التقوى والورع. فلنلقِ نظرة سريعة على هذه الأَخلاق التي فُطر ونشأ عليها؛ والتي مكّنته من العيش بسلام في خضم المجتمع الصاخب في بغداد، حتى وصل إلى شاطىء السلامة والأَمان.

الصدق: رأينا، سابقاً، كيف أن أهل الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ربّوه على الصدق وكرم الأَخلاق والتقوى، فنشأ صادقاً لا يكذب، وقد مرت معنا قصته مع اللصوص وقطاع الطرق، عندما كان في طريقه من جيلان إلى بغداد، وكيف كان صدقه سبباً في توبتهم على يديه، وإقلاعهم عن السرقة وقطع طريق المسلمين. وكان يقول رحمه الله تعالىٰ: الصدق هو استواء السر والعلانية، وهو يأتي بعد درجة النبوة تحقيقاً لقول الله سبحانه

---

(١) قلائد الجواهر ص ٨.

وتعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً﴾[1].

الكرم والإيثار: كان رحمه الله تعالى مفطوراً على الكرم والإيثار، يجود بما معه ولو كان به خصاصة، وكان يحب إطعام الطعام؛ فكان، بعد أن أقبلت الدنيا عليه، يأمر كل ليلة بمد السماط، ويأكل مع الأضياف، ويجالس الضعفاء، ويصبر على طلبة العلم، ويصدّق من يحلف له[2].

وكان يقول: «فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، أودّ لو أن الدنيا بيدي فأطعمها الجياع، كفّي مثقوبة لا تضبط شيئاً، لو جاءني ألف دينار لم أبيّتها»[3]. ويقول: «سأل سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام إبليسَ: من أحب الخلق إليك؟ فقال: مؤمن بخيل، قال: ومن أبغضهم إليك؟ قال: فاسق كريم. قال: لِمَ ذلك؟ قال: لأني أرجو المؤمن البخيل أن يوقعه بخله في المعصية. وأخاف أن تُمحى سيئات الفاسق الكريم بكرمه»[4].

وقال رحمه الله تعالى: «أقمت ببغداد عشرين يوماً ما أجد ما أقتات به، ولا أجد مباحاً، فخرجت إلى إيوان كسرى أطلب مباحاً، فوجدت سبعين رجلاً من الفقراء كلهم يطلبون؛ فقلت: ليس من المروءة أن أزاحمهم، فرجعت إلى بغداد، فلقيني رجل

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

(٢) قلائد الجواهر ص ٨.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٤٩.

(٤) الفتح الرباني: المجلس ٢٩.

لا أعرفه، من أهل بلدي، فأعطاني قراضة[1]. وقال: هذه بعثت بها أمك إليك معي، فأخذت منها قطعة واحدة تركتها لنفسي، وأسرعت بالباقي إلى خراب الإيوان، وفرقت القراضة على أولئك السبعين فقالوا: ما هذا؟ قلت: إنه قد جاءني هذا من عند أمي؛ وما رأيت أن أختص به دونكم. ثم رجعت إلى بغداد واشتريت بالقطعة التي معي طعاماً، وناديت الفقراء فأكلنا جميعاً»[2]. وهكذا كان يظهر كرمه، رحمه الله تعالى وهو أشد ما يكون حاجة وفقراً. وهكذا كان من الذين ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[3].

الصبر: كان رحمه الله تعالى صبوراً على المكاره، صَبَرَ صَبْرَ الكرام على الجوع والعري والفقر وإساءات الناس إليه، وحيفهم عليه في أول أمره، ثم صبر عن زخارف الدنيا وبهارجها وشهواتها بعد ذلك. انظر إليه يقول: «ما كنت أهرب من كلام الشيوخ وخشونته، بل كنت أخرس أعمى - بين أيديهم - الآفات تنزل عليّ منهم وأنا ساكت؛ وأنت لا تصبر وتريد أن تفلح، لا ولا كرامة لك»[4]. «معنى الصبر أنك لا تشكو إلى أحد ولا تتعلق بسبب، فمن أراد العلم فعليه بالصبر، ومن رغب في الغاية فعليه بالصبر حتى النهاية، والغاية هي الله سبحانه وتعالى ورضاه، وهذا ليس له نهاية».

---

(١) قطعاً من النقود.

(٢) قلائد الجواهر ص ٩.

(٣) سورة الحشر، الآية ٩. الخصاصة الفقر والحاجة.

(٤) الفتح الرباني: المجلس ٣٨.

الصبر على البلاء: وقد صبر رحمه الله تعالى على البلاء صبراً جميلاً وتحمله أمداً طويلاً، لذلك كان يقول: «لا تهرب من البلاء، فإن البلاء مع الصبر أساس لكل خير، أساس النبوة والرسالة والمعرفة والمحبة. فإذا لم تصبر على البلاء فلا أساس لك، ولا بقاء لبناء إلا بأساس، أرأيت بيتاً ثابتاً على مزبلة ربوة»[1]. ويقول: «لا بد من الاختبار والابتلاء ولا سيما للمدّعين، لولا الابتلاء والاختبار لادّعى الولاية خلق كثير؛ ومن جملة علامة الولي صبره على أذية الخلق والتجاوز عنهم»[2]. وخلاصة القول:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

الحِلْم: لقد رأينا صوراً من حلم الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، عندما رماه شيخه حماد الدباس في نهر دجلة، فلم يغضب، بل عصر جبته ولبسها وتبعهم إلى حيث يذهبون، وكذلك عندما كان تلاميذ الشيخ حماد يتهكمون عليه ويسيئون إليه، فلا يغضب منهم، حتى نهاهم شيخهم عن ذلك. والحلم هو صفة الرجال العظام على مرِّ العصور، فهو أحد صفات النبوة، وهو الذي سوّد الأحنف بن قيس، وقيس بن عاصم، وغيرهما في أقوامهم.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: «لا يضحك في وجه الفاسق

(١) الفتح الرباني: المجلس ١٢.
(٢) المصدر السابق: المجلس ٥٣.

إلا العارف، نعم يأمره وينهاه ويتحمل أذاه، ولا يقدر على هذا إلا العارفون بالله عز وجل، كيف لا يرحمون العصاة وهم موضع الرحمة، مقام التوبة والاعتذار. العارف خلقه من أخلاق الحق عز وجل فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوى، إذا رأى أحدكم ولده أسيراً في يد كافر أليس يجتهد في تخليصه، فهكذا العارف، الخلق جميعهم عنده كالأولاد»[1].

التقوى والورع: أمور الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كلها تدل على التقوى والورع منذ أن نشأ وترعرع في جيلان من أرومة شريفة النسب كريمة المحتد ومن والدَيْن صالحَيْن وجَدٍّ زاهد صالح، فربوه على الصلاح ومكارم الأخلاق، وتجلى ورعه في الطريق من جيلان إلى بغداد فلم يكذب، واعترف أمام قطاع الطرق بأنه يملك أربعين ديناراً، كما تجلى في بغداد حينما لم تؤثر فيه المغريات على كثرتها، وحاول أن يهرب من بغداد خوفاً على دينه منها، ثم تغلب ورعه على هواه، فثبت وكان من الناجحين المفلحين، ثم تجلى ورعه بعد ذلك، عندما أقبلت الدنيا عليه، فلم يلتفت إليها، ولم يغير شيئاً من سلوكه الذي كان عليه قبل إقبالها، بل استعملها لإطعام الفقراء وإغاثة الملهوفين، وإيواء التائهين وأبناء السبيل.

وجماع الأمر كله أن أخلاق الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كانت كأخلاق الأولياء والصالحين والصديقين من السلف الصالح

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٥٣.

رضي الله تعالى عنهم، لذلك هابه الملوك والأمراء وحصل له القبول عند الناس فأقبلوا عليه حتى ضاق بهم المكان، وحتى كان يُعد في بعض مجالسه أربعمائة محبرة تنقل عنه ما يقول، وكان يحضر مجلسه نحو من سبعين ألفاً[1]، يسمع بعيدهم وقريبهم سواء. وكان تأثيره رحمه الله تعالى في السامعين كبيراً لذلك كثيراً ما كانت تذرف في مجالسه الدموع، ويرتفع فيها صوت البكاء. وقد حل ابنه عبد الوهاب محله مرة في إلقاء الدرس، فلم تذرف دمعة في مجلسه ولم يحصل بكاء، فسأل أباه عن ذلك فقال له: لأنك عندما ألقيت درسك كنت تستمد من علمك، أما أنا فكنت أستمد من الله تعالى وأنظر إليه[2].

والآن، بعد أن تعرفنا على صفات الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى وأخلاقه، فلنتعرف على التصوف أو علم التزكية: لماذا نشأ؟ وكيف نشأ؟ وكيف تطور؟ ما كنهه؟ ما حقيقته؟ ما لزومه وضرورته للمجتمع؟ قبل أن نعود إلى السير مع الشيخ رحمه الله تعالى في مهمة الإصلاح والإرشاد وتربية التلاميذ والمريدين.

---

(١) قلائد الجواهر لمحمد التادفي ص ١٥.

(٢) كتاب محمد العيني ص ٦٨.

الفَصل الثاني

عِلم تزكِيةِ النَّفْس
نُشُوؤُهُ وَتَطوُّرُهُ وَضَرُورَتُهُ لِلمُجْتَمعِ

نشوء علم التزكية:

جاء الدين الإسلامي ليشمل نواحي الحياة جميعها، العبادات والمعاملات والسلوك والنفس والأخلاق. جاء بناءً متكاملاً، له أركان قوية هي أركان الإسلام، شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، والصلاة والزكاة والصوم والحج لمن استطاع إليه سبيلاً، وأركان الإيمان: الإيمان بالله تعالى وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وله مقام، هو مقام الإحسان، مقام المشاهدة والمراقبة لله تعالى، وإذا كانت الأركان قوية يأتي البناء فوقها قوياً متيناً، وهو السلوك والنفس والأخلاق. ولو اعتبرنا الدين الإسلامي شجرة، لكانت الأركان هي الجذور والسوق والأغصان، وكانت الأوراق والثمار هي السلوك والنفس والأخلاق، وكلما كانت الجذور والسوق والأغصان قوية كلما كانت الأوراق والثمار يانعة ريَّانة ناضجة.

الدين الإسلاميُّ يقوم بالسلطان والقرآن. وكانا مجتمعين في صدر الإسلام، لأن الخليفة كان في الوقت نفسه عالماً بالقرآن وأحكامه. ثم بدأ الافتراق شيئاً فشيئاً.

وأول ما انفصل كان القضاء، ثم أخذ مقام الإحسان والمراقبة

ينفصل شيئاً فشيئاً، بعد عهد الخلفاء الراشدين، وبدأ الحكام وبدأت الأمة تحيد عن النهج المحمدي شيئاً فشيئاً، ففشت فيهم البطنة. تقول السيد عائشة رضي الله تعالى عنها: «أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها، الشبع، فإنَّ القومَ لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبُهم وجَمَحت شهواتهم..»[1].

ثم أخذوا يتطاولون في البنيان وزينته وزخرفته، وأخذ القرآن ينفصل عن السلطان شيئاً فشيئاً، ما عدا فترات قصيرة، كعهد عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه مثلاً، ولكن الخلفاء كانوا، في أغلب الأوقات يخضعون للعلماء، ويستجيبون للنصح والإرشاد. ثم أخذت عرى الإسلام تنحل عروة عروة، وأول ما انحل منها كان مقام الإحسان والمراقبة، ولكنَّ الناس لم ينتبهوا له لأنه لا يتعلق بالجوارح الظاهرة، وكثرت مشكلات الحياة بعد انتشار الفتوحات، وكثر من جرائها اختلاف العلماء في العبادات والمعاملات، وهذه من الأعمال الظاهرة للعيان والتي يحس بها كل إنسان، لذلك تصدى العلماء العاملون لها وقاموا بتدوين فقه العبادات والمعاملات. وهكذا ظهرت المذاهب الفقهية. ثم استقل علم العقائد وظهر كعلم مستقل بذاته سمي بعلم التوحيد أو علم الكلام أو علم العقائد، وبخاصة بعدما بدأت الفلسفة اليونانية تتدخل في شؤون الثقافة الإسلامية، وأخيراً استقلت العلوم الشرعية الفرعية المتصلة بأعمال القلب، وأُفرد لها علم خاص عرف باسم علم التصوف

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذري.

أو الأخلاق[1]. مع أنَّ الشرع الإسلامي كان يشمل هـذه العلوم كلها بدون تمايز بينها في صدر الإسلام، أي أنَّ التصوف لم يكن بدعاً في العلوم الشرعية، ولكنه استقل وأُطلق عليه هذا الاسم متأخراً، والعبرة للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني كما يقال.

في علم الفيزياء قانون اكتشفه العالم الإنكليزي إسحاق نيوتن (١٦٤٣ ـ ١٧٢٧ م) يسمى قانون رد الفعل، وهو يقول إن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القدرة ومعاكس له في الاتجاه؛ فلو ألقيت كرةً على الأرض لارتدت عنها بقوة مساوية لقوة اصطدامها بها وبعكس الاتجاه الأول. وكما يحدث هذا في الفيزياء فإنه يحدث في جميع الأمور الأخرى، حتى الأمور النفسية أيضاً، ولكنه في الأمور النفسية لا يتعلق رد الفعل بقوة الفعل فقط وإنما يتعلق بمشاعر الشخص وصحته النفسية وقوته الشخصية أيضاً.

ذكرت في اللمحة الاجتماعية أنَّ المسلمين بدءوا يفتتنون بالدنيا بعد عهد الخلفاء الراشدين، وهذا ما كان يخشاه عليهم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبدأ ذلك منذ عهـد الوليد بن عبد الملك، ثم ازداد ذلك وتسارع منذ عهد يزيد بن عبد الملك حتى وصل إلى حد التبذير والإسراف والإنفاق في غير ما شرع الله، وبخاصة على الشعراء والقيان والمغنين والمغنيات وشراء الغلمان، ومجالس الشراب، وظهر إلى جانب ذلك الشح وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين. هذا الفعل أدى إلى رد فعل

---

(١) انظر الموسوعة الفقهية الكويتية، المجلد الأول، ص ١٢ و ١٣.

معاكس له عند بعض الصالحين، كانت تختلف قوته شدة وضعفاً على حسب الأشخاص. أما الصالحون الذين درسوا الفقه، وتمكنوا منه، كالشيخ عبد القادر الجيلاني وأمثاله، فقد بقي عندهم رد الفعل هذا محصوراً في حدود الشرع لا يتجاوزه، وأما غير المتمكنين من الفقه فقد طاش عندهم رد الفعل هذا حتى أوصلهم أحياناً إلى بدع خارجة عن الشرع.

وجاء في كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة: أن أول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة ١٥٠ هـ، يقول سفيان الثوري رحمه الله تعالى: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء [١]. وكان جابر بن حيان الكوفي (ت سنة ١٦١ هـ) يدعى جابر الصوفي. ويروى أن محمد بن واسع دخل على قتيبة بن مسلم والي خراسان (ت سنة ٩٦ هـ) في مدرعة صوف، فقال له: ما يدعوك إلى لباس هذه؟ فسكت، فقال له: أكلمك ولا تجيبني؟ فقال: أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو أقول فقراً فأشكو ربي، فما جوابك إلا السكوت.

وجاء في كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ (ت سنة ٢٥٥ هـ) عن محمد بن القاسم «أنه لقب بالصوفي لأنه لم يكن يلبس إلا الصوف الأبيض، وكان عالماً فقيهاً ديِّناً زاهداً حسن المذهب يقول بالعدل والتوحيد».

وجاء في مروج الذهب للمسعودي يحيـى بن أكثم أن رجلاً طلب الدخول على المأمون (ت سنة ٢١٨ هـ) للمناظرة وكانت عليه ثياب

---

(١) كتاب اللمع ص ٤٢.

بيض غلاظ، قال: فعلمت أنه بعض الصوفية.

أما الشيخ ابن تيمية فيقول في فتاواه: «وأما لباس الصوف، فقد لبس رسول الله ﷺ جبة الصوف في السفر، ولهذا قال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنة، وفي الحضر بدعة، ومعنى هذا أن المداومة عليه في الحضر بدعة، كما روينا عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن أقواماً يتحرون لباس الصوف، قال: أظن هؤلاء بلغهم أن المسيح ـ عليه السلام ـ كان يلبس الصوف فلبسوه لذلك، وهدْي نبينا أحب إلينا من هدي غيره. وفي السنن أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يشهدون الجمعة ولباسهم الصوف. ومعنى هذا أن اتخاذ لبس الصوف عبادة وطريقاً إلى الله بدعة، وأما لبسه للحاجة والانتفاع به للفقير لعدم غيره أو لعدم لبس غيره، ونحو ذلك فهو حسن مشروع»[1].

على كل حال فإنَّ الصوفيين كان بعضهم يلبس الصوف زهداً، وبعضهم الآخر يلبسه فقراً، لأنه لا يجد غيره. وبعد أن أعطى الصوف اسمه للصوفية وأصبح عَلَماً لهم، على الرغم منهم، فهم لم يختاروه لأنفسهم، بل فرضه الناس عليهم، بعد ذلك انسحب الصوف بهدوء من لباسهم، وترك اسمه لاباساً لهم، وأصبح التصوف سلوكاً خاصاً في الحياة، لا يتقيَّد أصحابه بلبس الصوف فقط. فقد يلبسونه وقد يلبسون غيره من الثياب، وقد رأينا كيف أن الشيخ عبد القادر كان يلبس جبة الصوف عندما كان طالباً

(١) فتاوى ابن تيمية: كتاب التصوف جـ ١١ ص ٥٥٤.

فقيراً. وكيف سقط بها في نهر دجلة، ثم بعد ذلك، بعد أن أصبح مدرّساً وتحسنت أحواله المالية، صار يلبس شتى أنواع الثياب وقد يلبس أفخرها أحياناً، انظر إليه يقول: «التصوف مشتق من الصفاء، لا من لبس الصوف، الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه عز وجل، وهذا شيء ولا يجيء بتغير الخرق وتصغير الوجوه ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل»[1] ويقول: «يا من لبس الصوف، البس الصوف لسرك ثم لقلبك ثم لنفسك ثم لبدنك، بداية الزهد من هناك، من الباطن، لا من الظاهر، إذا صفا السر تعدى الصفاء إلى القلب والنفس والجوارح والمأكول والملبوس، وتعدى إلى جميع أحوالك، أول ما يُعمر داخل الدار، فإذا كملت عمارتها، اخرج إلى عمارة الباب»[2].

كم من لابسٍ للصوف وليس عنده من السلوك الإسلامي شيء، وكم من لابس لغير الصوف وهو من أكبر المتصوفين والسالكين.

إذن ما التصوف، (أو علم التزكية)؟ ما طبيعته وحدوده وطريقته؟

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٢٥ ص ١١٥.
(٢) الفتح الرباني: المجلس ٢٤ ص ١١١.

لم يرسم الصوفية مبادىء وخطوطاً لطريقهم مسبقاً، ولم يفكر روَّادها الأوائل بهذا الاسم مطلقاً، ولم يريدوه لأنفسهم، بل أراده الناس لهم وألبسوهم إيَّاه على رغم أنوفهم، ولم يكونوا يفكرون بمبادىء وطرق، بل جل ما كانوا يرجونه هو أن يعودوا إلى نبع الإسلام الصافي، إلى سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وسيرة الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، بعد ما شاهدوا من انحراف الأمة الإسلامية انحرافاً شديداً عن النهج الإسلامي الصحيح. ثم كانوا يرجون بعد ذلك أن يقتدي الناس بهم ويسيروا خلفهم لينقذوهم من سبل الشيطان التي كانت الأمة تسير عليها.

حقيقة التصوف أو علم التزكية:

أما إذا أردنا أن نعرف كنه التصوف (أو علم التزكية)، وحقيقته فيجب أن نستعرض أقوال بعض أعلام التصوف، فهم أدرى به، وبما رسموه لأنفسهم من سلوك ومنهاج، وهي مأخوذة من كتاب «طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (٣٢٥ ـ ٤١٢ هـ)، ومن كتاب «طبقات الأولياء» لسراج الدين أبي حفص عمر بن علي الملقب بابن الملقّن (٧٢٣ ـ ٨٠٤ هـ).

أقوال أعلام الصوفية:

الفضيل بن عياض (ت سنة ١٨٧ هـ): «ولم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صلاة ولا صيام، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدر والنصح للأمة»[1].

---

(١) طبقات الصوفية ص ١٠.

بشر الحافي (ت سنة ٢٢٧ هـ): «الحلال لا يحتمل السَّرَف».

سريّ السقطي (ت سنة ٢٥١ هـ): «قليلٌ في سنّة خير من كثير في بدعة». «أقوى القوة غلبتك نفسك. ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز». «من خاف الله خافه كل شيء» «إذا ابتدأ الإنسان بالنسك ثم كتب الحديث فتر، وإذا ابتدأ بكتب الحديث ثم تنسك نفذ»[1].

أبو سليمان الداراني (ت سنة ٢١٥ هـ): «ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة». «إذا جاع القلب وعطش صفا ورقّ وإذا شبع وروي عمي»[2].

حاتم الأصم (ت سنة ٢٣٧ هـ): «الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والجنة عاشقة». «تعهد نفسك في ثلاثة مواضع: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله لك، وإذا سكنت فاذكر علم الله فيك»[3].

يحيى بن معاذ الرازي (ت سنة ٢٥٨ هـ): «أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة يخدمهم الأبرار والأحرار». «من كان غناه في كسبه لم يزل فقيراً، ومن كان غناه في قلبه لم يزل غنياً، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً».

---

(١) طبقات الصوفية ص ٥٢.
(٢) طبقات الصوفية ص ٧٨.
(٣) المصدر السابق ص ٩٧.

سهل بن عبد الله التُسْتَري (ت سنة ٢٨٣ هـ): «أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق». «ذكر الله تعالى عند النوم هو: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي ١١ مرة»[١].

أبو بكر الورّاق (ت سنة ٢٤٠ هـ): «من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدّع، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسّق؛ ومن تفنن في هذه الأمور كلها تخلّص»[٢].

أبو إسحاق إبراهيم الخواص (ت سنة ٢٩١ هـ): «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»[٣].

الجنيد بن محمد، أبو القاسم (ت سنة ٢٩٧)، صحب خاله سري السقطي والحارث المحاسبي، وتفقه على أبي ثور ـ صاحب أحد مذاهب أهل السنة والجماعة ـ قال: «الطرق كلها مسدودة على الخلْق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه». «التصوف هو العلو إلى كل خلق شريف والعدول عن كل خلق دنيء»[٤]. «مذهبنا هذا مقيد

(١) طبقات الصوفية ص ٢١٠.
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٤.
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٦.
(٤) المصدر السابق ص ١٥٩.

بأصول الكتاب والسنة». «علمنا هذا مبني على الكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الشأن»[1].

أبو الحسين الورّاق النيسابوري محمد بن سعد (ت سنة ٣٢٠ هـ): «لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث يظن أنه مهتد»[2].

إبراهيم بن داود القصار (ت سنة ٣٢٦ هـ): «علامة محبة الله تعالى إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ»[3].

أبو بكر الكتاني محمد بن علي (ت سنة ٣٢٢ هـ): «التصوف خُلُقٌ فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف»[4].

أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرباذي (ت سنة ٣٦٧ هـ): «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، وحسن صحبة الرفقاء، والقيام بخدمتهم، واستعمال الأخلاق الجميلة، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات، وما ضل أحدٌ

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ١٠ السلوك ص ٤١٢ وجـ ١١ التصوف ص ٢١٠.
(٢) طبقات الصوفية ص ٢٩٩.
(٣) المصدر السابق ص ٣٢١.
(٤) طبقات الأولياء ص ١٤٥.

في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء، فإن فسد الابتداء يؤثر في الانتهاء»[1].

أبو حامد الغزالي (ت سنة ٥٠٥ هـ): «فجميع حركاتهم ـ أي الصوفية ـ وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاه النبوة، وليس وراء نور النبـوة على وجه الأرض نـور يستضاء به»[2].

عبد القادر الجيلاني (ت سنة ٥٦١ هـ): «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة هي زندقة، طرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة، ادخلْ عليه ويدك في يد الرسول ﷺ.. ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية»[3].

هذا شيء من أقوال أئمة الصوفية وأعلامهم. ونراها كلها تدور حول اتباع الكتاب والسنة، والابتعاد عما يخالفهما، وكلها تدعو إلى مكارم الأخلاق وإلى الخوف من الله تعالى، وإلى تقواه وابتغاء رضاه، تدعو إلى السخاء والتواضع وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام. كما تدعو إلى عدم إهمال ما يلزم العبد من الدنيا، وتحث على الجمع بين الفقه والتصوف لأنهما يكمـل بعضهما بعضاً، وبالجمع بينهما يحصل الكمال الذي كان عليه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وصحابته رضي الله تعالى عنهم. فهل في هذا شيء من مخالفة الشرع الشريف؟

---

(١) طبقات الصوفية ص ٤٨٨.
(٢) المنقذ من الضلال ص ١٣١.
(٣) الفتح الرباني: المجلس ٥٤ ص ١٧٩.

أقوال العلماء في التصوف:

والآن لنرى ما قاله بعض العلماء القدماء والمحدثين عن التصوف:

الشافعي رحمه الله تعالى (ت سنة ٢٠٤ هـ): «حُبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف»[١]. وكان يحترم شيبان الراعي الصوفي ويستمع إليه[٢]. وقال: «عليك بالزهد، فالزهد على الزاهد أحسن من الحلي على الناهد... من أحب أن يفتح الله قلبه ويرزقه العلم فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء.. وأفضل الأعمال ثلاثة: ذكر الله ومواساة الإخوان وإنصاف الناس من نفسك»[٣].

أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى (ت سنة ٢٤١ هـ): كان يستمع لشيبان الراعي، ولأبي حمزة البغدادي ويسأله عن دقائق المسائل ويقول: ما تقول فيها يا صوفي؟ وقال لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة»[٤] وذلك بعد أن صحب الإمام أحمد

---

(١) كشف الخفا للعجلوني جـ ١ ص ٣٤١.
(٢) مقدمة الطبقات الكبرى للشعراني.
(٣) بستان العارفين للنووي ص ١٠٣ و ١٣٠.
(٤) مقدمة الطبقات الكبرى للشعراني، وتنوير القلوب للشيخ أمين الكردي ص ٤٠٥.

أبا حمزة البغدادي. وإن حياته رحمه الله تعالى كانت حياة صوفي زاهد، فقد عاش عيش الزاهدين، وكان يأكل من عمل يده، وغلة عقاره فقط، وما كان يقبل هدايا الخلفاء ولا عطاءهم ولا يأكل طعامهم.

عز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء (ت سنة ٦٦٠ هـ): يؤثر عنه، رحمه الله تعالى، أنه أخذ الطريقة عن شهاب الدين السهروردي في بغداد، وعن أبي الحسن الشاذلي في مصر، وكان يقول: ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي به، يعني بأبي الحسن الشاذلي[١]. ويقول: قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى»[٢]. وكان رحمه الله تعالى طوداً راسخاً في مواجهة البدع والظلم وطغيان الملوك والسلاطين، هاجم الصالح إسماعيل ملك دمشق عندما اتفق مع الصليبيين، فأخرجه الملك من دمشق فتوجه إلى مصر فلحقه أحد رجال الملك ليسترضيه وقال له: إن الملك يعفو عنك ويسمح لك بالعودة إذا قبَّلت يده، فقال له: يا مسكين، والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل أنا يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد (كتاب ربانية لا رهبانية للندوي ص ١٧).

أبو يحيى زكريا بن شرف الدين النووي (ت سنة ٦٧٦ هـ): العلم العامل الزاهد، صاحب التآليف الكثيرة على الرغم من أن

---

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ص ٥٠.

(٢) نور التحقيق للشيخ حامد صقر ص ٩٦.

عمره عندما توفي لم يتجاوز الخامسة والأربعين. كان لا يأكل إلا من الطعام الذي كان أهله يرسلونه إليه من بلدته نوى تحرجاً من أوقاف دمشق وأملاكها المغتصبة، وكان لباسه ثوب خامٍ، أخذ الطريقة على الشيخ ياسين بن عبد الله المغربي الحجام[1]، وكان لا تأخذه في الحق لومة لائم. وقف أمام الملك الظاهر بيبرس ومنعه من أخذ أوقاف دمشق. وقد ذكر في كتابه «بستان العارفين» كثيراً من أخبار الصوفية وكراماتهم من أمثال السري السقطي وسهل بن عبد الله التستري وشهاب الدين السهروردي وغيرهم.

الإمام الشاطبي صاحب الاعتصام (ت سنة ٥٩٠ هـ) قال: «ثم ظهرت البدع ـ أي بعد تابعي التابعين ـ وادعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعبّاداً فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى والحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف، فتأملْ تغنمْ، والله أعلم».

ابن تيمية (ت سنة ٧٢٨ هـ) قال عن الصوفية: «والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفيهم من هو ظالم لنفسه عاصي لربه». وكان رحمه الله تعالى يثني ثناءً عاطراً على أعلام الصوفية من أمثال الجنيد وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي وسهل بن عبد الله

---

(١) طبقات الأولياء ص ٤٧٨.

التستري والشيخ عبد القادر وعدي بن مسافر ويقول: رضي الله عنهم، وقدّس الله روحهم[١].

ابن قيم الجوزية (ت سنة ٧٥١ هـ) تلميذ ابن تيمية قال: «ينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته، فإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى واتباع السنة، وهو حازم في أمره فليستمسك بغرزه».

ابن خلدون (ت سنة ٨٠٨ هـ) قال في مقدمته «لما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية»[٢]. وكان يرى أن التصوف لا يخرج عن الإطار العام للإسلام فيقول: «إن التصوف طريقة من طرائق الوصول إلى معرفة الشريعة».

ابن عابدين (ت سنة ١٢٥٥ هـ) قال في حاشيته: «الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين، من قطع المنازل والترقي في المقامات، والحقيقة هي مشاهدة الربوبية بالقلب. . والمراد من الثلاثة ـ الشريعة والطريقة والحقيقة ـ إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد»[٣] ونقل عن القشيري قوله في رسالته: «سمعت أبا علي الدقاق يقول: أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصرباذي، وقال أبو القاسم أنا أخذتها من الشبلي وهو أخذها من

---

(١) مجلد التصوف من الفتاوى ص ٢٣٣.

(٢) المقدمة ص ٣٢٩.

(٣) حاشية ابن عابدين جـ ٣ ص ٣٠٣.

السري السقطي وهو من معروف الكرخي وهو من داود الطائي وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة»[1]. وهو يثبت بذلك أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى كان ممن سلك هذا الطريق أيضاً.

أبو الحسن علي الحسني الندوي قال: «ضيعت الخلافة الإسلامية روح الخلافة، وأمانة النبوة، وأصبحت ملكاً وسياسة، وإدارة وجباية، فقام في نواحي المملكة الإسلامية ربانيون، يجدد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاق الإسلام، ويدخلون في الإسلام فقهاً وإرادة بعدما دخلوا فيه وراثة وعادة، ويخرجون من سلطان الهوى ورقّ الشهوات وينشطون في العبادات والطاعة. ومن أشهر هؤلاء الدعاة والمربين: الحسن البصري، والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي، والجنيد رحمهم الله تعالى... ثم نهض في بغداد رجل قوي الشخصية، قوي الإيمان، قوي التأثير.. هو الشيخ عبد القادر»[2].

أحمد الشرباصي قال: «يا أبناء الإسلام إن التصوف يحتل من أخلاقكم وتاريخكم جانباً كبيراً، وقد ضيعتموه أزماناً طوالاً، فحسبكم ما كان، وأقبلوا على التصوف ففيه غذاء ودواء، والله الهادي إلى سبيل السواء»[3].

الدكتور محمد علوي المالكي، الأستاذ السابق في جامعة أم

---

(١) حاشية ابن عابدين جـ ١ ص ٤١.
(٢) كتاب ربانية لا رهبانية لأبي الحسن الندوي ص ٣١ وما بعدها.
(٣) تصدير كتاب نور التحقيق للشيخ حامد صقر ص ٣.

القرى والمدرس بالمسجد الحرام قال: «التصوف ذلك المظلوم المتهم، قليلٌ من ينصفه، بل بلغت الجرأة ببعضهم أنه جعله من صفات الذم والقدح التي تسقط بها الشهادة وتزول بها العدالة، فيقول: فلان ليس بثقة ولا يقبل خبره، لماذا؟ لأنه صوفي. لذا أحببت أن أنقل كلام أئمة الدين الذين هم أركان التصوف ورجاله»[1]. ثم نقل نبذاً من كلام الجنيد وأبي يزيد البسطامي وذي النون المصري وبشر الحافي وأبي سليمان الداراني.

شاعر الإسلام محمد إقبال قال: «إن الإسلام عند الصوفية يأخذ طابعاً من الجمال والكمال والإنسانية العالية والأخوة العالمية لا تجده في إسلام الفقهاء أو المتكلمين»[2].

روجيه جارودي، الفيلسوف الفرنسي، قال: «يمكن القول إن التصوفَ بُعْدٌ من أبعاد العقيدة الإسلامية بل هو بعدها الجوّاني الداخلي، وكل محاولة تجعل التصوف تياراً مستقلاً تحط من قيمته حتماً، فليس من الإسلام الفصل بين التأمل والعمل... والأصول الأولى للتصوف الإسلامي كانت من القرآن»[3].

ويكفي هذا القدر من أقوال العلماء القدماء والمحدثين عن التصوف مع أنه يوجد منها الكثير.

---

(١) كتاب «مفاهيم يجب أن تصحح» ص ٣٥.

(٢) مقدمة كتاب اللمع تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه سرور.

(٣) ما يَعِد به الإسلام لروجيه جارودي ص ٧٧.

هل التصوف ضروري للمجتمع الإسلامي؟

رأينا أن التصوف أو التزكية لا يخرج عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. كما صرح بذلك كبار مشايخه، وأنه يعمل على تزكية النفوس بوضعها في مقام الإحسان والمراقبة، ويدعو إلى مكارم الأخلاق وعدم الافتتان بالدنيا، ويحذر من الشح والحسد والبغض والغيبة والنميمة وجميع الصفات الذميمة. فالصوفي ليس لابس صوفٍ فقط وإنما هو كما قال الشاعر:

تنازع الناس في الصوفيّ واختلفوا
وظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى
صافي فصوفي حتى سمي الصوفي

وهذا كله يوافق ما جاء به سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ويوافق أخلاق المجتمع الإسلامي الأول، خير القرون، وسلوكه. وهذه الأخلاق والسلوك هي التي مكنت مجتمع الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أن ينشروا الإسلام، في سنوات معدودة من حدود الصين شرقاً إلى بحر الظلمات (الأطلسي) غرباً، مما أذهل العالم أجمع. هذا السلوك الذي يتجلى في الكتاب الذي أرسله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم إلى عتبة بن فرقد عامله على أذربيجان، فكأنه يصف فيه مجتمع الصوفية؛ قال: «أما بعد، فاتزروا وارتدوا وانتعلوا وارموا بالخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وإياكم والتنعّم وزيّ العجم، وعليكم

بالشمس فإنها حمام العرب، وتمعددوا ـ أي تشبهوا بجدكم معد بن عدنان في تقشفه ـ، واخشوشنوا، واخلولقوا، واقطعوا الركب ـ أي مرهم أن يثبوا على الخيل وثباً بدون الاستعانة بالركب ـ. وارموا الأغراض ـ أي ارموا بالسهام ـ»[1].

وعندما بدأ المجتمع الإسلامي يتخلى عن هذه الأخلاق وهذا السلوك شيئاً فشيئاً، بدأ انتشار الإسلام ينحسر شيئاً فشيئاً أيضاً، والآن لا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله، لا يصلح إلا بالرجوع إلى أخلاق المجتمع الإسلامي الأول وسلوكه.

إننا اليوم، في أزمة أخلاقية طاحنة، فالعبادات لم تعد عبادات كما كانت في صدر الإسلام، وإنما أصبحت عادات وحركات لا روح فيها لا تكاد تنهى عن فحشاء ولا منكر ولا عن قول الزور، وفسدت المعاملات بين الناس فالكل يبغي الربح سواءً كان من حلال أو من حرام، وانتشر الفجور وشرب الخمور وإدمان المخدرات، وافتتنا بالدنيا وتطاولنا في البنيان، وتفاخرنا بأنواع الزينة والرياش، وأصابنا الوهن: حب الدنيا وكراهية الموت، ونحن اليوم نسير نحو الهاوية، إن لم يتداركنا الله سبحانه وتعالى برحمته، فكيف الخلاص؟

تعقد الندوات وتلقى الخطب والمواعظ ولكن لا حياة لمن تنادي. الخلاص بإصلاح الأساس أولاً، فما دام الأساس فاسداً فلن يكون البناء صالحاً، وإنْ صَلَح الأساس صلح البناء.

---

(١) بستان العارفين للنووي ص ١١٥.

والأساس مكارم الأخلاق، «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، الأساس إصلاح الباطن أولاً، وليس هذا بالأمر السهل ولا يتم بالكلام فقط.

لقد نجح التصوف، في الماضي، في كبح جماح الأهواء والشهوات وفي تزكية النفوس والأخلاق، فلنترك اسمه، إذا كنا نتأذى منه، ولنأخذ منهجه الذي وضعه لتربية النفوس وتزكية الأخلاق، بعد أن نصفيه مما اعتوره من شوائب ومخالفات، ولنستفد منه في إعادة تهذيب مجتمعنا وتربية أبنائنا. في مدارسنا يدرسون الأخلاق الوضعية التي وضعها الفلاسفة الغربيون أمثال كَنْت الألماني، وأوغست كومت الفرنسي، ووليم جيمس الأمريكي، وأساسها فعل الواجب لأنه واجب، كما يقول كَنْت. فلماذا لا ندرّس أبناءنا، منذ الصفوف الأولى، الأخلاق النبوية والشمائل المحمدية التي أساسها فعل المعروف وترك المنكر ابتغاءَ مرضاة الله سبحانه وتعالى؟ على أن يرفق ذلك بتطبيقات عملية يفهمها الطلاب جميعهم، كلٌّ على حسب سنه، ولا بد من متابعة ذلك في البيت والمسجد أيضاً، ويخصص لكل جماعة منهم مرشد أو شيخ مأمون في دينه وأخلاقه، يتولى متابعتهم وتدريبهم ليردَّ الشاذ ويهدي الضال، ويستعين على ذلك بالذكر والأوراد، والسيرة النبوية المطهرة، وسيرة الصالحين والمجاهدين في سبيل الله تعالى إلى أن تصبح الأخلاق النبيلة سجية طبيعية في نفوسهم وضمائرهم. فيشبّون ويشيبون عليها وينقلونها إلى أبنائهم

(١) رواه مالك في الموطأ وأحمد والبزار كما في جامع الأصول ٤ : ٤.

وحفدتهم. وعند ذلك سنرىٰ أن جميع الموبقات وإدمان المخدرات وشرب الخمور وغيرها قد خفّت وتضاءل شرها، وسنرىٰ أن الدنيا كلها قد فتحت ذراعيها مرحِّبةً بنا لنخلصها من طغيان المادة عليها؛ فالعالم كله الآن في أزمة أخلاقية ينتظر بفارغ الصبر من ينقذه منها، لا بحد السيف وإنما بالمثل الجيد والأسوة الحسنة.

ماذا فعل الصوفية للإسلام في تاريخه الطويل:

لقد كان نشوء التصوف رداً على انحراف ميزان المجتمع الإسلامي بشدة نحو المادة ونحو الدنيا وزينتها، على عكس ما أمرهم به النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد نجح في إيقاف السيل الجارف، أو الحد من قوته في كثير من الأحيان. ووقف كثير من المتصوفة في وجه الظلم والطغيان، وقالوا كلمة الحق غير هيّابين ولا وجلين، تحقيقاً لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أفضل الجهاد كلمة عدل ـ أو حق ـ عند سلطان جائر»[1]. كموقف الشيخ عبد القادر مع الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، وعز الدين بن عبد السلام مع الملك الصالح إسماعيل ثم مع نجم الدين أيوب ومماليكه في مصر، ومنذر بن سعيد البلوطي مع عبد الرحمن الناصر في قرطبة، والنووي مع الظاهر بيبرس، والشيخ سعيد الحلبي مع إبراهيم باشا المصري، وكثير غيرهم، هذا بالإضافة إلى إسلام كثير من الكفار وتوبة كثير من

(١) رواه الترمذي وأبو داود كما في جامع الأصول ١ : ٣٣٣.

العصاة والفساق على أيديهم، كما حدث للشيخ عبدالقادر، إذ أسلم على يديه خمسة آلاف من الكفار وتاب أكثر من مائة ألف من العصاة، كما أن بعضهم قد جاهد بيده وسيفه، ولكن لم تصلنا أخبارهم جميعاً نظراً لابتعادهم عن الرياء وشبهة الرياء، وقد ذكر ابن الملقّن هذه القصة عن حاتم الأصم الصوفي (ت ٢٣٧ هـ) في كتابه «طبقات الأولياء»: «وقال (أي حاتم الأصم): لقينا الترك وكانت بيننا جولة، فرماني تركي، فقلبني وقعد على صدري، وأخذ بلحيتي، وأخرج من خفه سكيناً ليذبحني، فوحق سيدي - أي الله تعالى - ما كان قلبي عنده ولا عند سكينه، إنما كان قلبي عند سيدي، لأنظر ماذا ينزل منه - أي من الله تعالى - بي. فقلت: قضيتَ سيدي بذلك؟! فعلى الرأس والعين. إنما أنا ملكك. فبينما أنا أخاطب سيدي، وهو قاعد على صدري، آخذ بلحيتي ليذبحني، إذ رماه بعض المسلمين بسهم. فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فقمت أنا إليه، وأخذتها من يده وذبحته بها. فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لم تروا من الآباء والأمهات»[1].

وأحمد البدوي ومريدوه قد ساهموا مساهمة فعالة في رد الحملة الصليبية على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٩ م).

والمرابطون في إفريقية، في القرن الخامس الهجري، هم من الصوفية أيضاً، وأصلهم من قبيلة لمتونة؛ تنسك أولاً رجل منهم

(١) طبقات الأولياء ص ١٨٠.

يـدعى يحيـى بن عمر على يد عبـد الله بن ياسين الجـزولي، وصاروا يعبدون الله سبحانه وتعالى في ربوة سموها رباطاً، وأخذ عددهم يزداد حتى بلغ ألفاً من الرجال، وكانوا في بدء الأمر قد تفرغوا للعبادة والتأمل والتعلم وإصلاح الباطن وتزكية الأخـلاق مدة عشر سنوات، وعند ذلك قال لهم شيخهم: اخرجوا الآن وجاهدوا فلن تُغلبوا من قلة ولا من ضعف، فخرجوا وغلبوا على إفريقية وشكلوا دولة المرابطين، وبعد وفاة يحيـى بن عمر تولى أمرهم يوسف بن تاشفين الذي بنى مدينة مراكش سنة ٤٥٤ هـ ثم أنجد المسلمين في الأندلس وكـان السبب في تأخيـر خروج المسلمين منها لمدة أربعة قرون أخرى، وذلك بعد انتصاره على ملك الإفرنج فيها ألفونسو في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ. وهي من المعارك الفاصلة في التاريخ، قضى فيها المرابطون على جيش ألفونسو، وكان ٥٠ ألفاً وقيل أكثر من ذلك، قضاء مبرماً فلم ينـجُ منهم سوى خمسمائة جندي[١].

وعبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى، حارب المستعمرين الفرنسيين في الجزائر مدة خمس عشرة سنة، ولـه كتاب في التصوف يسمى «المواقف» وقد قال عنه الأمير شكيب أرسلان: «كان متضلعاً في العلم والأدب راسخ القدم في التصوف لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً»[٢].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد الشلبي جـ ٤ ص ٧٢.

(٢) ما يعد به الإسلام لروجيه جارودي ص ١٥٨ وربانية لا رهبانية لأبي الحسن الندوي ص ١٢٦.

ومحمد غازي والشيخ شامل اللذان حاربا الروس خمساً وثلاثين سنة هما من الطائفة النقشبندية. والحركة السنوسية التي حاربت إيطاليا في ليبيا، والحركة المهدية التي حاربت الإنكليز في السودان، هما حركتان صوفيتان أيضاً.

وفي العصر الحاضر ثمة شواهد أخرى على جهاد الصوفية ومحاربتهم لأهل الكفر والضلال لا مجال لذكرها الآن. فكيف ينسبهم كثير من الناس إلى الخنوع والذل والخيانة أحياناً، إن في كل فئة شواذً ومدعين ونفعيين، وعلى العاقل أن يميز بين الغث والسمين، وأن لا يأخذ الصالح بالطالح.

وللصوفية أيضاً فضل كبير في انتشار الإسلام في إفريقية والهند وغيرهما من الأرجاء من غير حرب ولا سلاح.

يقول الدكتور أحمد شلبي: «وأشهر الطرق الصوفية التي نشرت الإسلام بإفريقية ثلاثة هي: القادرية والتيجانية والسنوسية.. وإذا كان التجار ينزلون المدن فإن رجال الطرق الصوفية يميلون للقرى والنجوع، وإذا كان التجار يسعون للربح فرجال الطرق الصوفية لا يكترثون بالمال ولا يسعون إلا للكفاف»[1] كما كان للصوفية اليد الطولى في إسلام قبائل المغول والتتار، ويكفيهم هذا شرفاً وفخراً.

أما في الهند فقد ذكر أبو الحسن الندوي حفظه الله تعالى

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي جـ ٦ ص ٢١٠.

نماذج كثيرة من الخدمات التي قدمتها الصوفية للإسلام في الهند، في كتابيه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» و«ربانية لا رهبانية» نجتزىء منها باختصار ما يلي: «الشيخ محمد معصوم ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي بايعه وتاب على يده تسعمائة ألف من الرجال، أحمد الشهيد ما كان يمرُّ ببلدة إلا ويتوب على يديه ويبايعه عدد كبير من الناس، وأقام في كلكته شهرين كان لا يقل من يدخل في بيعته يومياً عن ألف نسمة، وتعطلت تجارة الخمور فيها حتى لم يعد تجارها يستطيعون دفع الضرائب التي عليهم للحكومة. وعندما مر السلطان تغلق بزاوية الشيخ قطب الدين منور قدم له مائة ألف قطعة ذهبية، فقال الشيخ: سبحان الله، تكفيني أقتان من أرز وسمن بفلس واحد، فماذا أفعل بهذه الآلاف من الروبيات، وزار الحاكم الإنكليزي الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي وقال له: إذا قبلتم عينّا لكم مرتباً من الحكومة، فقال له الشيخ: ما أصنع بمالكم، إنني أملك من فضل الله سريراً وإبريقين من الفخار وجرتين للماء، ويأتي بعض أصحابنا بالذرة فنصنع منها الخبز، وتطبخ زوجتي شيئاً من الخضروات نأكل بها الخبز وفي ذلك كفاية، وكانت المدارس تبنى إلى جنب الزوايا في كل مكان في الهند، كالمدرسة والزاوية الرشيدية في جونبور ومدرسة وزاوية الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم في دهلي ومدرسة وزاوية الشيخ رشيد أحمد في كنكوه إلخ...

وأخيراً أحب أن أذكر مثالين من تمسُّك الصوفية بالسنة النبوية المطهرة، وبتعاليم الإسلام: أولهما ذكره الأستاذ أبو الحسن

الندوي في كتابه «ربانية لا رهبانية»[1] عند وصفه لوفاة الشيخ فضل الرحمن الكنج مرادآبادي سنة ١٣١٣ هـ رحمه الله تعالى، قال: «رأى بعض أصحابه أن يغيروا سرواله بإزار، وكان الشيخ في سكرات الموت، فأخذ بعضهم السروال لينزعه من رجله اليمنى، فقبض رجله حالاً ومدَّ لهم رجله اليسرى، ففهموا الإشارة، فمن السنة أن يبدأ اللبس باليمنى، والنزع باليسرى». فمن يفعل غير الصوفي ذلك!!.

والمثال الثاني شاهدته بنفسي: كنت موظفاً في المستشفى الوطني في مدينة حماه، وكانت سيارة دائرة الصحة تأتي كل صباح لتحملني مع باقي الأطباء إلى المستشفى، وفي أحد الأيام، ونحن ذاهبون إلى المستشفى بالسيارة رأيت الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى يسير في اتجاه سيرنا نفسه، فطلبت من سائق السيارة أن يقف لنأخذ الشيخ معنا، فوقف، وفتحت باب السيارة وقلت للشيخ رحمه الله تعالى: تفضل يا أستاذ لنأخذك معنا فنحن نسير في اتجاه سيرك نفسه، فقال: هل السيارة لك؟ قلت: لا، إنها لدائرة الصحة، قال: إذن لا أركب معكم، قلت: لماذا، إننا سائرون في اتجاه سيرك نفسه. قال: أليس لي وزن، وإن وزني سيجعل السيارة تصرف كمية أكبر من البنزين، لذلك فلا أستطيع أن أركب معكم، وشكرنا وسار في طريقه. فهل يفعل هذا غير الصوفي؟!

النتيجة:

أشعر بأنني أكثرت الكلام في التصوف وذلك لما أرى من هجومٍ عليه بغير وجه حق، وهكذا نحن العرب إما أن نحب إلى

---

(١) ص ١٦٠.

أقصى الحدود أو أن نكره إلى أقصى الحدود، مع أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما». رواه الترمذي والبيهقي والبخاري في تاريخه[1].

لا ريب أنَّ بعض الصوفية قد دخلت عليهم بعض الشوائب والمخالفات، وبخاصة بعدما تسربت الفلسفة اليونانية والهندية إلى الثقافة الإسلامية، حتى أدى الأمر ببعضهم إلى الخروج من الملة والدين. فأسقط بعضهم الفرائض، وأحلَّ بعضهم الآخر المحرمات، واعتقد آخرون بالحلول. وهذا كله لا يتأتى إلا من امرىء جاهل بالدين أو من امرىء سيء النية يريد أن يهدم الدين ثم حلت عصور الجهل والظلام وكثرت الشعوذات ابتغاء ابتزاز المال. وهذا كلُّه ليس من التصوف الأصيل في شيء، بل هو شيء طارىء دخيل لا يرضى به رجل عاقل عنده ذرة من دين. وقد وضع أعلام الصوفية الأوائل الميزان لتصوفهم فقالوا جميعهم: «إنَّ أمرنا هذا محكوم بالكتاب والسنة، وإنَّ الفقه هو الحاكم على التصوف وليس العكس»، وهم بذلك يشبهون قول كل واحد من أصحاب المذاهب الأربعة: إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي، وما دام الأمر كذلك فكل شيء دخيل على التصوف ولا يوافق الكتاب والسنة فليس منه وهو غير مقبول.

أما أن نهدم التصوف من أساسه بعد ما رأينا ما قدَّمه للإسلام

---

(١) جامع الأصول: جـ ٦ ص ٥٤٩ رقم ٤٧٧٥.

وللمجتمع الإسلامي فهو الظلم والجهل بعينه، ونكون بذلك كمن عنده شجرة وارفة الظلال، طيبة الثمار، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ثم أصاب أحد أغصانها السوس وبدلاً من قطْع الغصن المصاب اجتثثنا الشجرة من جذورها، فوقع الضرر علينا وحدنا.

كم يستفيد مجتمعنا فيما لو اتبع كل فرد منا التصوف الأصيل، وقال صباح مساء: الله ناظري، الله شاهدي، الله مطلِّع عليَّ، ثم أصبح في قلب كل فردٍ منا رقيب من الله ملازم له ليل نهار يمنعه من ارتكاب المحرمات وإدمان المخدرات وشرب الخمور...

ألا نصل بذلك إلى تحقيق المجتمع الفاضل الذي كان في فجر الإسلام والذي يصبو إليه كل إنسان، ويوفر علينا ما نبذله من جهد ومال على أجهزة المكافحة وإلقاء الخطب والمواعظ وعقد الندوات، ويوفر على شعوبنا كثيراً من الآلام والأمراض.

والذين يهاجمون التصوف ويريدون أن يجتثوه من جذوره أذكرهم بقول الحطيئة:

أقلوا عليهم لا أباً لأبيكم
من اللوم أو سدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا

كما أذكرهم بأن ابن تيمية رحمه الله تعالى كان كلما ذكر مشايخ الصوفية الأوائل أمثال الجنيد وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي والداراني وعبد القادر الجيلاني... قال: رضي الله عنهم وقدس الله روحهم.

وأما الذين أدخلوا على التصوف ما أدخلوا من شوائب وبدع ومخالفات، فهم ليسوا حجة على التصوف، وليسوا حجة على الحق، بل الحق حجة عليهم، والكتاب والسنة هما الحق، كما صرح بذلك كبار مشايخ التصوف.

والآن، بعد أن انتهينا من التعرف على العوامل التي أدت إلى نجاح الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في مهمته الإصلاحية، وهي عوامل خلقية وسلوكية، بالإضافة إلى الأحوال التي كانت سائدة في عصره من ثقافية واجتماعية وتاريخية، والتي سبق شرحها، نتابع السير مع الشيخ رحمه الله تعالى في مرحلة الإرشاد والإصلاح، مرحلة التمكين وتربية المريدين.



البَابُ الرَّابِع

مَرْحَلَةُ التَّمْكِيْنِ وَتَربِيَةُ المُرِيْدِيْن

رأينا كيف أن الشيخ عبدالقادر رحمه الله تعالى قد تتلمذ على القاضي أبي سعيد (أو أبي سعد) المبارك بن علي المخرمي الذي كانت له مدرسة خاصة في باب الأَزج من بغداد، وأن الشيخ قد جلس لـلدرس فيها منذ سنة ٥٢١ هـ، وبعد وفاة القاضي المخرمي، فوض تلاميذه مدرسته إلى الشيخ عبد القادر، وأقبل الناس على درس الشيخ حتى ضاقت بهم المدرسة، فاشتراها الأَغنياء من تلاميذه وهدموها وأعادوا بناءها بعد أن وسعـوها، بأموال الأَغنياء وعمل الفقراء حتى إن امرأة فقيرة جاءت بزوجها إلى الشيخ وقالت له: هذا زوجي لي عليه من مهري عشرون ديناراً ذهباً، وقد وهبت له نصفه بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي، فقبل الزوج. أي أنها أعفت زوجها من المهر كله إذا هو عمل في المدرسة بما يعادل عشرة دنانير، فكان الشيخ رحمه الله تعالى يشغله في المدرسة ويعطيه يوماً أجرته ويوماً لا يعطيه، لعلمه بأنه فقير محتاج إلى أن عمل بخمسة دنانير فقط

فأعفاه من الباقي وقال له: أنت في حل من الباقي[1].

وقد اكتمل بناء المدرسة في سنة ٥٢٨ هـ، فقسمها الشيخ إلى مدرسة يدرس فيها التلاميذ، يتلقون الدروس منه في شتى العلوم، وإلى رباط، يعيش فيه المريدون، ينامون ويأكلون ويتربون تربية روحية وخلقية على يديه وبإرشاداته، ثم يتفرقون في البلاد يدعون الناس إلى ما دعاهم الشيخ إليه ويرشدونهم إلى ما أرشدهم الشيخ إليه وهكذا انتشرت طريقته في الآفاق. وقد ازدحم الناس عليه، لأن كلامه ومواعظه كانت تنفذ إلى قلوبهم وأرواحهم وعقولهم، فتفعل فعلها فيهم، فقد كانت تخرج من قلب عالم مخلص عامل، لذلك كثيراً ما كانت تُذرف في مجلسه الدموع، ويرتفع فيها صوت البكاء والنحيب. وكان يحضر مجلسه نحو سبعين ألف إنسان، ويبلغ عدد المحابر أحياناً أربعمائة محبرة. كما كان يكثر في مجلسه التائبون من العصاة حتى بلغ عددهم مائة ألف تائب، والمسلمون من الكفار حتى أسلم على يديه خمسة آلاف مشرك وكافر[2]. وكان الناس يجيئون إلى مجلسه في الليل على ضوء الشموع والمشاعل وعلى ظهور الخيل والبغال والحمير والجمال[3]. وأصبحت مدرسته تدعى بمدرسة الشيخ عبد القادر، منذ سنة ٥٢٨ هـ، ولا تزال باقية حتى الآن حيث تضم، اليوم، مسجداً ومكتبة وتكية وغرفاً يأوي إليها الفقراء وأبناء السبيل.

---

(١) قلائد الجواهر ص ٥.

(٢) قلائد الجواهر ص ١٩.

(٣) المصدر السابق ١٣.

الفَصل الأول

عُلومُه ودُروسُه

رأينا أن الشيخ رحمه الله قد درس القرآن وتفسيره كما درس الفقه مذهباً وخلافاً وفروعاً وأصولاً، وقرأ الأدب والبلاغة وسمع الحديث ورواه وأخذ علم الطريقة وتأدب به، كل ذلك على أعلام عصره من العلماء والفقهاء والمحدثين والمتصوفة أمثال أبي الوفاء علي بن عقيل، والقاضي أبي سعد المبارك بن علي المخرمي، وأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، وأبي غالب محمد بن الحسن الباقلاني، وأبي جعفر السراج، وحماد الدباس وغيرهم، حتى قال عنه الحافظ عماد الدين بن كثير: «دخل بغداد فسمع الحديث واشتغل به حتى برع فيه، وكان له اليد الطولى في الحديث والفقه والوعظ وعلوم الحقائق.. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر»[1].

فلا عجب بعد ذلك أن كثرت علومه وتنوعت دروسه. حتى قال ابن رجب عنه في ذيل طبقات الحنابلة: «كان يتكلم في ثلاثة عشر علماً، كانوا يقرءون عليه درساً في التفسير ودرساً في الحديث ودرساً في المذهب، وكان يفتي على مذهبي الشافعي وأحمد بن حنبل، ودرساً في الخلاف، ودرساً في الأصول، وفي النحو،

(١) قلائد الجواهر ص ٨.

وكان يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر»[1].

وقال محمد بن الحسيني الموصلي «سمعت أبي يقول كان سيدنا الشيخ عبد القادر يتكلم في ثلاثة عشر علماً، وكان يذكر في مدرسته درساً في المذهب ودرساً في الخلاف، وكان يقرأ طرفي النهار، التفسير وعلوم الحديث والأصول والنحو، ويقرأ القرآن العزيز بالقراءات بعد الظهر. وقال عمر البزاز كانت الفتاوى تأتي سيدي الشيخ عبد القادر من بلاد العراق وغيره، فلا تبيت عنده فتوى، وكان يفتي على مذهب الإمامين الشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما، وكانت تعرض فتاواه على علماء العراق فيعجبون منها. قال ابنه الشيخ عبد الرزاق: جاءت فتوى من بلاد العجم إلى بغداد بعد أن عرضت على علماء العراق فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شاف، وصورتها: ما يقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بد له أن يعبد الله عز وجل عبادة يتفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة؟ فأُتي بها إلى والدي فكتب على الفور: يأتي مكة المكرمة ويُخلى له المطاف ويطوف أسبوعاً وتنحل يمينه؛ فما بات المستفتي ببغداد تلك الليلة وتوجه إلى مكة شرفها الله تعالى»[2].

«وقال الحافظ أبو العباس أحمد البندنيجي حضرت أنا والشيخ جمال الدين بن الجوزي رحمه الله تعالى مجلس سيدنا الشيخ

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي ص ٢٥٨.

(٢) قلائد الجواهر ص ٣٨.

عبد القادر رحمة الله عليه فقرأ القارىء آية فذكر الشيخ في تفسيرها وجهاً فقلت للشيخ جمال الدين: تعلم هذا الوجه؟ قال: نعم. ثم ذكر وجهاً آخر، فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال: نعم. فذكر الشيخ فيها أحد عشر وجهاً. وأنا أقول له: أتعلم هذا الوجه؟ وهو يقول: نعم. ثم ذكر الشيخ فيها وجهاً آخر، فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال: لا. حتى ذكر فيها كمال الأربعين وجهاً يعزو كل وجه إلى قائله، والشيخ جمال الدين يقول: لا أعرف هذا الوجه، واشتد عجبه من سعة علم سيدنا الشيخ رضي الله عنه. ثم قال الشيخ: نترك القال ونرجع إلى الحال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاضطرب الناس اضطراباً شديداً وخرق الشيخ جمال الدين بن الجوزي ثيابه»[1].

وكان يحضر مجالس الشيخ كبار علماء العراق ومشايخه كعلي بن الهيتي وبقا بن بطو وموسى بن ماهين (أو ماهان) وأبي النجيب السهروردي وابن أخيه شهاب الدين السهروردي وعثمان القرشي وأبي عبدالله محمد القزويني وعثمان البطائحي وقضيب البان، وأحمد القزويني، وعبد القادر البغدادي والقاضي أبي يعلى الفراء وأبي القاسم البزار وأبي بكر المزين[2] وكثير غيرهم.

وكان للمدرسة مشايخ من تلاميذه يشرفون عليها منهم أحمد بن المبارك المرقعاتي، ومحمد بن الفتح الهروي، أما

---

(١) قلائد الجواهر ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢.

الرباط فكان يشرف عليه تلميذه الشيخ محمود بن عثمان بن مكارم النعال[1].

دروسه:

كان الشيخ يمضي أيامه في المدرسة، ويخرج يوم الجمعة إلى المسجد، وكان يلقي درساً عاماً في الوعظ والإرشاد، صباح الجمعة ومساء الثلاثاء في المدرسة، وصباح الأحد في الرباط، واستمر على ذلك ثلاثاً وثلاثين سنة، من سنة ٥٢٨ هـ إلى سنة ٥٦١ هـ.

وكان يفد إلى مدرسته الفارون من الغزو الصليبي في الشام، فيتعلمون في مدرسته ويتربون في رباطه ثم يعودون إلى بلادهم دعاةً ومرشدين، ومن أشهرهم: ابن نجا الواعظ، مستشار صلاح الدين، والحافظ الرهاوي، وموفق الدين بن قدامة صاحب المغني، مستشار صلاح الدين أيضاً، وقريبه الحافظ عبد الغني. وكان يدرس في مدرسته، ويتخرج منها، ثلاثة آلاف طالب، في كل سنة[2]، أي تخرج منها نحو مائة ألف طالب في المدة التي أمضاها الشيخ رحمه الله تعالى في التدريس.

وكان يوضع للشيخ منصة عالية (منبر) ليجلس عليه عند إلقاء الدرس، وكان الناس جميعهم على كثرتهم، يسمعون صوته، البعيد منهم كالقريب.

---

(١) كتاب (هكذا ظهر جيل صلاح الدين) للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ص ٢٠٦.

(٢) عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني، النسخة الفرنسية ص ٧٧.

وكان يُدعى أحياناً لإلقاء الدرس في المدرسة النظامية في بغداد، التي أسسها نظام الملك في سنة ٤٥٧ هـ وزير السلطان السلجوقي ملك شاه، وبإلحاح من الجمهور ومن المسؤولين، كان يذهب إليها، وبسبب بعدها كان يمتطي بغلة له، عند الذهاب. وعند وصوله يتلقاه المشرفون عليها وتلامذتها وطلابها بالتقدير والاحترام[١]. وفي إحدى المرات، بينما كان يلقي درساً فيها عن القضاء والقدر، وأن ما قُدّر في علم الله تعالى فهو كائن لا محالة، لذلك جاء في الدعاء المأثور: «اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه»، وأثناء ذلك سقطت عليه حية كبيرة من السقف، كأن الله سبحانه وتعالى كان يريد أن يختبر صدقه ومدى إيمانه بما يقول، فهرب كل من كان في المجلس وبقي هو جالساً لم يتحرك منه عضو واحد، وعند ذلك تركته الحية جالساً في مكانه وخرجت من المجلس كما خرج الناس، وعندما سئل عن ذلك قال: وهل هي إلا دويبة يحركها القضاء والقدر[٢].

وهذه القصة تذكرني بقصة مماثلة وقعت للوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة، وزير المقتفي لأمر الله وابنه المستنجد بالله (وهو من معاصري الشيخ عبد القادر توفي في سنة ٥٦٠ هـ) جاء في مقدمة كتابه (الإفصاح عن معاني الصحاح): «وحضر يوماً في دار الخلافة بالمرخّم من التاج، فجلس به وحضر أرباب الدولة للصلاة على جنازة الأمير

(١) عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني، ص ٦٦.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ١٢٦ وقلائد الجواهر ص ٣٤.

إسماعيل بن المستظهر، فسقط من السقف أفعى عظيمة المقدار على كتف الوزير، فما بقي أحد من أرباب الدولة وحواشي الخدمة إلا خرج أو قام عن موضعه إلا الوزير، فإنه التفت إلى الأفعى وهي تسرح على كمه حتى وقعت على الأرض وبادرها المماليك فقتلوها، ولم يتحول الوزير عن بقعته ولا تغير في هيئته ولا عبارته»[1].

كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يدرّس، هو ومن يساعده من المشايخ، لطلاب مدرسته علوماً شتى، قد تصل إلى ثلاثة عشر علماً، كما ذكرنا سابقاً، وكان يقرأ لطلابه، من كتابه (الغنية لطالبي الحق) في فقه العبادات وعقيدة أهل السنة والجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يلقي عليهم دروساً في التفسير، والقراءات والحديث والخلاف والأصول والنحو والأدب إلخ... ويخصص لهم دروساً في الوعظ والإرشاد، وينهاهم عن الفلسفة وعلم الكلام، ويحثهم على الجمع بين الفقه والتصوف السني، على أن يكون الفقه حاكماً على التصوف، فكثيراً ما كان يقول في دروسه: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة»[2].

وكان ينتقد في دروسه خصومات العلماء واختلافاتهم كما ينتقد ظلم الحكام وجورهم وبخل الأغنياء وتبذيرهم، فيقول: «يا

---

(١) كتاب الإفصاح لابن هبيرة، جـ ١ ص ٢٠.

(٢) الفتح الرباني: المجلس ٤٤.

خونة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حُطَامَ الدنيا وشهواتها ولذاتها. أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمن ظلمة وخونة في مال الله عز وجل في عباده. اللهم اكسر شوكة المنافقين واخذلهم أو تبْ عليهم، واقمع الظلمة وطهر الأرض منهم أو أصلحهم. أمين»[1].

وكان يحارب الفرق الضالة، في دروسه، ويحاول أن يوفق بين مذاهب أهل السنة والجماعة، فكان يفتي على المذهبين الشافعي والحنبلي، ولا يتحرج من ذلك، حتى قال عنه الإمام النووي: «إنه كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة».

وكان رحمه الله تعالى يبدأ دروسه بالبسملة والحمدلة وينهيها بالآية الكريمة: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

ومن مواعظه في دروسه رحمه الله تعالى: «يا غلام، قصِّر أملك، وقلِّلْ حرصك، صلِّ صلاةَ مودِّع، لا ينبغي لمؤمن أن ينام إلا ووصيته مكتوبة تحت رأسه، فإن أيقظه الحق عز وجل في عافية كان مباركاً، وإلا فيجد أهله وصيته ينتفعون بها بعد موته ويترحمون عليه. ليكن أكلك أكل مودع، ووجودك بين أهلك وجود مودع، ولقاؤك لإخوانك لقاء مودع. أوجدْ في قلبك: أنا مودع. كيف لا يكون كذلك مَنْ أمره في يد غيره... الزم ما جاء

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٥١.

به الرسول ﷺ، وهو الكتاب والسنة، فإن من تركهما تزندق، ومن ربقة الإسلام مَرَق... العبادةُ ترك العادة، أَبْطلوا التعلُّق بالدنيا والآخرة والخلق وتعلقوا بالحق عز وجل، لا تبهرجوا فإن الناقد بصير. اتقوا الشِّرك في الأَصل، والمعاصي في الفرع، ثم تعلقوا بحبلَيْ الكتاب والسنة ولا تخلوهما من أيديكم»(١).

وهذا مثال من تفسيره للقرآن الكريم: «تفسير بسم الله الرحمن الرحيم: قال أبو بكر الورّاق: بسم الله روضة من رياض الجنة؛ لكل حرف منها تفسير على حدة: فالباء على ستة أوجه: بارىء خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: (هو الخالق البارىء)، بصير بخلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿والله بصيرٌ بما تعملون﴾. باسط رزقه من العرش إلى الثرى. بيانه: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾، باقٍ بعد فناء خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿كل مَنْ عليها فان، ويَبْقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾، باعث الخلق بعد الموت من العرش إلى الثرى للثواب والعقاب بيانه: ﴿وأنَّ الله يبعث من في القبور﴾، بارّ بالمؤمنين من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿هو البر الرحيم﴾...

.. الرحمن الرحيم: قيل: هما بمعنى واحد، وهو ذو الرحمة، وهما من صفات الذات. وقيل: هما بمعنى ترك عقوبة من يستحق العقوبة، وإسداء الخير إلى من لا يستحقه، وهما من صفات الفعل، وقال بعضهم: الرحمن: للمبالغة فمعناه الذي

(١) الفتح الرباني: المجلس ٦٢ ص ٢٨٦ وما بعدها.

وسعت رحمته كل شيء، والرحيم دون ذلك في الرتبة. وقال آخرون: الرحمن، العاطف على خلقه جميعهم مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم بأن خلقهم ورزقهم ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾، والرحيم: بالمؤمنين خاصة بالهداية والتوفيق في الدنيا وبالجنة والرؤية في الآخرة ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾. فالرحمن خاص اللفظ عام المعنى، والرحيم عام اللفظ خاص المعنى. الرحمن خاص من حيث إنه لا يجوز أن يسمى به أحد غير الله تعالى، عام من حيث إنه يشمل جميع الموجودات من طريق الخلق والرزق والنفع والدفع. والرحيم عام من حيث اشتراك المخلوقين في التسمي به، خاص من طريق المعنى لأنه يرجع إلى اللطف والتوفيق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اسمان دقيقان، أحدهما أدق من الآخر...»[1].

(١) الغنية جـ ١ ص ١١٢.

الفَصل الثاني
عَقِيدَتُهُ

عقيدة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى هي الاتباع بدون ابتداع، والتقيُّد بالكتاب والسنة في كل حال. وكان يكثر من ذكر ذلك في مجالسه ودروسه، وفي خطبة ومواعظه، وفي كتبه ووصاياه. «كان يقول لأصحابه: اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، وانتظروا ولا تيأسوا»[1].

ويقول: «يا غلام، صحبتك للأشرار توقعك في سوء الظن بالأخيار، امش تحت كل كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وقد أفلحت»[2]. «عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح. امشوا في الجادة المستقيمة، لا تشبيه ولا تعطيل، بل اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ من غير تكلف ولا تطبع ولا تشدُّد ولا تمشْدُق ولا تمعقل، يسعكم ما وسع من كان قبلكم. ويحك، تحفظ القرآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رسول الله ﷺ ولا تعمل بها، لأي شيء تفعل ذلك! تأمر الناس وأنت لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي»[3].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ص ١٢٩.

(٢) الفتح الرباني: المجلس ٤.

(٣) المصدر السابق المجلس ١٠.

«لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة، اتبع الشيوخَ العلماءَ بالكتاب والسنة العاملين بهما، أو حسِّن الظن بهم، وتعلَّم منهم وأحسن الأَدب بين أيديهم والعشرة معهم، وقد أفلحت، إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح أبداً. أما سمعت: من استغنى برأيه ضل»[1].

«لا تبتدع وتحدث في دين الله عز وجل شيئاً لم يكن، اتبع الشاهِدَيْن العَدْلين الكتاب والسنة فإنهما يوصلانك إلى ربك عز وجل، وأما إن كنت مبتدعاً فشاهداك عقلك وهواك، فلا جرم يوصلانك إلى النار ويلحقانك بفرعون وهامان وجنودهما، لا تحتج بالقدر فلا يقبل منك: لا بد لك من الدخول إلى دار العلم والتعلُّم ثم العمل ثم الإِخلاص»[2].

«إذا وقع، عندك، حب رجل وبغض آخر فلا تحب هذا وتبغض هذا بنفسك وبطبعك، بل حكِّمهما كليهما على الكتاب والسنة فإنْ وافقا الذي أحببته فدم على محبته، وإن خالفا فارجع عن محبته؛ وإن وافقا الذي أبغضته فارجع عن بغضه، وإن خالفا فدم على بغضه، وإن لم ينفعك ذلك ولم يبن لك فارجع إلى قلوب الصديقين وسلهم عنهما؛ فالمؤمن له نور ينظر به»[3].

«هذا القرآن والعلم حجة عليكم إذا لم تعملوا بهما، إذا حضرتم عند العلماء ولم تقبلوا ما يقولون لكم كان حضوركم

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٣٩.

(٢) المصدر السابق: المجلس ٤٧.

(٣) المصدر السابق: المجلس ٥٩.

عندهم حجة عليكم، ويكـون عليكم إثم ذلك كمـا لو لقيتم الرسول ﷺ ولم تقبلوا منه»[١].

«وقال الشيخ القدوة شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي: سمعت الشيخ محيـي الدين عبد القادر يقول على الكرسي بمدرسته: كل وليّ على قدم نبيّ وأنا على قدم جدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما رفع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قدماً إلا وضعت قدمي في الموضع الذي رفع قدمه منه إلا أن قدماً من أقدام النبوة فإنه لا سبيل أن يناله غير نبي»[٢].

التـوحيد:

كان الشيخ عبد القادر موحِّداً مخلصاً في أقواله وأفعاله كلها، وكان يقول: «الدواء في توحيد الله عز وجل بالقلب لا باللسان فحسب»[٣]. «أساس الأمر الإسلام ثم الإيمان ثم العمل بكتاب الله عز وجل وشريعة رسوله ﷺ ثم الإخلاص في العمل مع توحيد القلب عند كمال الإيمان، المؤمن يفنى عن كل ما سوى الحق عز وجل»[٤].

«تترقى درجة العبد من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٥.

(٢) الفيوضات الربانية لإسماعيل بن محمد القادري ص ٧٠.

(٣) الفتح الرباني: المجلس ١٣.

(٤) المصدر السابق: المجلس ٢٢.

الإيقان، ومن الإيقان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى العلم، ومن العلم إلى المحبة، ومن المحبة إلى المحبوبية، من طلبه إلى مطلوبيته، فحينئذ إذا غفل أوقظ، وإذا نسي ذُكر، وإذا نام نُبه، فلا يزال أبداً مستيقظاً صافياً لأنه قد صفت آنية قلبه يرى من ظاهرها باطنها، ورث اليقظة من نبيه ﷺ، كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان يرى من وراءه كما يرى من أمامه، كل أحد يقظته على قدر حاله»[1].

«وحّدوا الحق عز وجل وعن بابه فلا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[2].

«الموحِّدون الصالحون حجة الله على بقية الخلق.. الشجاع من طهر قلبه مما سوى الله عز وجل.. الشرع يهذب الظاهر. والتوحيد والمعرفة يهذبان الباطن»[3].

«تفنى عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك، فلا يكون في باطنك غير توحيد الله تعالى، وفي ظاهرك غير طاعة الله تعالى وعبادته مما أمر ونهى..»[4].

ومن وصيته لابنه عبد الوهاب رحمه الله تعالى: «عليك بتقوى

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٤٥.

(٢) المصدر السابق: المجلس ٤٧.

(٣) المصدر السابق: المجلس ١٣.

(٤) فتوح الغيب: المقالة ٦٠.

الله تعالى وطاعته، لا تخف أحداً ولا ترجه، وكِل الحوائج كلها إلى الله عز وجل واطلبها منه، لا تثق بأحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، التوحيدَ، التوحيدَ، التوحيدَ، جماع الكل التوحيد»[1].

وقال في الاستدلال على وحدانية الله تعالى: «أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه، ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها لأنَّ فيها دلالةً على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم. فإنَّ الأشياء كلها موجودة به، وفي معناه ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في الأرض جميعاً منه﴾ فقال: في كل شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله، باطنٌ بقدرته، وظاهرٌ بحكمته، ظهر بصفاته وبطن بذاته، حَجَبَ الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، وكَشَفَ العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع والصنيعة، وأظهر الصنعة بالإرادة، فهو باطنٌ في غيبه وظاهر في حكمته وقدرته ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[2].

ويقول رحمه الله تعالى: «الله سبحانه وتعالى واحدٌ فردٌ صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، لا شبيهَ له ولا نظير، ولا عون ولا شريك، ولا ظهير ولا وزير. ليس بجسم فيمس، ولا

---

(1) الفتح الرباني ص ٣٧٣.

(2) فتوح الغيب: المقالة ٧٤.

بجوهر فيحس، ولا عرض فيقضي، ولا ذي تركيب وتأليف. . . . فردٌ معبود، حيٌّ لا يموت، أزلي لا يفوت، أبدي الملكوت، سرمدي الجبروت. . . محيط علمه بالأشياء ﴿إليه يَصْعَدُ الكِلَمُ الطيِّبُ والعملُ الصالحُ يرفَعُهُ﴾ خلق الخلق وأفعالهم، وقدَّر أرزاقهم وآجالهم. . . وأنه تعالى حي بحياة وعالم بعلم، وقادر بقدرة، ومريدٌ بإرادة، وسميع بسمع، وبصير ببصر، ومدركٌ بإدراكٌ، ومتكلمٌ بكلام، وآمرٌ بأمر، وناهٍ بنهي. . . »[1].

مسألة الصفات:

قال ابن رجب في طبقات الحنابلة: «إنَّ الشيخ عبد القادر كان متمسكاً في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة مبالغاً في الرد على من خالفها»[2].

وكان رحمه الله تعالى يقول: «لا تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم»، وبذلك نفى التجسيم الذي اتهم به بعض علماء الحنابلة. والذي كان السبب في انفضاض الناس من حولهم. وبذلك أحيا المذهب الحنبلي من جديد، وأعاد إليه رواءه القديم.

وكان يقول رحمه الله تعالى: «ينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما

---

(١) الغنية: جـ ١ ص ٥٤.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة تحت رقم ١٣٤.

قالت المعتزلة، لأنَّ الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ذلك، بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق. وقد روي عن أم مسلمة زوج النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرارُ به واجب، والجحود به كفر. وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في صحيحه، وقال أحمد بن حنبل قبل موته بقريب: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل... فلا يقال في صفات الرب عز وجل: كيف، ولِمَ؛ لا يقول ذلك إلا شكّاك»[1].

القضاء والقدر:

الرضا بالقضاء والقدر خيره وشره من أركان الإيمان، لذلك كان يحث الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى أصحابه على الرضا بالقضاء والقدر، بعد استنفاد السعي وبذل الجهد، وكان يقول: «لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به»[2].

وكان يقول عن نفسه وتسليم أموره كلها إلى الله عز وجل: «إنه كالطفل الرضيع في يد الظئر، والميت الغسيل في يد الغاسل، والكرة في صولجان الفارس.. لا يرى غير مولاه، ولا

---

(١) الغنية: جـ ١ ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) فتوح الغيب: المقالة الأولى.

يسمع ولا يعقل إلا منه، بنعمته تنعّم وبقربه سعد، وبوعده طاب وسكن، وبحديثه أنس، وإلى ذكره التجأ وركن، وبه عز وجل وثق، وعليه توكل، وبنور معرفته اهتدى»[1].

ويقول: «ينبغي الإيمان بخير القدر وشره وحلو القضاء ومره، وأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر، وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب؛ قال تعالى: ﴿وإنْ يمسسك الله بضر فلا كاشفَ له إلا هو، وإن يردك بخيرٍ فلا رادَّ لفضله، يصيب به من يشاء من عباده﴾[2].

وقال رحمه الله تعالى: «لا تقف مع المكتوب عليك، فإن الذي كتبه هو القادر على محوه ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾[3] ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾[4]، كن أبداً على قدم الطاعة والخوف والوجل والحذر إلى أن يأتيك الموت وتعبر من الدنيا إلى الآخرة على قدم السلامة، فحينئذ تأمن من التغيير والتبديل»[5].

ولا تعارض بين هذين القولين للشيخ رحمه الله تعالى، فالشيء المقدّر في علم الله تعالى الأزلي، لا يمحى أبداً، ولا بد

---

(١) فتوح الغيب: المقالة الثالثة.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٧: الغنية جـ ١ ص ٦٥.

(٣) سورة الرعد، الآية ٣٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٢٣.

(٥) الفتح الرباني: المجلس ٥٢.

من حصوله لا محالة، ولكن بما أن هذا الأمر مغيَّبٌ عنا، ولا يصل إليه علمنا. فينبغي علينا أن نجدّ ونسعى ولا نعجز، كما أنَّ الله سبحانه وتعالى يمحو ما يشاء مما هو مكتوب في صحف الملائكة، ولولا ذلك لما كان ثمة فائدة للدعاء والتضرُّع.

«وقد سئل الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى عن قول الشيخ عبد القادر: «نازعت أقدار الحق بالحق للحق». فأجاب: جميعُ الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره، وقد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان، ونزيل الكفر بالإيمان والبدعة بالسنة، والمعصية بالطاعة، فكل من كفر أو فسق أو عصى، وإن كان ذلك بقدر الله، فعليه أن يتوب.. وليس للإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلاً على القدر، بل يفعل ما أمر الله ورسوله، كما روى مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» كما قال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «إنَّ الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض». وكل هذا من باب دفع ما قُدّر من الشر بما قُدّر من الخير، فالذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله. فالله سبحانه لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان. والنبيُّ ﷺ قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف

الإيمان»[1] والله سبحانه قال: ﴿والله لا يحب الفساد﴾ ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ فيكون ما يقدّر من الشر إذا نازعه ودافعه كما أمره الله ورسله سبباً لما يحصل له من البر والتقوى والخير والثواب والله أعلم». انتهى[2].

التوكل والعمل:

عقيدة أهل السنة والجماعة هي: اعقل وتوكل، اعمل وتوكل على الله سبحانه وتعالى. لذلك كان الشيخ عبد القـادر رحمه الله تعالى متوكلاً على الله سبحانه وتعالى في أحواله وأفعاله جميعها مع السعي وبـذل الجهـد، وكـان ينعـى على الكسالـى والمتـواكلين، ويحثهم على السعي والعمل، فكلٌ ميسر لما خلق له. وقد عرّف الجرجاني التوكل بقوله: «هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس».

يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «عليك بالكسب والتعلق بالسبب إلى أن يقوى إيمانك، ثم انتقل من السبب إلى المسبِّب، الأنبيـاء عليهم السـلام اكتسبـوا واقتـرضـوا وتعلقـوا بالأسباب في أول أمرهم، وفي الآخر توكلوا، جمعوا بين الكسب والتوكل بداية ونهاية، شريعة وحقيقة»[3].

ويحث على الكسب والعمل فيقول: «اعبدوا الله عز وجل، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال، إنَّ الله عز وجل يحب عبداً

---

(١) رواه مسلم (رياض الصالحين رقم ١٨٤).

(٢) كتاب القدر لابن تيمية جـ ٨ ص ٥٤٧ (من الفتاوى).

(٣) الفتح الرباني: المجلس ٢٨.

مؤمناً مطيعاً آكلاً حلاله، يحبُّ من يأكل ويعمل ويبغض من يأكل ولا يعمل، يحب من يأكل بكسبه ويبغض من يأكل بنفاقه وتوكله على الخلق»[1].

«أقول لكم اجتهدوا ودعوا التعلق بالسابقة، فهي حجة الكسالى، إننا نشد الأوساط ونجتهد ونعمل ولا نقول: قال وقلنا، ولم وكيف، لا ندخل في علم الله عز وجل، نحن نجتهد وهو يفعل ما يشاء»[2].

«جاهدْ في طريق الحق عز وجل ولا تتكل على قدره، أما سمعته كيف قال: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[3].

ويقول: «ما دمت قائماً مع الخلق راجياً لعطاياهم وفضلهم، سائلاً لهم، متردداً إلى أبوابهم، فأنت مشرك بالله وخلقه، فيعاقبك بحرمان الأكل بالسنة الذي هو الكسب من حلال الدنيا»[4].

وقال رحمه الله تعالى: «سألني رجل: أي شيء يقرب العبد إلى الله عز وجل، فقلت: لذلك ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الورع وانتهاؤه الرضا والتسليم والتوكل»[5].

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٤٦.

(٢) المصدر السابق: المجلس ٥٢.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٢. المصدر السابق: ص ٣٠٥.

(٤) فتوح الغيب: المقالة ١٦.

(٥) المصدر السابق: المقالة ٤٧.

الـورع:

كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى متعلقاً بأهداب الورع طوال حياته، وقد رأينا كيف كان يقوم الليل مصليّـاً، داعياً، متضرِّعاً، وكيف كان كلما انتقض وضوؤه جدده في الحال، وكيف كان يتورع عن قبول هدايا الخلفاء والأمراء وعطاياهم لما فيها من شبهة الاغتصاب والظلم والجور.

يقول علي بن محمد الجرجاني في تعريف الورع: «هـو اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات».

يقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إنَّ الحلال بيِّنٌ وإن الحرام بيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثيـر من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، إلا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]. متفق عليه.

ويقول أيضاً: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس»[2]. حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجه.

وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يأخذ بالعزيمة في

---

(١) جامع الأصول جـ ١٠ ص ١٧٩ رقم ٧٦٧٤.

(٢) جامع الأصول جـ ٤ ص ٦٨٢ رقم ٢٧٩١.

أحواله جميعها، ويكثر من النوافل في أوقاته كلها.

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى عن الورع: «هو إشارة إلى التوقف في كل شيء وترك الإقدام عليه إلا بإذن من الشرع، فإن وجد للشرع فيه فعلاً ولتناوله فيه مساغاً وإلا تركه، والورع على ثلاث درجات: ورع العوام وهو ورع عن الحرام والشبهة، وورع الخواص وهو ورع عن كل ما للنفس والهوى فيه شهوة (أي عن حظوظ النفس)، وورع خواص الخواص وهو ورع عن كل ما لهم فيه إرادة. والورع ورعان: ظاهر وهو أن لا يتحرك إلا بالله تعالى، وباطن وهو أن لا يدخل على قلبك سوى الله تعالى، ومن لم ينظر في دقائق الورع لم يحصل له نفائس العطاء. والزهد أول الورع كما أن القناعة طريق الرضا. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة»[1].

/ «ولا يتم الورع إلا أن يرىٰ عشرة أشياء فريضة على نفسه: أولها حفظ اللسان من الغيبة، والثاني: الاجتناب عن سوء الظن، والثالث: الاجتناب عن السخرية من الناس، والرابع: غض البصر عن المحارم، والخامس: صدق اللسان، والسادس: أن يعرف منّة الله تعالى عليه لكيلا يعجب بنفسه، والسابع: أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل، والثامن: أن لا يطلب لنفسه العلو والكبْر، والتاسع: المحافظة على الصلوات الخمس في مواقيتها،

(١) قلائد الجواهر ص ٦٤، والغنية ١ / ١٣٠.

والعاشر: الاستقامة على السنة والجماعة»[1].

«والذكر مفتاح التقوى والورع، والتقوى باب الآخرة، كما أن الهوى باب الدنيا، قال الله تعالى: ﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾[2].

«ومن أدب الفقير أن لا يترك الاحتياط في الورع في حال ضيق اليد، فلا يخرج إلى ما لا يحل في الشرع لفقره، فيخرج من العزيمة إلى الرخصة، فإنَّ الورع ملاك الدين والطمع هلاكه، وتناول الشبهات فساده، كما قال بعض الصالحين: من لم يصحبه الورع في فقره أكل الحرام وهو لا يدري»[3].

«وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: (كنا نترك سبعين باباً من المباح مخافة أن نقع في الجناح). وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: (كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام). وهكذا فالخطر في القيام مع الرخص. والسلامة كل السلامة مع العزيمة، والله الهادي إلى سواء الطريق»[4].

وقال الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «عليكم بالعزيمة والإعراض عن الرخصة، من لزم الرخصة وترك العزيمة خيف عليه

---

(١) الغنية ٢/ ١٣٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٦٣، الغنية جـ ١ ص ١٠١.

(٣) الغنية ٢/ ١٧٤.

(٤) فتوح الغيب: المقالة ٣٥.

من هلاك دينه؛ العزيمة للرجال لأنها الأشق والأمرّ، والرخصة للصبيان والنسوان لأنها الأسهل»[1].

«من ادعى حب الله عز وجل من غير ورع في خلوته فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير بذل المال والملك فهو كذاب، ومن ادعى حبَّ النبي ﷺ من غير حب الفقر والفقراء فهو كذاب، بعين الرأس تشاهد الدنيا، وبعين القلب تشاهد الآخرة، وبعين السر تشاهد المولى. تتأدب مع الخلق بحيث لا ترفع صوتك على صوت أحدهم حفظاً لأدبك وتبارز الحق عز وجل بالمعاصي وتعارضه في أفعاله، قبيح بك هذا»[2].

«إنَّ الله تعالى يأمرك أن تخرج من طبعك وتجعل مكانه رخص الشرع، ثم يأمرك أن تترك من الرخص شيئاً فشيئاً إلى أن تصير كل أفعالك عزيمة، فإذا صبرت على العزيمة جاء الحب لله عز وجل في قلبك، فإذا ثبت جاءت الولاية من الله عز وجل لك»[3].

وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، يعتبر النوافل، بالنسبة إليه كالفروض من حيث التزامه بأدائها ليكون من الذين يحبهم الله ويحبونه، لذلك فهو يقول: «المؤمن يتقرب إلى الله عز وجل بأداء الفرائض ويتحبب إليه بالنوافل، ولله عباد لا نوافل لهم بل يأتون بالفرائض ثم يفعلون النوافل، ويقولون هذه فرائض علينا

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٦١.

(٢) المصدر السابق: المجلس ٦٢ ص ٣٥٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٣٧.

لأجل إقدارنا عليها، اشتغالنا بالعبادة أبد الدهر فرض علينا»[1].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذه الصفة هي من أهم صفات الأنبياء والدعاة والمصلحين، وهي من ثمار العقيدة الإسلامية، وبدونها تفسد الأمة وينهار المجتمع. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، تأمرونَ بالمعروفِ وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[2].

ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[3].

ولقد كانت حياة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كلها أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر إلى أن لقي وجه ربه عز وجل. ففي خطبه ودروسه كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وفي كتبه ووصاياه كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وقد رأينا كيف خاطب الخليفة المقتفي لأمر الله، في خطبة الجمعة، عندما ولّى القضاء يحيى بن سعيد المعروف بابن المرجم، فقال له: ولّيْت قضاء المسلمين أظلم الظالمين فما جوابك غداً عند رب العالمين، فبادر الخليفة إلى عزله.

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٥٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

(٣) حديث حسن رواه الترمذي (رياض الصالحين رقم ١٩٣).

وكان ينعى على المستنجد بالله اغتصابه أموال المسلمين ولا يقبل هداياه، كما ينعى على الأغنياء شحهم وتبذيرهم في غير طاعة الله، وعلى علماء السوء نفاقهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل، واختلافهم فيما بينهم على حطام الدنيا، حتى فرقوا المسلمين وجعلوهم أحزاباً وشيعاً.

يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على كل مسلم حر مكلف عالم بذلك. بشرط القدرة على وجهٍ لا يؤدي إلى فساد عظيم وضرر في نفسه وماله وأهله. . ولا يجب على المنكِر كشف ما هو مستور، لأنَّ الله تعالى نهى عن ذلك فقال: ﴿ولا تجسسوا﴾ إنما الواجب عليه إنكار ما ظهر فقط. . . وهل يجوز الإنكار إذا غلب على ظنه الخوف على نفسه؟ عندنا يجوز ذلك، وهو الأفضل، إذا كان من أهل العزيمة والصبر، فهو كالجهاد في سبيل الله مع الكفار، وقد قال الله تعالى في قصة لقمان: ﴿وأْمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾. . .

والذي يؤمر به وينكر عليه على ضربين: فكل ما وافق الكتاب والسنة والعقل فهو معروف، وكل ما خالف فهو منكر، ثم ذلك ينقسم قسمين: أحدهما ظاهر يعرفه العوام والخواص، كوجوب الصلوات الخمس وصوم رمضان والزكاة والحج، وغير ذلك، وكتحريم الزنا وشرب الخمر والسرقة والربا والغصب وغير ذلك، فهذا القسم يجب إنكاره على العوام كما يجب إنكاره على الخواص من العلماء، والقسم الثاني: ما لا يعرفه إلا الخواص

مثل اعتقاده ما يجوز على الباري تعالى وما لا يجوز، فهذا يختص إنكاره بالعلماء. . . أما إذا كان الشيء مما اختلف الفقهاء فيه وساغ فيه الاجتهاد كتزوج امرأة بلا وليّ مثلاً، لم يكن لأحدٍ ممن هو على المذاهب الأخرى الإنكار عليه، لأنَّ الإمام أحمد قال في رواية المروزي: لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه، ولا يشدِّد عليهم»[1]. انتهى.

الجهاد:

يعرّف علي بن محمد الجرجاني الجهاد بقوله: «هو الدعاء إلى الدين الحق».

فالجهاد قد يكون بالحرب والقتال في سبيل الله تعالى، وقد يكون بالقول والكلام في سبيل الله تعالى أيضاً، وما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا نوع من الجهاد، وقبل هذا وذاك هناك جهاد النفس وإصلاحها وتزكيتها، لتكون أهلاً لجهاد غيرها من الكفار والضالين. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾[2]. وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: «قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله»[3].

لقد أمضى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى حياته كلها في

---

(١) الغنية ١ / ٥٠ وما بعدها.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٦.

(٣) متفق عليه (رياض الصالحين رقم ١٢٨٥).

مجاهدة نفسه أولاً، ثم في مجاهدة العصاة والضالين والفاسقين والكفار، بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر إليه يقول: «أراد الله عز وجل مني منفعة الخلق فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى وتاب على يديّ من العيارين والمسالحة أكثر من مائة ألف، وهذا خير كثير»[1].

وكان رحمه الله تعالى يقول كلمة الحق أمام الخلفاء والقواد، والأمراء، لا يخاف في الله لومة لائم. يقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[2].

وقد وجَّه الشيخ رحمه الله تعالى همه الأكبر إلى مجاهدة النفوس وإصلاحها وتزكيتها فهو الأساس لكل جهاد، وبدونه لا يمكن أن ينجح أي جهاد.

لقد كانت مدرسته وكان رباطه اللذان أنشأهما، أشبه ما يكون بمركز تدريب وإصلاح، يدرب فيهما الطلاب والمريدين، يزكي نفوسهم ويصلحها، وينشيء بينه وبينهم رباطاً دينياً روحياً عميقاً، ويجعل بينه وبينهم عهداً وميثاقاً متيناً، ثم يجيز كثيراً منهم ممن يرى فيهم النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية والإرشاد، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله تعالى ويربون النفوس ويحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق، وقد كان لخلفائه

(١) قلائد الجواهر ص ١٩.
(٢) رواه النسائي بإسناد صحيح.

وتلاميذه هؤلاء فضل كبير في المحافظة على روح الإسلام وشعلة الإيمان وحماسة الدعوة والجهاد. ولولاهم لابتلعت المادية هذه الأمة؛ وكان لهم أيضاً فضل كبير في نشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تصل إليها جيوش المسلمين كالهند وأندونيسيا والصين وإفريقيا وجزر المحيط الهندي، كما كان لهم اليد الطولى في إسلام قبائل المغول والتتار أيضاً[1] (انظر كتاب الدعوة إلى الإسلام Preaching of Islam لتوماس أرنولد الإنكليزي).

وتوثّقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين زنكي[2] رحمهما الله تعالى (حكم بين سنتي ٥٤١ و ٥٦٩ هـ) فكان نور الدين رحمه الله تعالى يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادةً ودعاةً ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية ويوليهم أعلى المناصب عنده، كقطب الدين النيسابوري وابن الشيخ أبي النجيب الأكبر، وشرف الدين عبد المؤمن بن شورده (كتاب الروضتين لأبي شامة ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي).

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن الندوي ص ٢٨٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ص ٢٤٠ وما بعدها.

كما أن حامد بن محمود الحراني أحد تلاميذ الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بعد أن أنهى دراسته في بغداد ذهب إلى دمشق فولّاه نور الدين القضاء والمظالم والتدريس في حران إلى أن توفي في سنة ٥٧٠ هـ.

ومن تلاميذه أيضاً علي بن برداون بن زيد الكندي الذي كان له حظوة كبيرة عند نور الدين رحمه الله تعالى[١].

ومنهم زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الذي درس في مدرسة الشيخ ببغداد ثم عاد إلى مصر ودمشق وأصبح مستشاراً لصلاح الدين رحمه الله تعالى، الذي كان يسميه عمرو بن العاص، وحينما فتح صلاح الدين رحمه الله تعالى القدس بعد معركة حطين في سنة ٥٨٣ هـ كان في ركبه ابن نجا وموفق الدين بن قدامة وأخوه محمد وابن الزكي الشافعي، وقد ألقى خطبة الجمعة يومذاك ابن الزكي الشافعي، وبعد الصلاة طلب صلاح الدين رحمه الله تعالى إلى ابن النجا القادري الحنبلي أن يفتتح الوعظ والكلام، فألقى خطبة خفّت بها الكروب ورقت القلوب وسالت الدموع[٢].

لقد كفى نور الدين ومن بعده صلاح الدين رحمهما الله تعالى، المسلمين في العراق، همَّ الصليبين في مصر والشام، ولكن النُذُر بدأت تأتي من الشرق، وأنَّ قوة عاتية ظالمة بدأت تلمُّ

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢: ٣١٣.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٢: ١٠٩.

شعثها وتتجمع لتنفجر كالبركان وتنقض كالإعصار فتخرب وتهلك في طريقها كل شيء. وقد ألهم الله سبحانه وتعالى الشيخ عبد القادر أن يستشعر هذا الخطر الذي يوشك أن يداهم بلاد المسلمين ويقضي عليها. لذلك قال في أحد دروسه: «جاءني خبر ما يكون من بلاء يأتي هذه البلدة، ثم دعا لأهل البلدة بالدفع عنهم، ثم قال: لعمري إنَّ في هذه البلدة من يستحق القتل والصلب، ولكن لعين تكرم ألف عين، تهلكنا بهم! تأخذنا بذنوبهم! إيش عملنا نحن!»[1].

وقد وقعت الكارثة فعلاً في سنة ٦٥٦ هـ، أي بعد أقل من مائة سنة من وفاة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في سنة ٥٦١ هـ عندما اجتاح التتار بقيادة هولاكو البلاد الإسلامية في إيران والعراق بما فيها بغداد وقضوا على الخلافة وقتلوا نحو مليون إنسان، وخربوها ونهبوها حتى تركوها أثراً بعد عين.

وكان يقول رحمه الله تعالى: «الجهاد جهادان: ظاهر وباطن، فالباطن جهاد النفس والهوى والطبع والشيطان والتوبة عن المعاصي والزلَّات والثبات عليها وترك الشهوات والمحرمات. والجهاد الظاهر: جهاد الكفار المعاندين لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ومقاساة سيوفهم ورماحهم وسهامهم، يقتلون ويُقتلون. والجهاد الباطن أصعبُ من الجهاد الظاهر لأنه شيءٌ ملازم متكرر. . فمن امتثل أمرَ الله عز وجل في الجهادين حَصَلت له المجازاة دنيا

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٦٢ ص ٣٢٦.

وآخرة. الجراحات في جسد الشهيد كالفصد في يد أحدكم، لا ألم لها عنده، والموت في حق المجاهد لنفسه، التائب من ذنوبه، كشرب العطشان للماء البارد»[١].

ويقـول: «مجاهـدة الشيطان بـاطنة وهي بـالقلب والجنان والإيمان، فإذا جاهدته كان مددك الرحمن، ومعتمـدك الملك الديَّان، ورجاؤك رؤية وجه الجليل المنان. وجهاد الكفار جهاد الظاهر بالسيف والرماح، ومددك فيه الملك والأعيان، ورجاؤك فيه دخول الجنان، فإن قتلت في مجاهدة الكفار كان جزاؤك الخلود في دار البقاء، وإن قتلت في مجاهدة الشيطان ومخالفتك إياه بفناء أجلك واخترام منيتك كان جزاؤك رؤية وجه رب العالمين عند اللقاء»[٢].

وكان رحمه الله تعالى، لا يخاف أحداً في سبيل الله تعالى، لذلك كان يقول: «إني أقول لكم الحق، إني لا أخاف منكم ولا أرجوكم، أنتم وأهل الأرض عندي كالبق والذر، لأني أرى الضر والنفع من الله عز وجل لا منكم، المماليك والملوك عندي سواء»[٣].

ويقول: «العبد إذا عرف الله عز وجل سقط الخلق من قلبه وتناثروا عنه كما يتناثر الورق اليابس من الشجر. يعمى عن رؤيتهم ويصم عن سماع كلامهم»[٤].

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ١٨.

(٢) الغنية جـ ١ ص ١٠٣.

(٣) الفتح الرباني: المجلس ٥١.

(٤) المصدر السابق: المجلس ٥٦.

التوبة والاستغفار:

إنَّ الله سبحانه وتعالى يحب التوابين، ويحب المستغفرين، لأن هذه الصفة تحقق عبودية الإنسان لله رب العالمين، واعترافه بربوبية الله سبحانه وتعالى للخلق أجمعين. لذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخاري(١).

والتوبة هي أول طريق السالكين، لذلك كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يحثُّ كثيراً على التوبة، ويفتح أبـوابها على مصاريعها أمامِ الناس جميعاً، يقول أبو الحسن الندوي: «.. ظهر في بغداد رجلٌ قوي الشخصية، قويُّ الإيمان، قوي العلم، قوي الدعوة، قوي التأثير، هو الشيخ عبد القادر، فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، يدخل منه المسلمون يجدِّدون العهد والميثاق مع الله تعالى، ظلَّ الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم فأصبحوا يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان»(٢).

أما فلسفة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعـالى في التوبـة فيشرحها بهذا القول: «حقيقة التوبة في اللغة الرجوع، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع،

---

(١) جامع الأَصول جـ ٤ ص ٣٨٧، رقم ٢٤٤٤.
(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ٢٨٢.

والعلم بأنَّ الذنوب والمعاصي مهلكات مُبْعدات من الله عز وجل ومن جنته.. والتوبةُ النصوح هي الخالصة لله تعالى، الخالية من الشوائب، والنصوح مأخوذ من النصاح وهو الخيط، أي هي توبة مجرَّدة لا تتعلق بشيء ولا يتعلَّق بها شيء.. والتوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة.. واجبة من الكبائر والصغائر.. وهي فرضُ عين في حق كل شخص، إذ لا يتصور أن يستغني عنها أحد من البشر... فالكل مفتقرٌ إلى التوبة وإنما يتفاوتون في المقادير، فتوبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله عز وجل.. حتى الأنبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن التوبة كآدم عليه السلام: ﴿فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ فَتَابَ عليه إنّه هو التواب الرحيم﴾[1]، ونوح عليه السلام: ﴿ربِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾[2]، وإبراهيم عليه السلام: ﴿والذي أطْمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾[3]، وموسى عليه السلام: ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾[4]، وداود عليه السلام: ﴿فغفرنا له ذلك، وإنَّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾[5]»[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٧.

(٢) سورة هود، الآية ٤٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٨٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥١.

(٥) سورة صٓ، الآية ٢٥.

(٦) الغنية ص ١١٦ وما بعدها.

لذلك جاء في الدعاء المأثور الذي ينبغي أن يدعو المرء به صباح مساء: «اللهم إني أعوذُ بك من أن أُشْرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم، إنك أنت علام الغيوب»[1].

ثم قال رحمه الله تعالى: «إذا رأيت التغيُّر والتضيق في المعيشة والتعسُّر في الرزق فاعلم أنك تارك لأمر مولاك تابعٌ لهواك. وإذا رأيت الأيدي والألسن تسلَّطت عليك وتناولتك الظلمة في النفس والأهل والمال والولد فاعلم أنك مرتكبٌ للمناهي ومانعٌ للحقوق ومتجاوزٌ للحدود، وإذا رأيت الهمومَ والكروبَ في القلب قد تراكمت فاعلم أنك معترض على الرب فيما قدَّر عليك، غير واثق به ولا راضٍ بتدبيره فيك وفي خلقه، فعليك عند ذلك بالندم والرجوع عما أنت فيه... وتعرف توبة التائب في أربعة أشياء: أحدها: أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب. والثاني: أن لا يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة. والثالث: أن يفارق إخوان السوء. والرابع: أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه، مجتهداً في طاعة ربه... وقال أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة. فالتوبة بداية، والإنابة واسطة، والأوبة نهاية. فكل من تاب لخوف العقوبة كان صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب أو رهبة من العقاب كان صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب أو رهبة من العقاب كان صاحب أوبة. وقيل: التوبة صفة المؤمنين، والإنابة

---

(١) الغنية ص ١٢٢ وما بعدها.

صفة الأولياء المقربين، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين ﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾[1].

الإخلاص:

الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظـيم. إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال والأقوال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصينَ له الدين حنفاءَ، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيمة﴾[2].

ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[3].

ويقول الجرجاني في كتابه (التعريفات): «الإخلاص في اللغة ترك الرياء في الطاعات»[4].

كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى مخلصاً في أعماله وأقواله كلها، فهو لا يخاف من أي إنسان مهما كان، وما كان يدخل في أقواله وأفعاله أيُّ رياء وكان يقول: «يا غلام، عليك

---

(١) الغنية ص ١٤٠ وما بعدها بتصرف.

(٢) سورة البينة، الآية ٥.

(٣) رواه مسلم (جامع الأصول رقم ٤٧٣١).

(٤) التعريفات ص ٢٨.

بالإخلاص في الأعمال، وارفع بصرك عن عملك وطلب العوض عليه. اعمل لوجه الله عز وجل، لا لنعمه، كن من الذين يريدون وجهه، اطلب وجهه حتى يعطيك، فإذا أعطاك ذلك، حصل لك الجنة في الدنيا والآخرة، في الدنيا القرب منه، وفي الآخرة النظر إليه»[1].

وقال: «قال سعيد بن جبير رحمه الله: الإخلاص أن يخلص العبد دينه لله تعالى وعمله لله تعالى، ولا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله أحداً. . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين»[2].

وكان يقول رحمه الله تعالى: «الجاهل لا تسوى عبادته شيئاً، والعلم لا ينفع إلا بالعمل به، والعمل لا ينفع إلا بالإخلاص فيه»[3].

الخوف والرجاء:

ينبغي أن يكون العبد دائماً بين الخوف والرجاء، الخوف من الله تعالى ومن عقابه، والرجاء لعفوه وإحسانه، هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة. وهذه هي عقيدة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى أيضاً.

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ١٧.

(٢) الغنية: جـ ٢ ص ٦٧.

(٣) الفتح الرباني: ص ٤١ و ١١١ و ٢٢٥.

يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «الخوف والرجاء هما كجناحي طائر لا يتم الإيمان إلا بهما»[1].

وقد سئل رحمه الله تعالى عن الخوف فقال: «الخوف على أنواع: الخوف للمذنبين، والرهبة للعابدين، والخشية للعالمين، والوجل للمحبين، والهيبة للعارفين، فخوف المذنبين من العقوبات، وخوف العابدين من نقص ثواب العبادات، وخوف العالمين من الشِّرك الخفي في الطاعات، وخوف المحبين فوات اللقاء، وخوف العارفين الهيبة والتعظيم، وهو أشدُّ الخوف لأنه لا يزول أبداً، بينما سائر الأنواع الأخرى تسكن إذا قوبلت بالرحمة واللطف. وسئل رضي الله عنه عن الرجاء فقال: الرجاء في حق الأولياء أن يكون حسن الظن بالله تعالى، لا لطمعٍ في نفع ولا لدفع سوء.. ولا يكون رجاء بلا خوف لأن من رجا أن يصل إلى شيء خاف أن يفوته»[2].

ويقول رحمه الله تعالى: «تعمل أعمال أهل الشر وتتمنى درجات أهل الخير، من غلب رجاؤه خوفه تزندق، ومن غلب خوفه رجاءه قنط، والسلامة في اعتدالهما، قال النبي ﷺ: «لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا»[3].

---

(١) فتوح الغيب: المقالة ٤٤.

(٢) قلائد الجواهر ص ٧٣.

(٣) الفتح الرباني: المجلس ٢٥.

رأيه في الفرق الضالة:

قال الشيخ رحمه الله تعالى: «رُوي عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «... إن بني إسـرائيل افترقت على موسى بإحدى وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقـة واحدة، الإسلام وجماعتهم، ثم إنها افترقت على عيسى بن مريم باثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة إلا واحدة، الإسلام وجماعتهم، ثم إنكم تكونون على ثلاث وسبعين فرقة كلهم ضالة إلا فرقة واحدة، الإسلام وجمـاعتهم»... وأصل هـذه الفرق الثـلاث والسبعين: عَشْرٌ هي: أهل السنة والخوارج والشيعة والمعتزلـة والمرجئة والمشبهة والجهمية والضرارية والنجارية والكلابية. فأهل السنة طائفة واحدة، والخوارج خمس عشرة فرقة، والمعتزلة ست فرق، والمرجئة اثنتا عشرة فرقة، والشيعة اثنتان وثلاثون فرقة، والجهمية والنجارية والضرارية والكلابية كل واحدة فرقة واحدة، والمشبهة ثلاث فرق، فجميع ذلك ثلاث وسبعون فرقة.. والفرقة الناجية هي أهل السنة والجماعة.

وتسمي المعتزلة (أو القدرية) فرقة أهل السنة والجماعة مجبرة لقولها إن جميع المخلوقات بمشيئة الله تعالى وقدرته وإرادته. وتسميها المرجئة شكّاكية لاستثنائها في الإيمان إذ يقول المؤمن: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى. وتسميها الرافضة ناصبية لقولها باختيار الإمام ونصبه بالعقد. وتسميها الجهمية والنجارية مشبّهة لإثباتها صفات الباري عز وجل. وتسميها الباطنية حشوية لقولها بالأخبار وتعلقها بالآثار»[1].

---

(١) الغنية جـ ١ ص ٨٣ وما بعدها.

روايته للحديث الشريف:

«سَمِعَ الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى الحديث من جماعة منهم أبو غالب محمد بن الحسن الباقلاني، وأبو سعيد (أو أبو سعد) محمد بن عبد الكريم بن خشيشا، وأبو الغنائم محمد بن محمد بن علي بن ميمون الفرسي، وأبو بكر أحمد بن المظفر، وأبو جعفر بن أحمد بن الحسين القاري السراج، وأبو القاسم علي بن أحمد بن بنان الكرخي، وأبو طالب عبد القادر محمد بن يوسف، وابن عمه عبدالرحمن بن أحمد، وأبو البركات هبة الله ابن المبارك، وأبو العز محمد بن المختار، وأبو نصر محمد، وأبو غالب أحمد، وأبو عبد الله يحيى أولاد علي البنا، وأبو الحسن بن المبارك بن الطيور، وأبو منصور عبد الرحمن القزاز، وأبو البركات طلحة العاقولي وغيرهم»[1]. لذلك كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى على معرفة بالحديث وبرواية الحديث.

«وقد ذكر ابن رجب حديثاً في سنده الشيخ عبد القادر، عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قلَّ ما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا أراد سفراً إلا يوم الخميس[2].

وروى عنه ولداه عبد الرزاق وموسى والشيخ علي بن إدريس وروى عنه بالإجازة الرشيد أحمد بن مسلمة وغيرهم[3].

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤.

(٢) كتاب التاج المكلل لأبي الطيب القنوجي تحت رقم ١٥٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٤٣٩.

وكان رحمه الله تعالى يستكثر من الاستشهاد بالأحاديث الشريفة في دروسه ومواعظه وكتبه حتى إنه استشهد في الجزء الأول من كتاب الغنية بـ ٣٨٦ حديثاً شريفاً، وفي الجزء الثاني منه بـ ٤٩٣ حديثاً شريفاً. ولكن بعض العلماء كابن تيمية وابن كثير يقولون إنه يستشهد بالأحاديث الضعيفة، وبخاصة في فضائل الأيام والشهور وبعض أنواع الصلوات والأذكار وصفات الجنة والنار.

* * *

وفي الجملة فإن عقيدة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى هي عقيدة أهل السنة والجماعة. الفقه عنده مقدَّم على التصوف، فكثيراً ما كان يقول: تفقه ثم اعتزل؛ وكل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة. «والإيمان عنده، قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل.. وكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً.. لأن المرء قد يسلم مخافة السيف. وزيادة الإيمان تكون بعد التحقق بأداء الأوامر وانتهاء النواهي والتسليم بالقدر وترك الاعتراض على الله عز وجل وترك الشك في وعده، أما بمجرد الصلاة والصيام فلا»[1] «والعبد يترقى من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإيقان، ومن الإيقان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى العلم، ومن العلم إلى المحبة، ومن المحبة إلى المحبوبية. فحينئذ لا يزال أبداً مستيقظاً صافياً، ورث اليقظة من

---

(١) الغنية: جـ ١ ص ٦٢ وما بعدها.

النبي عليه الصلاة والسلام، كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه وكان يرى مَن وراءه كما يرى من أمامه، غير أن النبي ﷺ لا يصل أحد إلى يقظته ولا يقدر أحد أن يشاركه في خصائصه. غير أن الأبدال والأولياء من أمته يَرِدون على بقايا طعامه وشرابه، يعطون قطرة من بحار مقاماته وذرة من جبال كراماته»[١].

وكان رحمه الله تعالى يحترم مذاهب أهل السنة والجماعة كلها ويدعو إلى احترام آرائهم المذهبية، وإلى الابتعاد عن الخصومات فيما بينهم لأنهم يستقون من منبع واحد، وهم فروع لأرومة واحدة، وكان قد نفى شبهة التشبيه والتجسيم التي كانت أُلصقت بالمذهب الحنبلي، وأدت إلى انفضاض الناس عنه، لذلك كان يعدُّ مجدداً للمذهب الحنبلي في بغداد بعد أن كاد يندثر فيها، كما كان يفتي على المذهب الشافعي بالإضافة إلى المذهب الحنبلي. لذلك قال عنه النووي الشافعي: إنه كان شيخ الشافعية والحنابلة في بغداد؛ وقال عنه الإمام الذهبي الشافعي: إنه قدوة العارفين، صاحب المقامات والكرامات[٢]. كما أشاد به سبط ابن الجوزي الحنفي[٣]. وقال عنه الحافظ ابن رجب الحنبلي: «إنه شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ»[٤] لذلك خفت الخصومات المذهبية كثيراً أثناء حياته في بغداد.

(١) الفتح الرباني: المجلس ٤٥.

(٢) كتاب العبر للذهبي جـ ٤ ص ١٧٥.

(٣) كتاب مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٤.

(٤) كتاب الذيل على الطبقات جـ ١ ص ٢٩٠.

وقد بيَّن الشيخ عبد القادر عقيدته، التي هي عقيدة أهل السنة والجماعة، في هذه المقالة التي وردت في آخر كتابه (فتوح الغيب) كما أوردها صاحب كتاب (الفيوضات الربانية) في الصفحة ٢٩، أثبتها هنا كلها نظراً لطرافتها «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي كيَّف الكيف وتنزَّه عن الكيفية، وأيَّن الأين وتعزز عن الأينية، ووُجد في كل شيء وتقدَّس عن الظرفية، وحضر عند كل شيء وتعالى عن العندية، فهو أول كل شيء وليس له آخرية. إن قلت: أين؟ فقد طالبته بالأينية. وإن قلت: كيف؟ فقد طالبته بالكيفية. وإن قلت: متى؟ فقد زاحمته بالوقتية. وإن قلت: ليس فقد عطلته عن الكونية. وإن قلت: لو فقد قابلته بالنقصية. وإن قلت: لِمَ فقد عارضته في الملكوتية. سبحانه وتعالى لا يُسبَق بقبلية، ولا يُلحق ببعدية، ولا يقاس بمثلية، ولا يقرن بشكلية، ولا يعاب بزوجية، ولا يعرف بجسمية. سبحانه وتعالى لو كان شخصاً لكان معروف البنيّة، ولو كان جسماً لكان معروف الكمية، بل هو واحد رداً على البنوية (أي النصارى)، صمدٌ رداً على الوثنية، لا مثيل له طعناً على الحشوية، لا كفء له رداً على من ألحد بالوصفية، لا يتحرك متحرِّك في خير أو شر في سر أو جهر، في بر أو بحر إلا بإرادته رداً على القدرية، لا تُضاهىٰ قدرته ولا تتناهى حكمته تكذيباً للهُذَلية، حقوقه الواجبة وحجته البالغة ولا حقَّ لأَحد عليه إذا طالبه، نقضاً لقاعدة النظامية، عادل لا يظلم في أحكامه، صادق لا يخلف في إعلامه، متكلم بكلام قديم أزلي، لا خالق لكلامه، أنزل القرآن فأعجز الفصحاء في نظامه إرغاماً لحجج المرادية، يستر العيوب ربنا، ويغفر الذنوب لمن يتوب فإن امرؤ

إلى ذنبه عاد فالماضي لا يعاد، محضاً للبشر، تنزّه عن الزيف وتقدّس عن الحيف، ونؤمن أنه ألَّف بين قلوب المؤمنين وأنه أضل الكافرين رداً على الهشامية، ونصدق أن فساق هذه الأمة خير من اليهود والنصارى والمجوس رداً على الجعفرية، ونقرّ أنه يرى نفسه ويرى غيره، وأنه سميعٌ لكل نداء، بصير بكل خفاء رداً على الكعبية، خلقَ خلقه في أحسن فطرة، وأعادهم بالفناء في ظلمة الحفرة، ويعيدهم كما بدأهم أول مرة ردًّاً على الدهرية، فإذا جمعهم ليوم حسابه يتجلى لأحبابه فيشاهدونه بالبصر، يُرى كالقمر لا يُحجب إلا عن من أنكر الرؤية من المعتزلة؛ كيف يُحجب عن أحبابه أو يوقفهم دون حجابه وقد تقدَّمت مواعيده القديمة الأزلية: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾، أتُرى ترضى من الجنان بحورية، أم تقنع من البستان بالحلل السندسية، كيف يفرح المجنون بدون ليلى العامرية، كيف يرتاح المحبون بغير النفحات العنبرية. أجسادٌ أذيبت في تحقيق العبودية، كيف لا تتنعم بالمقاعد العندية. أبصارٌ سهرت في الليالي الديجورية، كيف لا تتلذَّذ بالمشاهدة الأنسية، وألبابٌ عُذبت باللبانات الحبية، كيف لا تشرب من المدامة الرَّبية، وأرواحٌ حُبست في الأشباح الحسية، كيف لا تسرح في الرياض القدسية وترتع في مراتعها العلية، وتشرب من مواردها الروية، وتنهي ما بها من فرط شوقٍ، ووجدِ شرح الحال عن تلك الشكيّة، ويبرز حاكم العشاق جهراً ويفصل عن تلك القضية. إذا خوطبت عند التلاق لمولاها ابتدأها بالتحية، فيأمرها إلى جنات عدنٍ فتأبى أنفساً منها أنيّة[1]، وتقسم

(١) أنيّة: مؤنث أنيّ من فعل أَنِيَ: تمهل وترفق.

فيه أن لا نظرت سواه ولا عقدت لسواه نية، ولا رضيت من الأكوان شيئاً ولا كانت مطالبها دنية. فما هجرت لذيذ العيش إلا لتحظى منه بالصلة السنية، ويسقيها مدير الراح كأساً صفاه من صفواته هنية، إذا ديرت على الندماء جهراً حُفت بالبواكر والعشية، تزيدهم ارتياحاً واشتياقاً، إلى أنوار طلعته البهية.

وحقك إنَّ عيناً لن تريها جمالك فإنها عين شقية، قتلت بحسنك العشَّاق جمعاً، بحق هواك رفقاً بالرعية. قلوبٌ تذوي إليك شوقاً ولم يبق الهوىٰ منك بقية، فإن أقض وما قضيت قصدي فإني من هواك على وصية، ولست بآيسٍ عند التلاقي يا إلهي بأن تمحو عواطفك الخطية.

كيف يكون الردّ يا إخوتي وفي الأسحار أوقات ربانية، وإشارات سماوية، ونفحات مَلَكية، والدليل على صدق هذه القضية غناء الأطيار في الأشجار بالألحان الداودية؛ وتصفيق الأنهار المنكسرة في الرياض الروضية، ورقص الأغصان بالحلل السندسية، إذ كل ذلك إذعاناً واعترافاً له بالوحدانية.

ألا يا أهل المحبة إن الحق يتجلى في وقت السحر وينادي: هل من تائب فأتوب عليه توبة مرْضية؟ هل من مستغفر فأغفر له الخطايا بالكلية؟ هل من مستعطٍ فأجزل له النعم والعطية؟

ألا وإنَّ الأرواح إذا صفت كانت ببهجته مشرقة مضيّة، وتساوت في الأحوال وهان عليها كل رزية. لا جرم أنَّ رائحة دموعهم في الآفاق عطرية. وبصبرهم على بعض الهجر استحقوا الوصل من المراتب العلية. وصحة أحاديثهم في طبقات المحبين مسندة مروية، وراحوا من غير سؤالٍ، حاجاتهُم مقْضية، هدية

الحب قد أصبحت واضحة جلية. فيا لها من قوافٍ بهية، وعقيدةٍ سنّيّةٍ على أصول مذاهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية. عصمني الله تعالى وإياكم من الذين فرقوا فمرقوا كما يمرق السهم من الرمية. وجعلني وإياكم من الذين لهم غرف من فوقها غرف مبنية. وصلى الله على سيدنا محمد أشرف البرية، وعلى آله وأصحابه وخصهم بأشرف التحية؛ وسلم تسليماً كثيراً دائماً متجدداً مترادفاً في كل بكرة وعشية. آمين ثم آمين»[1].

(١) كتاب الفيوضات الربانية للحاج إسماعيل بن محمد القادري ص ٢٩.

الفَصل الثالث

طَرِيقَتُهُ

الطريقة هي السلوك الذي يوصل إلى رضا الله سبحانه وتعالى.

وقال الجرجاني في كتابه (التعريفات): هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات[1].

وكما تعددت المذاهب الفقهية على حسب اجتهاد الفقهاء المجتهدين، تعددت الطرق على حسب اجتهاد أعلام السلوك العاملين المخلصين، والأصل واحد عند الجميع وهو الكتاب والسنة، ولكن اختلفت الاجتهادات، ولكل مجتهد نصيب؛ والهدفُ واحدٌ عند الجميع، وهو رضا المولى عز وجل، ولكن اختلفت الوسائل، وكلها مشروعة.

وإذا كان الفقه هو جسم الشريعة، فالطريقة روحها، الفقه يرضى من المصلي أن يقوم بأركان الصلاة من قيام وركوع وسجود وقعود وقراءة، ولكن الطريقة لا ترضى منه إلا بالخشوع وأن يعتبر نفسه واقفاً بين يدي ملك الملوك وجبار السماوات والأرض وأن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر. والفقه يرضى من الصائم الإمساكَ عن المفطرات من الفجر إلى الليل، ولكن الطريقة لا ترضى إلا الإمساكَ أيضاً عن الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور وبالشعور بآلام الفقراء والمحتاجين، والفقه يرضى من

---

(١) كتاب التعريفات ص ١٨٣.

المزكّي أن يخرج نصاب الزكاة في موعده المقرر، ولكن الطريقة لا ترضى إلا تزكيـةَ النفس والابتعاد عن الشح. والفقه يرضى من الحاج بأداء أعمال الحج، ولكن الطريقة لا ترضى إلا بالإخلاص والشعور بالعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى والتذلل والخضوع والاستسلام بين يديه، وإعانة الضعفاء والمنقطعين والاهتمام بأمر جميع المسلمين.

كان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدون من بعده يقومون بهذه الوظائف كلها، ويرشدون الناس إليها، وعندما افترق السلطان والقرآن، نشأ الفقه، على أيدي أئمةٍ أعلام مخـلصيـن، استنبطـوه، وصنفـوه وبيَّنـوه للنـاس، وكانوا في الوقت نفسه مرشدين وسالكين. وعندما انصرف مَنْ بعدهم من الفقهاء إلى الفقه، بخاصة إلى العبادات والمعاملات، وحصروا أنفسهم في نطاقها وتركوا ما سواها، أخذ السالكون والمرشدون يستقلون ويظهرون ويبيِّنون للناس المنهاج القويم من الأخلاق الذي كان عليه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وصحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم، ليعودوا إليه بعد أن اختل ميزان السلوك والأخلاق اختلالاً كبيراً. أصبح يُخشى معه على الأمة الإسلامية كلها أن تزول ويطويها الجهل والنسيان. وهكذا ظهر علم السلوك، الذي أُطلق عليه اسم التصوف. ولا بد من ضابط يضبط هذه العلوم جميعها، وهذا الضابط هو الكتاب والسنة، فهو الضابط لعلم السلوك والتصوف كما هو الضابط للفقه أيضاً لأنه هو أصل هذه العلوم جميعها وهو منبعها.

وكما ظهر الشطط والانحراف في الفقه والاعتقاد فظهرت فرق المعتزلة والمرجئة والجبرية والخوارج وغيرها، كذلك ظهر الشَّطَط

والانحراف في التصوف، وخاصة بعدما تسرَّبت الثقافات الغريبة كالهندية واليونانية والبيزنطية والفارسية إلى الثقافة الإسلامية، فظهرت طرق صوفية ضالة مارقة من الدين كالحلولية والحالية (الذين يقولون: للشيخ حالة خاصة لا يعبر عنها بالشرع) والأولياثية (التي تقول إنَّ رتبة الولي تسقط الشرع) والشمرانية (الذين يحلون الملاهي والاختلاط) والحبية (الذين يقولون إذا بلغ العبد المحبة سقط عنه التكليف) والمتكاسلة (الذين يتركون الدنيا ويسألون على الأبواب) وغيرها[1].

جاء الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى إلى بغداد في سنة ٤٨٨ هـ وهدفه أن يتفقه ويصبح فقيهاً، وبعد أن درس الفقه وسار فيه شوطاً كبيراً، وبعد ما رأى من انحراف الأخلاق في مجتمع بغداد عما رسمه الإسلام، وانحطاطها انحطاطاً كبيراً، وبعد ما رأى أن الفقه وحده لا يملك حل هذه المشكلة التي أصبحت تهدِّد الأمة كلَّها، توجَّه نحو التصوف، وصار يتردد على أحد أعلامه في ذلك الوقت حماد بن مسلم الدباس، وكان تلاميذ الدباس يعلمون أنه رجل فقيه، لذلك كانوا يستغربون حضوره معهم ويقولون له: أنت رجل متفقه فلماذا تأتي إلينا!؟ وما دروا أنه ينشد الكمال، والكمال هو الجمع بين الفقه والتصوف.

وجمع الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بين الفقه والتصوف، وكان يقدِّمُ الفقه على التصوف لأنه حاكم عليه، وهو نفسه كان فقيهاً قبل أن يكون متصوفاً.

---

(١) كتاب (هكذا ظهر جيل صلاح الدين) للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ص ١٨٥ وما بعدها.

ومنذ سنة ٥٢١ هـ تصدر للتدريس والإرشاد، فأقبل عليه الناس لِما رأوا فيه من فهم وذكاء وإخلاص، وذاع صيته بين العباد ووصل إلى أقصى البلاد، ولما رأى اختلاف الفقهاء، أصحاب مذاهب أهل السنة والجماعة، وما يحدث بينهم من خصومات، سعى جهده للتوفيق بينهم، ولإزالة أسباب الخلاف في المسائل الفرعية ما دام الأصل واحداً عندهم جميعاً.

وعندما رأى ضلال بعض الفرق الصوفية وخروجها من ربقة الدين، حاربها وفنّد زيغها وضلالها. وأخضع الطريقة للشريعة لكي لا تضل ولا تزيغ، بل قدَّم الشريعة على الطريقة فهي الأَصل وهي الحكم الفصل، وكثيراً ما كان يقول: عليكم بالاتباع بلا ابتداع، تفقه ثم اعتزل، طرْ إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة، كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة. وبذلك أعاد ربط السلوك بالفقه كما كان على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين من بعده. ثم سعى بعد ذلك إلى جمع أصحاب الطرق السنّيّة الموجودين في عصره والتأليف بينهم: ما داموا جميعهم يستقون من منبع واحد هو الكتاب والسنة، وقد اجتمع مع كبار مشايخ التزكية في عصره كعلي بن الهيتي وبقا بن بطو، وأبي سعيد القيلوبي، وعدي بن مسافر، وموسى الزولي، وأحمد الرفاعي، وعبد الرحمن الطفسونجي، وقضيب البان، وحياة بن قيس وغيرهم. كما اجتمع رحمه الله تعالى في الحج بالشيخ أبي مدين شيخ المغرب، وبالشيخ عثمان بن مرزوق القرشي شيخ مصر، فأقراه على ذلك، وكذلك فعل الشيخ رسلان الدمشقي شيخ الشام؛ وكان ذلك بين سنتي ٥٤٦ و ٥٥٠ هـ على

رأي الدكتور ماجد عرسان الكيلاني[1]، وفي سنة ٥٥٩ على رأي الأستاذ محمد العيني[2].

وهكـذا وَفّق بين الفقـه والتصـوف وآخى بين الفقهـاء والمتصوفة، وأخضع الحقيقة للشريعة، وصفّى التصوف من البدع والضلالات التي دخلت عليه، وهكذا دان له الفقهاء والمتصوفة في زمنه فما كانوا يخالفون أمره، وكانوا يدعونه إلى إلقاء دروسه في المدرسة النظامية في بغداد، كما رأينا، مع أن القائمين عليها من الشافعية؛ وكان كبار مشايخ الصوفية كعلي بن الهيتي والقيلوبي يكنسون أمام باب مدرسته ويرشونه بالماء ولا يدخلون عليه إلا بعد الاستئذان منه احتراماً وتقديراً له[3].

أما طريقته رحمه الله تعالى فقد وضحها بقوله: «لا يرى غير مولاه ولا يسمع ولا يعقل من غيره، بنعمته تنعَّم وبقربه سعد وتزيَّن وتشرف، وبوعده طاب وسكن، وبه اطمأن، وبحديثه أنس، وعن غيره استوحش ونفر، وإلى ذكره التجأ وركن، وبه عز وجل وثق، وعليه توكل، وبنور معرفته اهتدى وتقمص وتسربل»[4]. ويقول الشعراني عنها: «طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً، وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً»[5]. ويقول الشيخ عدي بن مسافر عنها:

---

(١) كتاب هكذا ظهر جيل صلاح الدين للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ص ١٨٧.

(٢) عبد القادر الكيلاني للأستاذ محمد العيني النسخة الفرنسية ص ٥٠.

(٣) قلائد الجواهر ص ١٩.

(٤) فتوح الغيب: المقالة الثالثة.

(٥) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٢٩.

«طريقته الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح، واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس»[1] ويقول الشيخ بقا بن بطو: «كانت قوة الشيخ عبد القادر في طريقه إلى ربه كقوى جميع أهل الطريق شدة ولزوماً، وكانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً»[2]. ويقول الشيخ علي بن الهيتي: «كان قدمه التفويض والموافقة مع التبري من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية لا بشيء ولا لشيء»[3].

الطريقة هي السلوك إلى رضا الله تعالى، ولا بد للسلوك من ركائز يرتكز عليها وأجنحة يسير بها، وهي التحلي بالأخلاق الكريمة، أخلاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وصحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم، والتخلي عن الأخلاق الذميمة، على السالك الحق أن يتحلى **بالصبر** عند البلاء، **والشكر** عند النعم، **والتواضع والحلم والرحمة والتوكل والمجاهدة والصدق والإخلاص والحب والزهد** في الدنيا والإقبال على الأخرى، والتخلي عما يخالف ذلك. عليه أن يكون قدوة لتلاميذه ومريديه في مكارم الأخلاق هذه، وأن يلزم تلاميذه ومريديه بها، وأن يأخذ العهد عليهم أن لا يتخلوا عنها، لكي يستطيع أن يسلك بنفسه وبهم في الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى رضا ربهم عز وجل.

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٧.

(٣) المصدر السابق. التجريد: تخلية القلب من كل شيء سوى الله تعالى. التفريد: وقوفك بالحق مع الحق وحده.

فها هي بضاعة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى من ركائز الطريقة والسلوك التي تتمثل فيما يلي:

١) الصبر:

الصبر من أهم ركائز السير إلى الله سبحانه وتعالى، وهو من أهم صفات الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين. فقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أشدُّ الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل». رواه الترمذي[1]. والصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على البلاء والمصائب. وقد ابتلي الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى منذ خروجه من جيلان متوجهاً إلى بغداد بأنواع كثيرة من البلايا والمصائب، ابتلي بالفقر والجوع، والعري وإعراض الناس عنه وإهانتهم له، ثم ابتلي بشيوع المنكرات في بغداد، وظلم الحكام والقواد لعامة الناس، كما ابتلي بوفاة كثير من الأولاد، فصبر على كل ذلك صبر الكرام، صبراً لا شكوى فيه إلى أن يقضي الله سبحانه بحكمه فيه.

وكان يقول رحمه الله تعالى: «لازمْ الصبر وخالف الهوى وارض بالقضاء، وارج بذلك الفضل والعطاء، فقد قال الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[2] «اصبر ولا تستعجل، وارض بالقضاء ولا تستعجل فسينالك برد عفو الله ولطفه

---

(١) سنن الترمذي كتاب الزهد رقم ٥٧.

(٢) سورة الزمر، الآية ١٠. فتوح الغيب: المقالة ١١.

وكرمه بمنّه تعالى»[1] «يقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[2]. أمرك بالصبر يا مؤمن ثم بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة له ثم حذرك تركه فقال: واتقوا الله في ترك ذلك. أي لا تتركوا الصبر فإن الخير والسلامة فيه، وقال النبي ﷺ: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد».. فالصبر رأس كل خير وسلامة، دنيا وأخرى، ومنه يرتقي المؤمن إلى حالة الرضا والموافقة ثم الفناء في أفعال الله عز وجل»[3].

«وسئل رضي الله عنه عن الصبر فقال: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وتلقي أقضيته بالرحب والسعة على أحكام الكتاب والسنة. وينقسم أقساماً: صبر لله تعالى وهو الثبات على أداء أمره وانتهاء نهيه، وصبر مع الله تعالى وهو السكوت تحت جريان قضائه وفعله فيك، وصبر على الله تعالى وهو الركون إلى وعده ووعيده في كل شيء. هجران الخلق في حب الحق شديد، والمسير إلى الله تعالى أشد، والصبر مع الله تعالى أشد. والفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر، والفقير الشاكر أفضل منهما، والفقير الصابر الشاكر أفضل منهم. وما خطَبَ البلاء إلا من عرف الثواب»[4].

---

(١) فتوح الغيب: المقالة ٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٠٠.

(٣) فتوح الغيب: المقالة ٣٠.

(٤) قلائد الجواهر ص ٧٢.

وكان رحمه الله تعالى لا يخشى المصائب والبلاء ويقول: «يا بني إن المصيبة ما جاءت لتهلكك وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك. ومصداق ذلك قول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها ـ أي محررها من العذاب ـ أو موبقها ـ أي مهلكها بغضب الله تعالى ـ» رواه مسلم[1]. وقوله: «إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». رواه الترمذي وقال حديث حسن.

٢) الشكر:

والشكر من ركائز السير إلى الله سبحانه وتعالى. والشكر لا يكون باللسان فقط وإنما يجب أن يكون باللسان وبالجوارح، بالقول والفعل؛ يقول ابن القيم: «الشكر هو عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه»[2].

وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى طوال حياته من الصابرين الشاكرين، صبر على البلاء وشكر، وحمد النعمة وشكرها بلسانه وقلبه وجوارحه.

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الصبر رقم ٢٥.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم جـ ٢ ص ١٣٦.

وقد سئل رحمه الله تعالى عن الشكر فقال: «حقيقة الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ومشاهدة المنّة وحفظ الحرمة، وينقسم إلى شكر باللسان وبالجوارح وشكر بالقلب»[١].

٣) التواضع:

التواضع من صفات الأنبياء والصالحين، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾[٢]، ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٣].

«كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يأمر كل ليلة بمد السماط، ويأكل مع الأضياف ويجالس الضعفاء، ويصبر على طلبة العلم، ولا يظن جليسه أنَّ أحداً أكرم عليه منه، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسأل عن شأنهم، ويحفظ ودهم، ويعفو عن سيآتهم، ويصدّق من حلف له. وكان له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه، من الرستاق، يزرعها له كل سنة. وكان بعض أصحابه يطحنها، ويخبز له منها أربعة أقراص أو خمسة، ويأتي بها إليه آخر النهار، فكان رضي الله عنه يفرق منها على مَنْ حضره كسرة كسرة، ويدَّخر الباقي لنفسه. وكان غلامه مظفر يقف على باب داره والطبق فيه الخبز على يده، ويقول: من يريد الخبز، من

---

(١) قلائد الجواهر ص ٧١ بتصرف.

(٢) سورة الحجر، الآية ٨٨.

(٣) رواه مسلم (رياض الصالحين رقم ٥٥٥).

يريد العشاء، من يريد المبيت، وإذا أهديت إليه هدية فرقها أو بعضها على من حضره ويكافىء عليها مهديها، وكان يقبل النذر ويأكل منه رضي الله عنه»[1].

«وقال الشيخ المعمَّر جرادة: ما رأت عيناي أحسن خلقاً ولا أوسع صدراً، ولا أكرم نفساً، ولا أعطف قلباً، ولا أحفظ عهداً ووداً من سيدنا الشيخ عبد القادر، ولقد كان مع جلالة قدره وعلو منزلته وسعة علمه يقف مع الصغير ويوقر الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء، وما قام لأحد من العظماء ولا الأعيان ولا ألمَّ بباب وزير ولا سلطان»[2].

«وكان من أخلاقه مع جلالة قدره أن يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء، ويفلي ثيابهم»[3].

وكان رحمه الله تعالى يقول: «تواضعوا ولا تتكبروا، التواضع يرفع والتكبر يضع، قال النبي ﷺ: من تواضع لله رفعه الله تعالى»[4].

وكان يقول رحمه الله تعالى: «إذا أغضبت الحق عز وجل فقد تكبرت عليه، وإذا أذن المؤذن ولم تقم إلى الصلاة فقد تكبرت عليه، وإذا ظلمت أحداً من خلقه فقد تكبرت عليه، تب إليه

---

(١) قلائد الجواهر ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٩

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ١٢٦ وما بعدها.

(٤) الفتح الرباني: المجلس ٥٩.

وأخلص في توبتك قبل أن يهلكك كما أهلك نمرود وغيره من الملوك»[1].

٤) الصدق والإخلاص:

لا تستقيم العبادة إلا بالصدق والإخلاص، ولا تستقيم الطريق إلا بالصدق والإخلاص أيضاً. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيّمة﴾[2] ويقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وكونوا مع الصادقين﴾[3].

وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى صادقاً مخلصاً في أحواله وأقواله وأعماله طوال حياته، هكذا رباه والداه، وهكذا بقي إلى أن لقي وجه مولاه عز وجل، وكان يقول رحمه الله تعالى: «يا غلام عليك بالصدق والصفاء فلولاهما لم يتقرب بشر إلى الله تعالى... بجناح الإخلاص يطير العارف من ظلمة قفص الكون إلى فسحة نور القدس، وينزل بعد الطيران في ظل روض مقعد صدق.. يا غلام الطريق إلى الله تعالى لا يسافر فيها إلا بزاد الصدق ـ ولا يوصل إليه إلا بعد الصيام عن الدنيا وما فيها.. إذا صفت النفس من الأكدار البشرية امتثلت الأوامر. فطوبى لمن تنبه من رقدة غفلة عقله وصفا مورد حاله بطلب قرب مولاه،

---

(١) الفتح الرباني: المجلس٣٤.

(٢) سورة البينة، الآية ٥.

(٣) سورة التوبة، الآية ١١٩.

وتأدب بالخروج إلى أسرع الحاسبين، وشمَّر للسباق إلى الآخرة، وحاسب نفسه عما لا بد له من الخروج منه، فإن الدنيا ميدان الممر، والساعة أدهى وأمر»[١].

وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يقول: «أساس الأعمال التوحيد والإخلاص، فمن لا توحيد له ولا إخلاص له لا عمل له، أحكم أساس عملك بالتوحيد والإخلاص، ثم ابن الأعمال بحول الله عز وجل وقوته لا بحولك وقوتك»[٢]. «كل عمل لا إخلاص فيه فهو قشر لا لبَّ فيه، خشبةٌ ممدودة بلا روح، صورة بلا معنى، وهذا عمل المنافقين»[٣].

٥) التوكل على الله سبحانه وتعالى:

هو من أجلّ صفات السالكين على الطريق، بل هو صفة ملازمة لهم في أحوالهم كلها، وهو الثقة بما عند الله تعالى، واليأس عما في أيدي الناس، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[٤].

وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى متوكلاً على الله سبحانه وتعالى في جميع أحواله طوال حياته، في حال فقره

(١) قلائد الجواهر ص ٦١

(٢) الفتح الرباني: المجلس ٦.

(٣) المصدر السابق: المجلس ٢٤.

(٤) سورة الطلاق، الآية ٣.

وضعفه كان متوكلاً على الله تعالى، وفي حال غناه وعزه كان متوكلاً على الله تعالى أيضاً، وكان يقول: «من أحب القوة في دين الله عز وجل فليتوكل على الله عز وجل، لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب.. من أحب الغنى في الدنيا والآخرة فليتق الله عز وجل دون غيره وليقف على بابه»[1].

٦) الزهد في الدنيا وطلب الأخرى:

لا يصح سلوك بدون زهد، فهو شعار جميع الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين.

والزهد هو ترك الميل إلى الشيء، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: هو بغض الدنيا والإعراض عنها[2].

لقد عاش الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى حياته كلها زاهداً؛ عندما كان فقيراً، كان زاهداً فقدم الدنانير التي معه إلى اللصوص حين اعترضوا قافلته في رحلتها من جيلان إلى بغداد، وعندما أقبلت عليه الدنيا، كان زاهداً فيها ولم يعرها التفاتاً ولم يسمح لها أن تتجاوز يده إلى قلبه أبداً، فكان يطعم الطعام ويكسي العريان وينفق بلا حساب، حتى قال عنه ابن الجوزي: «ظهر له صيتٌ بالزهد وكان له سمت وصمت»[3].

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٤٢،

(٢) التعريفات ص ١٥٣.

(٣) المنتظم لابن الجوزي جـ ١ ص ٢١٩.

وكان رحمه الله تعالى يقول: «من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا، ومن أراد الله تعالى فعليه بالزهد في الآخرة، فيترك دنياه لآخرته، وآخرته لربه... فإذ تم له ذلك زالت الغموم والأحزان من القلب، والكرب من الحشا، وجاءت الراحات والطيب والأنس بالله تعالى»[1].

ويقول: «يا أخي بالله عليك، لا تغتر بطول الحياة وكثرة المال والجاه، فإن بين تقلب الليل والنهار أموراً عجيبة وحادثات غريبة، خذ حذرك فها هي الدنيا قد جردت سيفها لقتلك فإنها غدارة مكارة، إذا أمكنتها الفرصة شنَّت عليك الغارة، كم غرّت مثلك بخلب برقها اللامع، وأوسعت له المطامع، فأصبح لأمرها طائعاً وليمينها سامعاً ولمرادها وهواها متابعاً، ثم سقته على غرة منه كأساً من سمها الناقع، فما أحس إلا والديار منه بلاقع»[2].

ويقول: «يا غلام، قدم الآخرة على الدنيا فإنك تربحهما جميعاً، وإذا قدمت الدنيا على الآخرة خسرتهما جميعاً عقوبة لك.. المؤمن يعمل لدنياه وآخرته، يعمل لدنياه بقدر ما يحتاج إليه، يقنعه منها كزاد الراكب الجاهل كل همه الدنيا، والعارف كل همه الآخرة ثم المولى»[3].

«الدنيا بحر، والمركب الشرع، والملاح لطف الله عز وجل،

---

(١) فتوح الغيب: المقالة ٥٤.

(٢) قلائد الجواهر ص ٦٠.

(٣) الفتح الرباني: المجلس ١٣.

فمن شذ عن متابعة الشرع غرق في الدنيا، ومن آوى إلى مركب الشرع وأقام هنالك، استنابه الملاح وسلّم المركب بما فيه إليه، وهكذا من ترك الدنيا واشتغل بالعلم وصبر على الأذى صار محبوب الشرع.. لله عز وجل عباد يسميهم أطباء يحييهم في عافية، ويميتهم في عافية، ويدخلهم الجنة في عافية»[1].

«اجعل آخرتك رأسمالك ودنياك ربحه، واصرف زمانك أولاً في تحصيل آخرتك، ثم إن فضل من زمانك شيء فاصرفه في دنياك.. إذا أطعت الله عز وجل بزهدك في الدنيا كنت من خواص الله عز وجل وأهل طاعته ومحبته، وحصلت لك الآخرة وهي الجنة وجوار الله عز وجل، وخدمتك الدنيا وأتاك قسمك الذي قُدر لك منها»[2].

«الدنيا كشجرة: الصبر أول ثمرتها مر وآخرها حلو، لا يصل المرء إلى حلاوتها حتى يتجرع مرارتها، فمن صبر على بلائها حلا له نعيمها، إنما يعطى الأجير أجره بعد عرق جبينه وتعب جسده.. فإذا صبر العبد على أداء أوامر الرب عز وجل وانتهاء نواهيه والتسليم لما يجري به القدر أعقبه الله عز وجل بذلك طيب العيش في آخر عمره»[3].

---

(١) الفتح الرباني: المجلس ٦٢، ص ٣٣٧.

(٢) فتوح الغيب: المقالة ٣٦.

(٣) المصدر السابق: المقالة ٤٥.

٧) الـرضـا:

الرضا هو رضا القلب بمرٍّ القضاء، قضاء الله سبحانه وتعالى، وهو صفة ملازمة لجميع أرباب الطريق.

كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى راضياً بحكم ربه عز وجل في أحواله كلها كان يقول: «أَحْسِنِ الأدب، والزم الصمت والصبر والرضا والموافقة لربك عز وجل.. فهو حكيمٌ في فعله متقن في صنعه لا تناقض في فعله، ولا يفعل شيئاً عبثاً.. الزم الموافقة وحسِّن الظن بربك عز وجل والصبر الجميل فما كان لك لا تُسلبه، وما ليس لك لا تُعطاه.. ولا تسـأم من دعائه ولا تتهمه في تأخير الإجابة، فإنك إن لم تربح لم تخسر، وإن لم يجبك عاجلاً أثابك آجلاً، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: العبد يرى في صحائفه حسنات يوم القيامة لا يعرفها فيقال له إنها بدل سؤالك في الدنيا الذي لم يقدر قضاؤه فيها، أو كما ورد»[1].

٨) الـحـب:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾[2]. ويقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعـزة على الكافـرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله

---

(١) فتوح الغيب: المقالة ٣٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.

يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم﴾[1]. ويقول عز من قائل: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[2] ﴿إن الله يحب المتقين﴾[3] ﴿والله يحب المحسنين﴾[4] ﴿والله يحب الصابرين﴾[5] ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾[6] ﴿إن الله يحب المقسطين﴾[7].

الحب هو شعار السالكين الصادقين، وهو منبع الصفات الحميدة كلها في أصحاب الطريق، هو منبع الصبر إذا ما ابتلوا، وهو منبع الشكر إذا ما أنعم عليهم، وهو منبع الرضا بما يقدر عليهم، لقد فنوا في محبوبهم، فأصبحت إرادتهم إرادته، لا يريدون إلا ما يريد، ولا يفعلون إلا ما يأمر به، ولا ينتهون إلا عما ينهى عنه، لا ينظرون إلى سواه، ولا يفكرون إلا فيه؛ قال: إنه يحب التوابين فتابوا، ويحب المتطهرين فتطهروا، ويحب المتقين فاتقوا، ويحب المحسنين فأحسنوا، ويحب الصابرين فصبروا، ويحب المتوكلين فتوكلوا، ويحب العادلين فعدلوا.

ويقول رحمه الله تعالى: «... ألم تعلم أن الله عز وجل

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٣) سورة التوبة، الآية ٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

(٦) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٧) سورة المائدة، الآية ٤٢.

غيور، خلقك له وتروم أن تكون لغيره، أما سمعت قوله عز وجل: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أما سمعت قول النبي ﷺ: إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر افتناه، قيل يا رسول الله: وما افتناه؟ قال: لم يذرْ له مالاً ولا ولداً. وذلك لأنه إذا كان له مال وولد أحبهما، فيصير مشتركاً بين الله عز وجل وبين غيره، والله تعالى لا يقبل الشريك.. . وحينئذ لا يضر القلب الأسباب من المال والولد والأهل والأصحاب والحكم والعلم فإن جميع ذلك يكون خارج القلب، فلا يغار الله عز وجل.. وتكون كرامة من الله لعبده، ونعمة ورزقاً ومنفعة منه للواردين عليه..»[1].

هذا الحب العميق الصادق لله تعالى ولرسوله ﷺ أنتج في الأمة الإسلامية شعراً ليس له مثيل في الأمم الأخرىٰ، هو الشعر الصوفي، وأنتج شعراء أفذاذاً خلَّدهم التاريخ وتُرجمت أشعارهم إلى كثير من اللغات العالمية الأخرى، كرابعة العدوية، وأبي الحسن النوري، وأحمد الرفاعي، وسمنون المحب والشبلي وذي النون المصري، وتقي الدين بن تمام وابن الفارض وفريد الدين العطار، وسعدي الشيرازي، وحافظ الشيرازي، وجلال الدين الرومي، ومحمد إقبال.

وكان للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى القِدْح المعلَّى في هذا المجال، وسنتعرف إلى بعض أشعاره عند البحث في كتبه ومؤلفاته إن شاء الله تعالى.

---

(١) فتوح الغيب: المقالة ٣٢.

٩) المجـاهـدة:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾[١].

يقول الجرجاني في تعريفاته: «المجاهدة في اللغة المحاربة، وفي الشرع: محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع»[٢].

لا يمكن للسالكين في الطريق أن يصلوا إلى غايتهم، وهي رضا ربهم عز وجل إلا بالمجاهدة، مجاهدة نفوسهم، لأنَّ النفوس قبل مجاهدتها وترويضها تكون أمَّارةً بالسوء؛ والنفس غير الروح، الروح، كما يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، سماويةٌ غيبية بينما النفس ترابية أرضية. يقول البوصيري في بردته:

وخالف النفسَ والشيطانَ واعْصِهما
وإنْ هُمَا محَّضاكَ النصح فاتَّهِم

والنفس، قبل مجاهدتها، تكون متعلقةً بشهواتها وأهوائها، وهي النفس الأمّارة بالسوء، لذلك لا بد من مجاهدتها بالذكر والطاعات والإكثار من النوافل، لكي ترتقي إلى النفس اللوامة، فالنفس المطمئنة فالنفس الراضية فالنفس المرضية فما فوقها.

يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «الدنيا كلها حكمة وعمل، والآخرة كلها قدرة، الدنيا مبنية على الحكمة، والآخرة مبنية على القدرة، فلا تترك العمل في دار الحكمة، اعمل بحكمته ولا تتكل على قدرته، لا تجعل القدر عذراً لنفسك فتحتج

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩. (٢) كتاب التعريفات للجرجاني ص ٢٥٩.

به وتترك العمل، العذر بالقدر حجة الكسالى، إنما يكون العذر بالقدر في غير الأوامر والنواهي[1].

ويقول أيضاً: «كلما جاهدت نفسك وغلبتها وقتلتها بسيف المخالفة أحياها الله عز وجل، وكلما نازعتك وطلبت منك الشهوات واللذات، تعود إلى المجاهدة ليُكتب لك ثواب دائم، وهو معنى قوله عز وجل: ﴿واعبد ربك حتى يأتيكَ اليقين﴾[2]. لأن العبادة كلها تأباها النفس وتريد ضدها إلى أن يأتي اليقين، يعني الموت.. فإذا دام المؤمن على هذه المجاهدة إلى أن يأتيه الموت، أعطاه الله عز وجل ما ضمن له من الجنة، لقوله تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾»[3].

ويقول رحمه الله تعالى: «لأهل المجاهدة والمحاسبة وأولي العزم عشر خصال جربوها، فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى وصلوا إلى المنازل الشريفة: **الأولى: أن لا يحلف بالله عز وجل** صادقاً ولا كاذباً، **الثانية: أن يجتنب الكذب** لا هازلاً ولا جاداً، **الثالثة: أن يحذر أن يعد أحداً شيئاً فيخلفه، الرابعة: أن يجتنب أن يلعن شيئاً** من الخلق أو يؤذي ذرة فما فوقها، **الخامسة: أن يجتنب الدعاء على أحد** من الخلق وإن ظلمه، **السادسة: أن لا يقطع الشهادة على أحد** من أهل **القبلة** بشرك ولا كفر ولا نفاق (أي

(١) الفتح الرباني: المجلس ٥١.
(٢) سورة الحجر، الآية ٩٩.
(٣) فتوح الغيب: المقالة ٦٤ بتصرف، والآية من سورة النازعات: ٤٠ و ٤١.

ألا يكفر أحداً من المسلمين)، فإنه أقرب للرحمة وأعلى في الدرجة وأبعد عن الدخول في علم الله تعالى؛ **السابعة: أن يجتنب النظر إلى المعاصي** ويكف عنها جوارحه؛ **الثامنة: يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤونة** صغيرة ولا كبيرة[1]، فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ **التاسعة: ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين** ولا يطمع نفسه فيما في أيديهم، فإنه العز الأكبر واليقين الصافي والتوكل الشافي الصريح، وهو باب من أبواب الثقة بالله عز وجل، وهو باب من أبواب الزهد وبه ينال الورع ويكمل نسكه، **العاشرة: التواضع** لأن به يستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق، وهذه الخصلة أصل الخصال كلها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين وهي كمال التقوى، والتواضع هو أن لا يلقى العبد أحداً من الناس إلا ويقول عنه: عسى أن يكون عند الله خيراً مني..»[2].

١٠) الرحمة:

يقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[3].

---

(١) أي أن لا يحمّل أحداً من الخلق شيئاً.

(٢) فتوح الغيب: المقالة ٧٨ بتصرف.

(٣) رواه أبو داود والترمذي (جامع الأصول ٤ : ٥١٥ رقم ٢٦١٥).

الطريقة تصفّي القلب من الأكدار فتحل فيه الرحمة بالعباد، وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى رحيماً بالخلق أجمعين، وبخاصة الفقراء منهم. انظر إليه يوصي ابنه عبد الرزاق فيقول: «حسبك من الدنيا شيئان: صحبة فقير وحرمة وليّ، اصحبْ الأغنياء بالتعزز، والفقراء بالتذلل»(١).

وكان يقول رحمه الله تعالى: «سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق، وجعله أكبر همي، إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء، أجرتي قد حصلت لي عند ربي عز وجل، ما أنا طالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة، ولا ما سوى الحق عز وجل، فرحي بفلاحكم، وغمي لهلاككم»(٢).

ويقول: «لو أمكنني دخلت مع كل واحد منكم القبر وجاوبت عنه منكراً ونكيراً، رحمة وشفقة عليكم»(٣) «يا خلق الله، إني أطلب صلاحكم ومنفعتكم في الجملة، أتمنى غلق أبواب النار وأن لا يدخلها أحدٌ من خلق الله عز وجل، وفتح أبواب الجنة، وأن لا يمنع من دخولها أحد من خلق الله عز وجل: وإنما تمنيت هذه الأمنية لاطلاعي على رحمة الله عز وجل وشفقته على خلقه»(٤).

---

(١) الفيوضات الربانية ص ٢٨.

(٢) الفتح الرباني: المجلس ٦.

(٣) المصدر السابق: المجلس ٦٢ ص ٣٦٧.

(٤) المصدر السابق: المجلس ٤٩.

ويقول رحمه الله تعالى: «كيف يرحمون العصاة، وهم موضع الرحمة، ويقول: إذا رأى أحدكم ولده أسيراً في يد كافر أليس يجتهد في تخليصه، فهكذا العارف، الخلق جميعهم كالأولاد له»[1].

وثمة أخلاق أخرى على السالك في الطريق أن يكون متحلياً بها **كالحلم والكرم والورع والتقوى**، وقد كان للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى الحظ الوافر من كل خصلة منها، وقد رأينا صوراً من حلمه منذ بدء سلوكه في الدرس والتحصيل.

أما كرمه فقد رأينا صوراً كثيرة منه سابقاً، وكيف أنه لا يرد سائلاً ولو بأحد ثوبيه، وأنه كان يحب إطعام الطعام، وإذا أتاه ألف دينار لا يبيتها عنده، وأن غلامه مظفراً كان يقف على باب داره وعلى يده طبق فيه خبز وهو ينادي ويقول: من يريد الخبز، من يريد العشاء، من يريد المبيت[2].

أما ورعه وتقواه فهما أشهر من أن يوصفا، وقد تكلمنا عنهما سابقاً، كثيراً.

وثمة صفة خاصة بالشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وهي **الهيبة**، فقد هابه الكبراء، والأمراء والعلماء، حتى إن أصحابه كانوا لا يستطيعون إدامة النظر إليه من هيبته. لذلك قال مفتي العراق

---

(١) الفتح الرباني: المجلس٥٣.

(٢) قلائد الجواهر ص ٨.

محمد بن حامد البغدادي: كان الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه كثير الهيبة، تلوح الهيبة من سمته».

وكان الناس يحضرون مجالسه ودروسه فيجلسون متأدبين خاشعين، وقال ابن رجب في كتابه «الذيل على طبقات الحنابلة»: «حصل له القبول التام من الناس، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته وهابه الملوك فمن دونهم»[1].

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه: «... وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة يصدعهم بذلك على رؤوس الأشهاد ورؤوس المنابر وفي المحافل.. ولا يأخذه في الله لومة لائم»[2].

وقد عطس الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، يوم الجمعة، في المسجد فشمته الناس، حتى سمع من في الجامع ضجة عظيمة، وهم يقولون: يرحمك الله ويرحم بك، وكان الخليفة المستنجد بالله ابن المقتفي لأمر الله في مقصورة الجامع، فقال: ما هذه الضجة؟ فقيل له: قد عطس الشيخ عبد القادر، فهاله ذلك»[3].

السماع:

بعد أن تعرفنا على الركائز الأخلاقية للطريقة القادرية، لنتعرف الآن على رأي الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في السماع.

---

(١) ص ١٣٤. (٢) قلائد الجواهر ص ٨. (٣) المصدر السابق ص ١٩.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أما الاستماع إلى القصائد الملحنة والاجتماع عليها فأكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي.. وأمثالهم من المتأخرين كالشيخ عبد القادر والشيخ عدي بن مسافر... فإنهم لم يحضروا السماع البدعي بل كانوا يحضرون السماع الشرعي، سماع الأنبياء وأتباعهم كسماع القرآن...»[1].

أما الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى فيقول: «القلب هو المؤمن، هو الموحِّد، هو المخلص، هو المتقي، هو الورع، هو الزاهد، هو الموقن، هو العارف، هو العامل. هو الأمير ومن سواه جنوده وأتباعه، إذا قلت: لا إله إلا الله، فقل أولاً بقلبك ثم بلسانك»[2].

«من كان ذاكراً لله عز وجل بقلبه فهو الذاكر، ومن لم يذكر بقلبه فليس بذاكر، اللسان غلام القلب وتبع له»[3].

ويقول رحمه الله تعالى: «.. فإن حضره - أي في وليمة العرس - منكر كالطبل والمزمار والعود والناي والشربوق والشبابة والرباب والطنابير التي يلعب بها الترك لا يجلس هناك، لأنَّ جميع ذلك محرم، وأما الدف فيجوز استعماله في النكاح، وسماع القول بالقصب والرقص مكروه. كما فسَّر بعض المفسرين قوله عز

(١) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف ص ٥٣٢ وما بعدها.
(٢) الفتح الرباني: المجلس ١٥.
(٣) المصدر السابق: المجلس ٢٣.

وجل: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾[1] فقال: هو الغناء والشعر»[2].

«أما إنشاد الأشعار المتعرية من الملاهي، على ضربين: مباح ومحظور، فالمباح ما لا سخف فيه، والمحظور ما كان فيه سخف، فأما ما ينضم إلى الملاهي فمحظور، سواء خلا عن السخف أو قارن السخف»[3].

«على المريدين أن لا يتكلّفوا السماع، ولا يستقبلوه بالاختيار، فإذا اتفق السماع - أي بدون قصد - فمن حق المستمع أن يقعد بشرط الأدب، ذاكراً لربه بقلبه، مشتغلاً بحفظ قلبه من طوارق الغفلة والنسيان.. ولو صدقوا في قصدهم وتصرفهم، لما انزعجوا في قلوبهم وجوارحهم - أي لما طربوا - بغير سماع كلام الله عز وجل، إذ هو كلام محبوبهم وصفته، وفيه ذكره وذكر الأولياء الأوّابين، والآخرين والماضين والغابرين، والمحب والمحبوب، والمريد والمراد وغير ذلك»[4].

فرأي الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في السماع إذن هو أن لا يتعمد حضور السماع، أما إذا حصل اتفاقاً فلا بأس به، وإن كان سماع القرآن أفضل منه، فهو لا يحرّم السماع لأن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يحرمه. فهو من المباح، يقول الشاعر:

---

(١) سورة لقمان، الآية ٦.

(٢) الغنية جـ ١ ص ٢٠.

(٣) الغنية جـ ١ ص ٣٥.

(٤) الغنية جـ ٢ ص ١٧٩.

ومن يـك وجده وجـداً صحيحاً
فلم يحتــج إلى قــول المغـني
لـــه مــن ذاتـــه طـــرب قــديـم
وسـكـــر دائـم مـــن غـيـــر دنٍّ

الشيخ المرشد:

الطريق المستقيم لا بد له من شيخٍ مرشد يدلُّ عليه السالكين لئلا تتفرق بهم السبل فيضلوا عن سواء السبيل. هذا هو رأي الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وخلفاؤه الراشدون ومن تبعهم بإحسان، والولاة الذين يولونهم الأمصار هم الذين يقومون بهذه المهمة، أما بعد أن افترق السلطان والقرآن، فقـد أصبح لا بـد للقرآن من هـداة ومرشدين، يرشدون إليه ويتولون أمر تابعيه؛ ولو كان الأمر يتم بدون ذلك، ولو كان يؤخذ من الكتب فقط، لما أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل، ولما كان العلماء ورثـة الأنبياء، ولمـا أنشئت المدارس والجامعات.

يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى عن صفة الشيخ المرشد: «لا يجوز لشيخ أن يجلس على سجادة النهاية ويتقلَّد بسيف العناية حتى يكمل فيه اثنتا عشرة خصلة: اثنتان من صفات الله تعالى، وهما أن يكون الشيخ ستّاراً غفّاراً، واثنتان من صفات النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهما: أن يكون شفيقاً رفيقاً، واثنتان من صفات أبي بكر رضي الله تعالى عنه وهما: أن يكون صادقاً متصدقاً، واثنتان من صفات عمر بن الخطاب رضي

الله تعالى عنه وهما: أن يكون أمّاراً نهّاءً، واثنتان من صفات عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهما: أن يكون طعّاماً للطعام مصلياً بالليل والناس نيام، واثنتان من صفات علي رضي الله تعالى عنه وهما أن يكون عالماً شجاعاً»[1].

وقال رضي الله تعالى عنه: «يجب على الشيخ المسلّك أن يعاشر المريد بحكم النصيحة ويلاحظه بعين الشفقة ويلاينه بالرفق عند عجزه عن احتمال الرياضة، وأن يربيه تربية الوالدة لولدها، والوالد الشفيق الحليم اللبيب لولده وغلامه، فيأخذه بالأسهل، ولا يحمِّله ما لا طاقة له به، ثم يأمره بالأشد بعد أن يأخذ عليه العهد بالرجوع عن المعاصي، والدوام على طاعة الله تعالى، فإنَّ العهد له أصل جاءت به الأحاديث الشريفة عن النبي ﷺ في مبايعته للصحابة رضي الله عنهم، وأن يلقنه الذكر.

إذن فالشيخ المرشد يجب: **أولاً**: أن يكون قدوةً حسنة لمريديه، وللناس أجمعين، لذلك يجب أن يكون عالماً عاملاً مخلصاً صادقاً فاضلاً، متخلقاً بأخلاق أهل الطريق وصفاتهم جميعها، ذا هيبة وجلال لكي يؤثِّر في نفوس مريديه ويحملهم على الطريق وهو ليس معصوماً بل مقيداً بالكتاب والسنة.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه السلوك: «أما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن

---

(١) قلائد الجواهر ص ١٣.

عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسَّريّ السَّقَطي، والجنيد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين فهم لا يسوِّغون للسالك، ولو طار في الهواء أو مشى على الماء، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا كثير في كلامهم، كقول الشيخ عبد القادر في كتابه (فتوح الغيب): اخرج من نفسك وتنح عنها وسلِّم الكل إلى الله تبارك وتعالى. وامتثل أمره وانته نهيه، ولا تدخل الهوى قلبك. . قال الله تعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[1]»[2].

ثانياً: يجب أن يكون رقيباً على مريديه، يدلّهم على الطريق المستقيم، ويسلّكهم فيه، ويأخذ منهم العهد، بالمبايعة، على الالتزام به والسير عليه، ثم يراقب سيرهم بعد ذلك، فينبه الغافل، ويذكر الناسي، ويرشد الضال، وهو يضع قاعدة السير لمريديه فيقول لكل واحد منهم: «أوصيك بتقوى الله وطاعته، ولزوم ظاهر الشرع، وسلامة الصدر، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه، وبذل النَّدى، وكف الأذى، وحفظ حرمات المشايخ، والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة، وحمل الأذى، وملازمة الإيثار، والمعاونة في الدين والدنيا. وحقيقة الفقر أن لا تفتقر إلى من هو مثلك، وحقيقة الغنى أن تستغني عمن هو

---

(١) سورة صٓ، الآية ٢٦.

(٢) كتاب السلوك لابن تيمية ص ٥١٦ وما بعدها.

مثلك، والتصوف ما أُخذ عن القيل والقـال، ولكن أُخذ عن الجوع، وقطع المألوفات والمستحسنات؛ ولا تبدأ الفقير بالعلم، وابدأه بالرفق، فإنَّ العلم يوحشه والرفق يؤنسه، والتصوف مبنيٌّ على ثمان خصال: السخاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام، والرضا لإسحاق عليه السلام، والصبر لأيوب عليه السـلام، والإشارة لزكريا عليه السلام، والغربـة ليحيـى عليه السـلام، والصوف لموسى عليه السلام، والسياحة لعيسى عليه السلام، والفقر لسيدنا محمد، صلى الله عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وآل كلٍّ وصَّحب كلٍّ وسلَّم أجمعين»[1].

أسس الطريقة القادرية:

يضع الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى **سبعة** أسس لطريقته هي: **المجاهدة والتوكل وحسن الخلق والشكر والصبر والرضا والصدق**، ويطلب من تلاميذه ومريديه أن يراعوها ويسيروا عليها لكي يستطيعوا السلوك في الطريق.

ويقول رحمه الله تعـالى: ١) **أما المجاهدة** فالأصل فيها قول الله عز وجل: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[2] وقول النبي ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». وكل من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من الطريقة شمة.. والأصل في المجاهدة مخالفة الهوى، وأن يلجم نفسه بلجام

---

(١) فتوح الغيب: المقالة ٧٥ بتصرف.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

التقوى والخوف من الله عز وجل ولا تتم المجاهدة إلا بالمراقبة، وهي أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك. ولا تتم المراقبة إلا بمعرفة خصال أربع: ١ ـ معرفة الله تعالى. ٢ ـ معرفة عدو الله إبليس. ٣ ـ معرفة نفسك الأمارة بالسوء. ٤ ـ معرفة العمل لله تعالى، وهي أن يأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه.

٢) **وأما التوكل** فالأصل فيه قول الله عز وجل: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[1] وحقيقة التوكل تفويض الأمور إلى الله عز وجل... فيقطع العبد أن لا تبديل للقسمة، فما قُسم له لا يفوته، وما لم يُقدر له لا يناله. فيسكن قلبه إلى ذلك، ويطمئن إلى وعد مولاه..

والتوكل ثلاث درجات: وهي التوكل ثم التسليم ثم التفويض؛ فالتوكل يسكن إلى وعد ربه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه... أما الحركة الظاهرة التي هي الكسب بالسنة فلا تنافي توكل القلب بعدما يتحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى في قلبه، لأن محل التوكل القلب وهو تحقيق الإيمان فمن أنكر الكسب فقد أنكر السنة، ومن أنكر التوكل فقد أنكر الإيمان، فإن تعسّر شيء من الأسباب فبتقدير الله عز وجل، وإن تيسَّر شيء منها فبتيسيره عز وجل. يقول النبي ﷺ: «اعقلها وتوكل». رواه الترمذي.

٣) **وأما حسن الخلق** فالأصل فيه قول الله عز وجل لنبيِّه ﷺ

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

في كتابه المنزل عليه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] وما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (قيل يا رسول الله: أي المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال ﷺ: أحسنهم خلقاً).

الخلق الحسن أفضل مناقب العبد وبه تظهر جواهر الرجال، والإنسان متسور بخُلُقه مشهور بخَلْقه... وحسن الخلق مع الله عز وجل أن تؤدي أوامره، وتترك نواهيه، وتطيعه في الأحوال كلها من غير اعتقاد استحقاق العوض عليه، وتسلِّم جميع المقدور إليه من غير تهمة، وتوحده من غير شرك، وتصدقه في وعده من غير شك.

٤) وأما الشكر فالأصل فيه قوله عز وجل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[2]. وقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟.

وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع،.. وينقسم الشكر أقساماً: شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة؛ وشكر بالبدن والأركان وهو اتصافه بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب وهو انعكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة.. وفي الجملة، الشكر أن لا تعصي الله تعالى بنعمه.

٥) وأما الصبر فالأصل فيه قول الله عز وجل: ﴿يا أيها

---

(١) سورة القلم، الآية ٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٧.

الـذين آمنـوا اصبـروا وصـابـــروا ورابـطوا واتقـــوا الله لعلكم تفلحـون﴾[1].

والصبر على ثلاثة أضرب: صبر لله عز وجل، وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه، وصبر مع الله عز وجل، وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا، وصبر على الله عز وجل. وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والنصر، والثواب في الدار الآخرة... قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

٦) **وأما الرضا** فالأصل فيه قول الله عز وجل: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[2]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله عز وجل رباً»... واعلم أن كل من رضي بالقضاء استراح، وكل من لم يرض به طالت شقاوته وتعبه، ولا ينال من الدنيا إلا ما قسم له. فما دام هواه قاضياً عليه فهو غير راضٍ بالقضاء، لأنَّ الهوى منازع للحق عز وجل. فلا كان الهوى، وإذا كان فلا كنا.. وفي الجملة الراضي هو الذي لا يعترض على تقدير الله عز وجل».

٧) **وأما الصدق** فالأصل فيه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[3]. واعلم أن الصدق عماد الأمر،

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٠٠.

(٢) سورة البينة، الآية ٨.

(٣) سورة التوبة، الآية ١١٩.

وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة. وهو قوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾[1]. والصدق هو استواء السر والعلانية[2].

* * *

هذه هي الطريقة القادرية في التربية والسلوك، وهذه هي أسسها وقواعدها وأورادها، وهي لا تخرج عن الكتاب والسنة، وتجعل الشريعة حاكمة على الحقيقة، والفقه هو الدليل الذي يسير على ضوئه التصوف. كما أنها تدعو إلى مكارم الأخلاق والنأي عن سفاسفها، وإلى حسن التعامل بين الناس، وإلى أن يتخلقوا بأخلاق المجتمع الإسلامي الأول مجتمع الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ليكونوا خير أمة أخرجت للناس مثلها مثل الطرق السنية كلها.

وقد بيّن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى حقيقة التصوف كما يراه، فهو لا يجيء بلبس الصوف وتصفير الوجوه ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما هو مجاهدة وعمل وإخلاص وهو يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل[3]. وأخضع التصوف للفقه. فكل حقيقة، في نظره، لا تشهد لها الشريعة هي زندقة. ومنع

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

(٢) الغنية: جـ ٢ ص ١٨٢ وما بعدها باختصار شديد.

(٣) الفتح الرباني: المجلس ٢٥.

الشريعة من أن تدور في فلك السياسة. وهو البلاء الذي يجر الخراب على السياسة والشريعة كليهما، لذلك كان ينكر على علماء السوء الذين يصحبون الحكام والملوك ويخضعون لهم الشريعة ونصوصها ويؤولون لهم أحكام الشرع. فكان يقول لهم: «يا خونة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها.. اللهم تب عليّ وعليهم وخلصهم من ذل النفاق وقيد الشرك»[1].

وكان رحمه الله تعالى ينهى المريدين من اعتقاد العصمة في شيوخهم فيقول: «وإذا ظهر له من الشيخ ما يكره في الشرع، استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة... ولا يعتقد فيه العصمة»[2].

أما حلقات الذكر التي تقام، اليوم، في الطريقة القادرية وما يرافقها من سماع القصائد الملحنة بألحان خاصة ومقامات خاصة، فهي لم تكن في الأسس التي وضعها الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى لطريقته، بل كان يكرهها، كما رأينا، ويفَضِّل عليها سماع القرآن الكريم. ولعل شيوخ الطريقة الذين أتوا بعده، هم الذين وضعوها وأرسوا قواعدها.

---

(١) كتاب رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن الندوي ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) الغنية: جـ ٢ ص ١٦٤.

ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام): «كان الشيخ عبد القادر يربي مريديه ويحاسبهم ويشرف عليهم فأصبحوا يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان، وظل بينهم وبين الشيخ رباط وثيق عميق، رباط روحي ديني لا يهن ولا ينحل فهو ميثاق لا ينقض، وكان الشيخ يجيز كثيراً منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله، ويربون النفوس ويحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق.. وكان لخلفائه وتلاميذه فضل كبير في المحافظة على روح الإسلام وشعلة الإيمان وحماسة الدعوة والجهاد وقوة التمرُّد على الشهوات، ولولاهم لابتلعت المادية هذه الأمة وانطفأت شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها، وكان لهم أيضاً فضل كبير في نشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تصل إليها جيوش المسلمين، وانتشر بهم الإسلام في إفريقيا والهند وأندونيسيا والصين وجزر المحيط الهندي.

ولما استولى التتار على العالم الإسلامي. قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين يجهل التاريخ أسماء كثير منهم. يندسون في هؤلاء الغلاظ الشداد يحببونهم بالإسلام، ويدعونهم إليه حتى أسلم جلّهم أو كلهم. وأصبحوا حماةً للإسلام بعد أن كانوا أعداءه، وقد أبدى توماس أرنولد دهشته من هذا الحدث في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)»[1].

---

(١) كتاب رجال الدعوة والفكر في الإسلام للندوي ص ٢٨٢ وما بعدها.

الفصل الرابع

كرامات الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى

الكرامة هي كلُّ أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوىٰ النبوة يظهره الله تعالى على أيدي أوليائه، بينما المعجزة هي كل أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد نبي تأييداً لنبوته. وما كان خلاف ذلك فهو استدراج من الشيطان الرجيم. وكل كرامة لولي، هي في الوقت نفسه معجزة للنبي الذي يتبعه.

وقد ثبتت الكرامة بالقرآن الكريم وبالسنة المطهرة، يقول الله سبحانه وتعالى عن مريم ابنة عمران: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾[1] ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾[2] وهما كرامتان للسيدة مريم لأنها ليست نبية. وقصة الذي عنده علم من الكتاب مع سيدنا سليمان عليه السلام وإحضاره عرش بلقيس قبل ارتداد الطرف. وقصة أهل الكهف وكلبهم، وقصة ذي القرنين، وقصة الرجل الصالح مع سيدنا موسى عليه السلام، كلها كرامات ثابتة بالقرآن الكريم. وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة تثبت وجود الكرامة، كحديث أصحاب الغار، وحديث جُريج الراهب، وحديث أسيد بن حضير وعبّاد بن بشر

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٧.

(٢) سورة مريم، الآية ٢٥.

رضي الله تعالى عنهما؛ وحديث أم أيمن رضي الله تعالى عنها وسفرها وهي صائمة. وقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا سارية الجبل، وكثير غيرها.

وقد قال الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي صاحب المغني: «لم أسمع عن أحد يُحكى عنه من الكرامات أكثر مما يُحكى عن الشيخ عبد القادر»(١).

«وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الشافعية أنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ عبد القادر، فإن كراماته نقلت بالتواتر»(٢).

«ونقلت من خط السيف بن المجد الحافظ: سمعت الشيخ الزاهد علي بن سلمان البغدادي المعروف بالخباز برباطه بالجانب الغربي من بغداد يحكي عن الشيخ عبد القادر الجيلي فيقول: «وناهيك به فإنه صاحب المكاشفات والكرامات التي لم تنتقل لأحد من أهل عصره»(٣).

وقد ذكر المؤلفون القدماء مثل محمد التادفي في «قلائد الجواهر»، وعبد الله اليافعي في «أسنى المفاخر»، ونور الدين اللخمي في «بهجة الأسرار» وغيرهم كثيراً من الكرامات للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وتابعهم فيها محمد العيني، في كتابه

---

(١) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب تحت رقم ١٣٤.
(٢) المصدر السابق وكتاب سير النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٤٣.
(٣) كتاب الذيل لابن رجب تحت رقم ١٣٤.

(الشيخ عبد القادر الكيلاني). ولن أفصِّل في هذه الكرامات، مثل عصره الدراهم التي أرسلها إليه الخليفة المستنجد بالله بيديه حتى سال منها الدم فردها إليه، ومثل رميه بقبقابه على اللصوص الذين سطوا على قافلةٍ لجماعة من التجار وهم بعيدون عن بغداد بمسافة كبيرة بعد أن نذروا لله تعالى أن يعطوا الشيخ عبد القادر شيئاً من المال إذا أنقذهم الله تعالى من هؤلاء اللصوص، فهرب اللصوص وسلمت القافلة، وغيرها مما هو مبسوط في الكتب سالفة الذكر، لأن هذه الكرامات ليست مؤيدةً بسند واضح، ولأنَّ ثبوتها لا يزيد في مكانة الشيخ عبد القادر شيئاً، وعدم ثبوتها لا يقدح فيه شيئاً أيضاً، والكرامة التي هي أكبر من هذه الكرامات كلها حتى لو ثبت وجودها، هو إسلام آلاف المشركين والكفار، وتوبة عشرات ألوف العاصين، والفاسقين على يديه. وهذا مما كان هو نفسه يعتزُّ به كثيراً، ويقصُّه على مستمعيه وهو في غاية الانشراح والسرور فيقول: «أراد الله عز وجل مني منفعة الخلق فقد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى وتاب على يدي من العيارين والمسالحة أكثر من مائة ألف. وهذا خير كثير».

ولكنني سأذكر شيئاً من مكاشفاته رحمه الله تعالى، وهي تدخل في باب الفراسة أو الاستشعار عن بعد أو قراءة الأفكار، وهي أشياء قد أثبتها العلم الحديث، وأثبتها القرآن الكريم، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ في ذلك لآيات للمتوسمين﴾[1] أي للمتفكرين المتفرسين الذين يعرفون حقائق الأشياء

---

(١) سورة الحجر، الآية ٧٥.

بسماتها[1]. وأيَّدها الحديث الشريف إذ يقول النبي ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». رواه الترمذي[2].

وقبل أن يحتج الذين لا يعترفون إلا بالعلم والعقل والتجربة في أمور هذه الدنيا جميعها، أسوق إليهم هذه الفقرات من المحاضرة التي ألقاها العالم الروسي (فلايل كازنا تشوف) في المؤتمر العالمي لمادة (البارابسيكولوجيا) ـ أي نظير علم النفس أو ما وراء النفس ـ الذي انعقد في باريس مؤخراً، والذي كان يبحث في الطاقات الإنسانية الخارقة، وقد نشرتها صحيفة الاتحاد الإماراتية بتاريخ ٢٩/١١/١٩٩٠ وقد افتتح العالم المذكور محاضرته بقوله: «راقبوا علم البارابسيكولوجيا قبل أن يدمر العالم، فقد ثبت علمياً أنَّ الجسم البشري يمتلك طاقة بيولوجية ـ أي حيوية ـ وحواسية هائلة، وهذا مما يجعل التأثير الفكري ممكناً عن بعد مئات وحتى آلاف الكيلومترات، ومن هنا مكمن الخوف من إمكانية استخدام هذا السلاح العلمي الخطير عن طريق المافيا أو الشبكات التخريبية أو الجيوش النظامية نفسها، يمكن بواسطة التأثير الفكري عن بعد. مثلاً تخريب الأَنظمة المعلوماتية أو المصرفية أو المواصلاتية في بلد ما بأكمله، يمكن تعطيل وحدات عسكرية عبر إعطاء أوامر مضادة لأَوامر القيادة. بالتأثير الفكري عن بعد يتحول الإنسان أو آلاف الناس إلى مشلولي الإرادة ينساقون إلى تنفيذ جميع ما يطلبه منهم المسيطرون عليهم فكرياً. . لقد

---

(١) تفسير صفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين مخلوف.

(٢) جامع الأصول جـ ٢ ص ٢٠٥ رقم ٦٨٤.

تبيَّن أن لزمان ومكان الولادة، بالقياس على أفلاك معينة ـ أي أبراج النجوم ـ تأثيراً مباشراً في حياة الإنسان الجسدية والعقلية. . كما تبيَّن لنا أن هناك حقولاً بيولوجية حول كل إنسان وهو ما يفسِّر ظاهرة التأثير عن بعد. وقد قمنا بمئات التجارب التي تثبت ذلك. وإليكم واحدة منها: وضعنا خلايا بشرية من **طبيعة بيولوجية واحدة،** في وعاءين زجاجيين مستقلين ومقفلين. ثم أضفنا فيروساً ممرضاً إلى الوعاء الأول فمرضت خلاياه وبدأت تموت، وبعد وقت قصير بدأت خلايا الوعاء الثاني تمرض وتموت مع أنه ليس هناك أي اتصال بين الوعائين. وسبب ذلك أن الطبيعة البيولوجية لخلايا الوعائين واحدة، أي أن حقلهما المغناطيسي واحد، وقد أعدنا هذه التجربة عشرين ألف مرة فكانت النتيجة واحدة. كذلك بواسطة عزل الحقول المغناطيسية عن بعضها بعضاً استطعنا شفاء كثير من الأمراض المستعصية كسرطان الدماغ والتخلف العقلي. . وأجرينا اختبارات (تواصل اكسترا ـ حواس) بين عشر مدن روسية تتراوح المسافات بينها بين ألف وسبعة آلاف كيلومتر، فأعطينا صورة فوتوغرافية إلى أحد الأشخاص وطلبنا منه إرسالها إلى أشخاص آخرين في مدن أخرى على بعد آلاف الكيلومترات، فكانت النتائج أكثر من مدهشة[1]. . ولنجاح ذلك لا حاجة إلا لتدريب هؤلاء الأشخاص فقط، لأن لكل إنسان طاقة بيولوجية

---

(١) أي كان الشخص يضع الصورة أمامه ويستحضرها في ذهنه. ويفكر في الشخص الآخر الذي هو على بعد آلاف الكيلومترات منه، فكان الشخص الآخر يرى الصورة نفسها متمثلة في ذهنه.

حواسية هائلة. ولكننا وجدنا أن التواصل عن بعد يكون أفضل في ظروف فلكية معينة أهمها قوة الحد الأدنى للطاقة الشمسية». انتهى[1].

من الثابت في العلم أن في كل إنسان قوة نفسية تتألف من عنصرين، عنصر خِلْقي، يأتي مع الإنسان عند ولادته، ولا بد له فيه، وعنصر آخر ينمو بالمجاهدة والتدريب. والظاهر أن هذين العنصرين كانا قويين إلى أقصى درجات القوة عند الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، فقد ذكر كثير من المؤلفين أن نظرات الشيخ عبد القادر كانت قويَّة نفَّاذة، تؤثِّر في نفوس مشاهديه وسامعيه تأثيراً قوياً، حتى إنهم ما كانوا يستطيعون إدامة النظر إليه بسبب شدة هيبته وقوة نظراته. وما الهيبة نفسها إلا دليلاً على قوة شخصية الإنسان وعلى ارتفاع قوته النفسية، وقد رأينا سابقاً كيف أنَّ الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى قد أمضى السنين الطِّوال في التصبُّر والمجاهدة، مما جعل قوته النفسية هائلة جداً.

وإليكم الآن بعض مكاشفات الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى التي ذكرها بعض المؤلفين، ولا أظن، بعد ما ذكرته آنفاً أنَّ أحداً من الناس ينكرها أو يعترض عليها:

١) قال الحافظ ابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة»،

---

(١) وإذا قيل فما الفرق بين هؤلاء المتصفين بالكشف وبين الأولياء، أقول: الفرق هو الإيمان والاتباع، وأن كشف الأولياء يأتي سجية بلا تكلف، أما كشف هؤلاء فيحتاج إلى تدريب طويل.

«قال الشيخ تقي الدين بن تيمية: حدثني الشيخ عز الدين ابن إبراهيم الفاروقي أنه سمع الشيخ شهاب الدين عمر ابن محمد السهروردي قال: كنت قد عزمت على أن أقرأ شيئاً من علم الكلام، وأنا متردد هل أقرأ «الإرشاد» لإمام الحرمين أو «نهاية الإقدام» للشهرستاني أو كتاباً آخر، فذهبت مع خالي أبي النجيب ـ الشيخ عبد القاهر السهروردي ـ إلى الشيخ عبد القادر، وكان خالي يصلي بجنب الشيخ، فالتفت الشيخ عبد القادر وقال لي: يا عمر، ما هو من زاد القبر، ما هو من زاد القبر، فرجعت عن التفكير في علم الكلام، قال ابن تيمية: ورأيت هذه الحكاية معلَّقة بخط الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي رحمه الله. وذكر نحوه ابن النجار في تاريخه»[1].

٢) وجاء في كتاب «سير أعلام النبلاء»: «قرأت بخط الحافظ سيف الدين بن المجد: سمعت محمد بن محمود المراتبي، سمعت الشيخ أبا بكر العماد رحمه الله يقول: كنت قرأت في أصول الدين فأوقع عندي شكاً، فقلت: حتى أمضي إلى مجلس الشيخ عبدالقادر فقد ذُكر أنه يتكلم على الخواطر، فمضيت إليه وهو يتكلم، فقال: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة؛ فقلت في نفسي: هذا قاله اتفاقاً، فتكلم ثم التفت إلى ناحيتي فأعاده، فقلت: الواعظ قد يلتفت؛ فالتفت إليَّ ثالثة وقال: يا أبا بكر، فأعاد القول نفسه، ثم قال: قم قد جاء أبوك. وكان أبي غائباً، فقمت مبادراً، فإذا أبي قد جاء»[2].

---

(١) ابن رجب ص ١٣٤.   (٢) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٤٤٣.

٣) وجاء في المصدر السابق أيضاً: «قال الجبائي: كنت أسمع الحلية ـ أي «حلية الأولياء» لأبي نُعيم ـ على ابن ناصر فرقَّ قلبي وقلت: اشتهيت لو انقطعت للعبادة، ومضيت فصليت خلف الشيخ عبد القادر، فلما جلسنا نظر إليّ وقال: إذا أردت الانقطاع فلا تنقطع حتى تتفقه وتجالس الشيوخ وتتأدَّب».

٤) وفي المصدر السابق أيضاً: «قال أبو البقاء العكبري: سمعت يحيى بن نجاح الأديب يقول: قلت في نفسي أريد أن أحصي كم يقصُّ الشيخ عبد القادر شعر تائب، فحضرت المجلس ومعي خيط، وضعته تحت ثيابي، فكلما قص شعراً عقدت عقدة تحت ثيابي من الخيط، وأنا في آخر الناس، وإذا به يقول: أنا أحل وأنت تعقد»!!.

٥) وفيه أيضاً: «قال أحمد بن ظَفَر بن هبيرة: سألت جدي[1] أن أزور الشيخ عبدالقادر فأعطاني مبلغاً من الذهب لأعطيه، فلما نزل عن المنبر سلَّمت عليه وتحرجت من دفع الذهب إليه في ذلك الجمع، فقال: هات ما معك ولا عليك من الناس، وسلِّم على الوزير». وفي رواية كتاب «قلائد الجواهر»[2] أنه قال: «أمسك ما معك من الذهب، وسلِّم على جدك الوزير وقل له؛ لا حاجة لعبدالقادر فيما أرسلت فاردده إلى مستحقيه».

---

(١) جده هو عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة وزير الخليفة المقتفي لأمر الله والخليفة المستنجد بالله، كان عالماً أديباً تقياً صالحاً، حنبليَّ المذهب، وكان صديقاً للشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، فهو من معاصريه، ولد سنة ٤٩٩ هـ وتوفي سنة ٥٦٠.

(٢) ص ٤٠.

٦) وجاء في كتاب «قلائد الجواهر»[١] لمحمد بن يحيى التادفي: «قال أبو الفرج بن الحمامي: كنت كثيراً ما أسمع عن الشيخ عبد القادر أشياء أستبعد وقوعها وأنكرها، وكنت بحسب ذلك أتشوَّق إلى لقائه، واتفق لي أني مضيت إلى باب الأَزج لحاجة كانت لي هناك فلما عدت مررت بمدرسته والمؤذن يقيم الصلاة، فتنبهت بالإقامة على ما كان في نفسي، وقلت: أصلي العصر وأسلّم على الشيخ، وذهب عني أنني على غير وضوء، فصلى بنا العصر، فلما فرغ من الصلاة والدعاء، أقبل عليّ وقال: أي بني لو قدّمتني بالقصد على حاجتك لقُضيت لك، ولكن الغفلة شاملة لك بحيث قد صليت على غير وضوء. وقد سهوتَ عن ذلك، قال: فتداخلني العجب بحاله مما أدهشني وأذهل عقلي.. ومن حينئذ لازمت صحبته وتعلقت بمحبته وخدمته».

٧) وفي المصدر السابق[٢]: «قال الشيخ عبدالله محمد بن أبي الغنائم الحسيني: اجتمع يوماً في شهر الله المحرم سنة تسع وخمسين وخمسمائة في رباط الشيخ من الرواق بالحلبة، من الزوار له نحو من ثلثمائة رجل، فخرج رضي الله عنه من داخل الدار عجلاً وصاح بالناس: أسرعوا إليّ أسرعوا إليّ أسرعوا إليّ، فأسرعوا إليه حتى لم يبق في الرواق أحد، فسقط السقف وسلم الناس».

٨) وفي المصدر السابق[٣]: «قال أبو المظفر شمس الدين

---

(١) ص ٣٠.
(٢) ص ٣٢.
(٣) ص ٧٦.

يوسف بن قز علي بن عبدالله التركي العوفي البغدادي الحنفي سبط ابن الجوزي: قال لي خاصبك ـ اسم رجل تركي ـ: كان الشيخ عبد القادر يجلس يوم الأَحد، فبتُّ ليلة الأَحد، مهتماً بحضور مجلسه، فاتفق أني احتلمت وكانت ليلة باردة فقلت: ما أفوِّت مجلسه، وإذ انقضى اغتسلت، فجئت إلى المدرسة والشيخ على المنبر، فساعة ما وقعت عينه عليَّ قال: تحضر مجلسنا وأنت جنب وتحتج بالبرد، رضي الله عنه».

وهناك قصص أخرى كثيرة مثل هذه التي ذكرتها، مبسوطة في الكتب المذكورة آنفاً.



البَابُ الخامِسُ



الفَصل الأول

وَفَاتُهُ وَوَصَايَاهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

أجمع المؤرخون على أنَّ الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى قد توفي في سنة ٥٦١ هـ، ليلة السبت عاشر ربيع الآخر وقيل ثامن، وقيل حادي عشر ربيع الآخر سنة ٥٦١ هـ الموافق لسنة ١١٦٦ م وقيل لسنة ١١٦٥ م وله من العمر تسعون سنة وبالرجوع إلى المتخصص بتدقيق التواريخ الميلادية والهجرية ومقارنتها ببعضها بعضاً الأستاذ محمد رضوان المراد حفظه الله تعالى، أفاد: أنَّ أول شهر ربيع الآخر سنة ٥٦١ هـ هو يوم الخميس الموافق لـ ١١٦٦/٢/٣ م. فتكون وفاة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى ليلة السبت عاشر ربيع الآخر سنة ٥٦١ هـ الموافق لـ ١١٦٦/٢/١٣ م على التحقيق.

وقيل: إنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط[١].

وقد سأله ابنه الشيخ عبد العزيز عن مرضه فقال له: لا يسألني أحدٌ عن شيء، أنا أتقلّب في علم الله عز وجل، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وسأله ابنه الشيخ عبد الجبار، ماذا

---

(١) كتاب عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني ص ٧٦.

يؤلمك من جسمك؟ فقال رضي الله عنه: جميع أعضائي تؤلمني إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله عز وجل، وكان يقول رحمه الله تعالى: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت. وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: استعنت بلا إله إلا الله سبحانه وتعالى هو الحي الذي لا يموت ولا يخشى الموت، سبحان من تعزَّز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة: تعزز، فظل يرددها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة رضوان الله تعالى عليه[1].

وقد غسله أولاده وصلى عليه ابنه عبد الوهاب ومن حضر من أولاده وتلاميذه ومريديه ودفنوه في مدرسته ليلاً، وعندما انتشر نبأ وفاته في اليوم التالي احتشد أهل بغداد جميعهم في باب الأزج، وارتفعت صيحات البكاء والتنهدات، وحاولوا الدخول إلى المدرسة ليودعوا شيخهم الوداع الأخير، ولكن أبواب المدرسة ظلت مغلقة حتى علا النهار ففُتحت للناس[2].

وقبيل وفاته رحمه الله تعالى سأله ابنه عبد الوهاب الوصية فقال له: «عليك بتقوى الله عز وجل وطاعته. ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترج أحداً سوى الله، وكل الحوائج كلها إلى الله عز

---

(١) كتاب فتوح الغيب على هامش قلائد الجواهر ص ١٣١.

(٢) عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني ص ٧٧.

وجل، واطلبها جميعها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، وعليك بالتوحيد، التوحيد، التوحيد، جماع الكل التوحيد»[1]. ثم قال: «مرّوا بأخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغيّر، والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ»[2].

---

(١) الفتح الرباني ص ٣٧٣ وفتوح الغيب ص ١٣٠.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٤.

الفَصل الثاني
زَوْجَاتُهُ وَأَوْلَادُهُ وَذُرِّيَّتُهُ

زوجاته:

«يقول شيخ الصوفية في زمنه، الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي، وهو من تلاميذ الشيخ عبدالقادر رحمه الله تعالى: سمعنا أنَّ الشيخ عبدالقادر نُقل أنه قال: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت. فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله تعالى إليّ أربع زوجات، ما منهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة»[1] ـ أي أنهن من بنات الأغنياء، أو يعرفن صنعة من الصنعات ـ.

ولم يذكر أحد من المؤرخين تاريخ أول زواج له. ولكن صاحب «قلائد الجواهر» يقول إن ولده البكر هو عبد الله الذي ولد في سنة ٥٠٨ هـ، بينما الأستاذ محمد العيني يقول إنَّ ولده البكر هو عبد الوهاب[2] الذي ولد في سنة ٥٢٢ هـ. وقد رأينا أن عبد الوهاب هو الذي صلى على والده عند وفاته، فلماذا لم يصل عليه ابنه عبد الله إذا كان هو البكر؟!

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤١.

(٢) عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني ص ٧٥.

وسواءٌ صحت الرواية الأولى أو الثانية فإنَّ الشيخ عبدالقادر رحمه الله تعالى لم يتزوج إلا بعد أن تجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، وهي سنٌّ متأخرة بالنسبة لزواج أبناء ذلك العصر، وهو يدل على أنه لم يكن مستقراً في شبابه وعلى أنَّ أحواله لم تكن تساعده على الزواج، فقد كان فقيراً، وشريداً في صحارى العراق وخرب بغداد.

أولاده:

قال ابن النجار في تاريخه: «سمعت عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: وُلد لوالدي تسعة وأربعون ولداً، سبعة وعشرون ذكراً، واثنتان وعشرون بنتاً». ولكن لم يبق له منهم سوى ثلاثة عشر ذكراً ـ هم: عبد الله وعبد الوهاب وعبد الرزاق وعبد العزيز، وعبد الجبار وإبراهيم ومحمد وعبد الرحمن وعيسى وموسى وصالح وعبد الغني ويحيى وبنت واحدة ـ هي أمة الجبار فاطمة[1]، أي أنه ابتلي، رحمه الله تعالى، بفقد الأولاد، فقد توفي له من أولاده أربعة عشر ذكراً وإحدى وعشرون بنتاً، فصبر على ذلك صبر الكرام، لذلك قال الجبائي ـ أحد تلاميذ الشيخ رحمه الله تعالى ـ: «قال سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه كان إذا وُلد لي ولد أخذته على يدي وأقول: هذا ميت، فأخرجه من قلبي فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئاً، لأني قد أخرجته من قلبي أول ما وُلد». أي أنه رحمه الله تعالى كان إذا وُلد له الولد قال في

(١) فتوح الغيب على هامش قلائد الجواهر ص ١٣٦.

نفسه: هذا الولد مصيره الموت. فالموت سبيل كل حيّ. وهو عارية عندي ليس غير، قال الجبائي: «لذلك كان يموت من أولاده الذكور والإناث ليلة مجلسه فلا ينقطع المجلس، ويصعد على الكرسي ويعظ الناس. والغاسل يغسل الميت فإذا فرغوا من غسله جاءوا به إلى المجلس فينزل الشيخ ويصلي عليه رضي الله عنه»[1].

١) ابنه عبد الله:

وهو أكبر أولاد الشيخ عبدالقادر رحمه الله تعالى، ولد في سنة ٥٠٨ هـ، سمع من أبيه ومن ابن البنّاء، وتوفي ببغداد في ١٧ وقيل ١٨ صفر سنة ٥٨٩ وقيل ٥٨٧ هـ[2].

٢) ابنه عبد الوهاب[3]:

«ولد في شهر شعبان سنة ٥٢٢ هـ ببغداد، تفقه على والده، وسمع منه ومن أبي غالب بن البناء وغيرهما، رحل إلى بلاد العجم حيث طلب العلم هناك، ثم عاد إلى بغداد ودرّس بمدرسة والده أثناء حياته نيابة عنه منذ سنة ٥٤٣ هـ، وبعد وفاة والده وعظ وأفتى،

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ٤٤. ومن أولاد عبدالله: عبدالرحمن، وقد ذكره ابن نقطة في «تكملة الإكمال» ٢/٤٩٢ وقال: عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد القادر الجيلي، حدث عن نصر بن نصر العُكبري، وسعيد بن أحمد بن البناء، توفي سادس عشرين محرم سنة أربع عشرة وست مئة.

(٣) انظر ترجمته في المختصر المحتاج إليه ٥٧/٣، وتاريخ ابن النجار ٣٤٧/١ وذيل الروضتين ص ١٢، ومشيخة النعال ص ١٣٢، وذيل طبقات الحنابلة ٣٨٨/١، وشذرات الذهب ٣١٤/٤.

وتخرج به جماعة منهم الشريف الحسيني البغدادي وأحمد بن عبد الواسع وغيرهما. . وكان فقيهاً فاضلاً، حسن الكلام في مسائل الخلاف فصيح اللسان في الوعظ. . وكان ظريفاً مليح النادرة، ذا مزاح ودعابة وكياسة، وكانت له مروءة وسخاوة، وجعله الإمام الناصر لدين الله على المظالم سنة ٥٨٣ هـ. وكان قلمه شديداً في الفتوى. توفي في بغداد ليلة الخامس والعشرين من شوال سنة ٥٩٣ هـ ودفن بمقبرة الحلبة رحمة الله عليه»[١].

وقال ابن رجب في «طبقاته»: إنه سمع من ابن الحسين وابن الزاغوني وأبي غالب بن البناء وغيرهم وكان فقيهاً زاهداً واعظاً، وقال القنوجي صاحب كتاب «التاج المكلل»: إنه درس على ابن البناء والقزاز والأرموي وأبي الوقت وغيرهم، وقرأ الفقه على والده[٢].

٣) ابنه عبد الرزاق[٣]:

«ولد عشية الاثنين الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٥٢٨ هـ، هو الشيخ القدوة الحافظ، تفقه على والده وسمع منه ومن أبي الحسن بن صرما وغيرهما، حدَّث وأملى ودرَّس وأفتى وناظر.

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٢٠.

(٢) كتاب التاج المكلل لأبي الطيب القنوجي ص ٢١٢.

(٣) انظر ترجمته في التقييد ٢/١٠٩، والتكملة ٢/١١٦ (٩٨٠)، ومشيخة النعال ص ١٤٣، وذيل الروضتين ص ٥٨، وسير أعلام النبلاء ٢١/٤٢٦، وذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٠.

وتخرج به غير واحد، منهم إسحاق بن أحمد بن غانم وعلي بن علي خطيب زوبا وغيرهم.

قال الحافظ ابن النجار في تاريخه: سمع من والده ومن أبي الحسن محمد بن الصائغ والقاضي أبي الفضل محمد وسعيد بن البناء وأبي الفضل محمد بن ناصر الحافظ وأبي المظفر محمد الهاشمي وغيرهم، وقرأ الكثير على أصحاب أبي الخطاب بن البطر وأبي عبد الله بن طلحة، وكان حافظاً متقناً ثقة، صدوقاً حسن المعرفة بالحديث، فقيهاً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ورعاً، منقطعاً في منزله عن الناس. لا يخرج إلا في الجمعات، مكرماً لطلاب العلم، سخياً، صابراً على فقره، عزيز النفس عفيفاً.. . روى عنه الدبيثي والحافظ ابن النجار صاحب التاريخ، والنجيب عبد اللطيف والتقي البلداني.

وقال أبو بكر بن نقطة: «وكان شيخنا عبدالرزاق حافظاً ثقة مأموناً توفي ليلة السبت سادس شوال من سنة ثلاث وست مئة»[1].

وقال ابن رجب في «طبقاته»: وكانت له معرفة بالمذهب ولكن معرفته بالحديث غطت على معرفته بالفقه.

وقال القنوجي صاحب «كتاب التاج المكلل»[2]: «عبدالرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي المحدث الحافظ، ولد سنة ٥٢٨ هـ وتوفي سنة ٦٠٣ هـ. سمع من والده ومن ابن صرما والحافظ ابن ناصر وابن

---

(١) تكملة الإكمال: ٢: ٤٩٢.
(٢) ص ٢٢٠.

البناء وأبي الوقت ومن في طبقتهم.. قال الحافظ الضياء: لم أر ببغداد مثله في تحريه وتيقظه، أثنى عليه أبو شامة، وذكره الذهبي فقال: حدَّث عنه الدبيثي وابن النجار والضياء المقدسي وآخرون». توفي سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م ودفن بباب حرب.

٤) ابنه عبد الجبار:

لم يذكر تاريخ ولادته، «تفقه على والده وسمع منه ومن أبي منصور والقزاز وغيرهم، سلك سبيل التصوف. وكان حسنَ الخط، يكتب خطاً عجيباً، توفي شاباً في تاسع عشر ذي الحجة سنة ٥٧٥ هـ ودفن برباط والده بالحلبة»[١]. وقال إبراهيم الدروبي في كتابه «الباز الأشهب»: إنَّ عبد الجبار لم يدفن في الحلبة وإنما في الحضرة الكيلانية، وقبره ظاهر فيها يزار.

٥) ابنه عبد العزيز:

«كنيته أبو بكر، ولد في ٢٧ شوال سنة ٥٣٢ هـ، تفقه على والده وسمع منه ومن ابن منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز وغيرهم، حدث ووعظ ودرس. تخرج به غير واحد، وكان بهيًّاً متواضعاً، رحل إلى الحيال قرب عقرة بالموصل، واستوطنها في سنة ٥٨٠ هـ بعد أن اشترك في غزو عسقلان في فلسطين، وذريته في قرية الحيال، وفي بغداد، ونقباء الأشراف في بغداد من ذريته

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٣.

حتى الآن. توفي في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ وقيل في سنة ٦٠٤ هـ ودفن في الحيال»[1].

٦) ابنه عيسى:

لم يذكر تاريخ مولده «تفقّه على والده وسمع منه ومن أبي الحسن بن صرما وغيرهما، درس وحدث ووعظ وأفتى، وصنف مصنفات، منها كتاب «جواهر الأسرار ولطائف الأنوار» في علم الصوفية، قدم مصر وحدث بها ووعظ وتخرج به من أهلها غير واحد، منهم أبو تراب ربيعة بن الحسن الحضرمي الصنعاني، ومسافر بن يعمر المصري وحامد بن أحمد الأرتاجي ومحمد بن محمد الفقيه المحدث وغيرهم.

قال الحافظ ابن النجار في تاريخه: خرج من بغداد بعد وفاة والده ودخل الشام وسمع بدمشق من علي بن مهدي الهلالي في سنة ٥٦٢، وحدث عن والده، ثم دخل مصر، وأقام بها إلى حين وفاته، وكان يعظ على المنابر وله قبول من الناس، حدّث هناك عن والده، روى عنه أحمد بن ميسرة الحنبلي، قال ابن النجار: قرأت على بلاطة قبر عيسى ابن الشيخ عبد القادر الجيلي بقرافة مصر: توفي في الثاني عشر من رمضان سنة ٥٧٣. ومن شعره رحمة الله عليه:

تحمل سلامي نحو أرض أحبتي
وقـل لهم إن الغريب مشـوق

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٣.

فإن سألوكم كيف حالي بعدهم
فقولوا بنيران الفراق حريق
فليس له إلف يسير بقربهم
وليس له نحو الرجوع طريق
غريب يقاسي الهم في كل بلدة
ومن لغريب في البلاء صديق(١)

٧) ابنه موسى:

«ولد في ختام ربيع الأول سنة **٥٣٩** هـ، تفقه على والده وسمع منه ومن ابن البنّاء وغيرهما، أرسله والده إلى دمشق، فاستوطنها، وحدّث فيها، وانتفع به الناس، ثم رحل إلى مصر، وما لبث أن عاد إلى دمشق وعمّر بها، قال الشيخ عمر بن الحاجب في معجمه: كان حنبلي المذهب، شيخاً، مسنداً، من بيت حديث وزهد وورع. وكان شيخاً ظريفاً، مطبوع الحركات، رق حاله واستولى عليه المرض في آخر عمره، إلى أن توفي في دمشق، وصلي عليه بالمدرسة المجاهدية ودفن بسفح جبل قاسيون رحمة الله عليه». وهو آخر من توفي من أولاد الشيخ عبد القادر. وكانت وفاته بمحلة العقيبة بدمشق في أوائل جمادى الآخرة سنة ٦١٨ هـ(٢).

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٢.
(٢) قلائد الجواهر ص ٤٤.

٨) ابنه محمد:

«تفقه على والده وسمع منه ومن ابن البناء وأبي الوقت وغيرهم، حدث في بغداد، وتوفي فيها في ١٥ ذي القعدة سنة ٦٠٠ هـ ودفن بمقبرة الحلبة رحمه الله تعالى» [١] ولم يذكر له تاريخ مولد.

٩) ابنه إبراهيم:

«تفقه على والده وسمع منه ومن سعيد بن البناء وغيرهما، رحل إلى واسط وتوفي بها سنة ٥٩٢ رحمة الله عليه» [٢].

١٠) ابنه يحيى:

«هو أصغر أولاد الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ولد سنة ٥٥٠ هـ أي قبل وفاة والده بإحدى عشرة سنة. وكان والده في الثمانين من عمره، ويُذكر أن الشيخ عبد القادر مرض مرةً، وخاف عليه أولاده الموت، فقال لهم: لا تخافوا، لن أموت الآن، فلا يزال في ظهري ذَكَرٌ سيخرج إلى الدنيا، اسمه يحيى، وكانت أمه جارية حبشية، وقد تفقه على والده وسمع منه ومن محمد بن عبد الباقي وغيرهما، وحدّث، وانتفع به الناس، ثم قدم مصر وأقام بها إلى أن تقدمت به السن، فعاد إلى بغداد ومعه ابنه عبد القادر الذي وُلد في مصر. ثم توفي ببغداد في شعبان سنة ٦٠٠ هـ. ونودي بالصلاة عليه فحضره خلق كثير وصُلّي عليه

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤٤.

بمدرسة والده ودفن عند أخيه الشيخ عبد الوهاب برباط والده بالحلبة»[1].

ثم إن الشيخ يونس السامرائي يذكر في كتابه عن الشيخ عبد القادر أسماء ثلاثة آخرين من أبناء الشيخ رحمه الله تعالى هم: الشيخ عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٨٧ هـ / سنة ١١٩١ م والشيخ صالح والشيخ عبد الغني اللذان ورد ذكرهما أيضاً في آخر كتاب (فتوح الغيب) ولم يذكر لهما تاريخ ولادة أو وفاة.

أما أمة الجبار فاطمة بنت الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى فقد تزوجها ابن الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي الأسدي[2].

حفدة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى:

أما حفدته، رحمه الله تعالى، فلن أذكر منهم إلا اثنين، هما الشيخ نصر بن عبد الرزاق، وسيف الدين يحيى نزيل حماه. ومن أراد الاستزادة فليراجع كتاب «قلائد الجواهر» صفحة ٤٤ وما بعدها.

الشيخ نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى:

قال العلامة أبو بكر بن نقطة الحنبلي في «تكملة الإكمال»: «أبو صالح نصر بن عبدالرزاق بن عبدالقادر الجيلي، سمع من شُهدة بنت أحمد، وأبي الحسين بن يوسف في جماعة ممن بعدهما. وهو فقيه فاضل وسماعه صحيح»[3].

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٤ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥.

(٣) تكملة الإكمال ٢ : ٤٩٢.

قال الحافظ ابن رجب في «طبقات الحنابلة»: هو الشيخ القدوة أبو صالح، الفقيه، المحدث، الزاهد، الواعظ، قاضي القضاة، شيخ الوقت، عماد الدين، قرأ القرآن وسمع الحديث من والده وعمه عبد الوهاب، وأجاز له أبو العلاء الهمداني وأبو موسى المديني وأبو هاشم الروشاني وغيرهم. وكان ذا لسن وفصاحة وجودة عبارة، أفتى وحدَّث وأملى وناظر وتولى مدرسة جدِّه الشيخ عبد القادر، وكان على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى. وتولى القضاء بمدينة السلام، وهو أول من دعي بقاضي القضاة من أصحابه، وكان توليته للقضاء في يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة سنة ٦٢٢ هـ، ولَّاه الخليفة الظاهر بأمر الله، وخلع عليه السوار، وقرىء عهده في جوامع مدينة السلام الثلاثة، وردَّ إليه النظر في جميع الوقوف العامة ووقوف المدارس الشافعية والحنفية وجامع السلطان، فكان يولي ويعزل في جميع المدارس حتى النظامية، وسار السيرةَ الحميدةَ الحسنة، وكان يملي الحديث في مجلسه ويكتب الناس عنه، وإذا خرج يوم الجمعة إلى الجامع يخرج ماشياً، ولم تغيِّره الولاية عن أخلاقه وتواضعه وسيرته التي عرفت منه قبل الولاية، وكان ثقة نبيلاً متحرّياً محققاً لما يرويه، مليح الكلام في مسائل الخلاف، حلو العبارة، لطيف الطبع، كيِّساً، مقداماً، لا يهاب أمراً، ثم عزله المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله عن القضاء في ٢٣ ذي القعدة سنة ٦٢٣، فحمد إليه ذلك وقال:

حَمَـدت اللهَ عـز وجـل لمـا
قضى لي بالخلاص من القضاء

ثم فوَّض إليه المستنصر بالله رباطاً بناه بدير الروم، وجعله شيخاً به، وكان يعظمه ويبجله، ويبعث إليه أموالاً جزيلة ليفرقها في وجهها، وقد صنف في الفقه كتاباً سماه «إرشاد المبتدئين». وُلد رحمه الله تعالى، ليلة السبت رابع عشر ربيع الآخر سنة **٥٦٤ هـ** وتوفي ببغداد سحراً ليلة الأحد سادس عشر شوال سنة **٦٣٣ هـ** ودفن بدكة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، ومن إنشاده عن نفسه:

أنا في القبر مفرد ورهين
غارم مفلس عليَّ ديون
قد أنخت الركاب عند كريم
عِتْقُ مثلي على الكريم يهون[1]

سيف الدين يحيى: هو أبو زكريا ابن الشيخ ظهير الدين أحمد ابن الشيخ أبي النصر محمد ابن الشيخ نصر قاضي القضاة ابن الشيخ تاج الدين عبد الرزاق ابن الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني رحمهم الله تعالى، ولد في بغداد، وكان صالحاً، عابداً، وجيهاً، حج في سنة **٦٨٤ هـ**، ومرَّ في طريقه إلى الحج بمدينة حماه السورية فأعجب بها وبمياهها وحدائقها، وعند عودته من الحج في سنة ٦٨٥ هـ، جعل طريقه من مدينة حماه أيضاً. فنزل فيها، واستوطنها، هو وعائلته وحاشيته، وكان ذلك في عهد ملك حماه المظفر الثالث، حفيد شاهنشاه أخي صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، الذي دام ملكه لحماه من سنة **٦٨٣ هـ**

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٥.

إلى سنة ٦٩٨ هـ، وكانت مدينة حماه القديمة مع قلعتها غربي نهر العاصي، وعندما طلب سيف الدين يحيى رحمه الله تعالى أرضاً من ملك حماه ليبني عليها داراً له ولحاشيته، أعطاه أرضاً على الضفَّة الشرقية لنهر العاصي، التي كانت خالية من البناء، وقال له: هذا الحاضر، فسمي الحي الذي نشأ بعد ذلك على الضفة الشرقية من نهر العاصي، بحي الحاضر. وقد توفي سيف الدين يحيى إلى رحمة الله تعالى في مدينة حماه سنة ٧٣٤ هـ[1]، أي بعد وفاة ملك حماه أبي الفداء الذي حكم من سنة ٧١٠ هـ إلى سنة ٧٣١ هـ بثلاث سنوات. ويقول صاحب «قلائد الجواهر»: إنه دُفن ظاهر باب الناعورة تجاه الزاوية القادرية[2]. ولكن الذي أعرفه أنه مدفون في القبو الكائن تحت قصر الطيارة الحمراء والزاوية القادرية، على الضفة الشرقية لنهر العاصي.

وقد بنى سيف الدين يحيى رحمه الله تعالى دوراً له ولعائلته وحاشيته، كما بنى زاويةً دُعيت بالزاوية القادرية، على الضفة الشرقية لنهر العاصي، في مقابلة القلعة وجامع نور الدين زنكي (الجامع النوري) الكائنين على الضفة الغربية للنهر، ثم توسَّعت هذه الدور وامتدت على الضفة الشرقية بطول ١ ـ ٢ كيلومتر وبعمق نصف كيلومتر أو أكثر أحياناً، وأصبحت حياً كبيراً يدعى بحي الكيلانية أو آل الكيلاني، وبُني جسر يربط ضفتي النهر في ذلك

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٨.

(٢) أي في المكان الذي تسميه العائلة الكيلانية (جنينة الأموات) وهي بجانب زاوية الشيخ حسين.

المكان دُعي بجسر الشيخ عبد القادر وكانت العامة تدعوه بجسر بيت الشيخ.

وفي سنة ١١١٣ هـ جدَّد الشيخ ياسين، أحد حفدة سيف الدين يحيى في حماه، بناء الزاوية القادرية وقصر الطيَّارة الحمراء الكائن فوق الأقبية والسراديب التي تشكل حي الكيلانية، وزيَّن ذلك القصر بأنواع النقوش والمنمنمات، والأعمدة الرشيقة، والفساقي[1] اللطيفة، حتى أصبح تحفة فنية معمارية إسلامية تفوق بروعتها وجمالها وأصالتها قصر العظم، متحف حماه الآن. وكنت أرىٰ السيَّاح يتجولون في سراديب هذا الحي وأقبيته ويدهشون من اتصال هذه السراديب والأقبية بعضها ببعض وبتراكب ركائزها على بعضها بعضاً[2].

ولكن، مع الأسف، هدم هذا الحي مع الزاوية، جميعه في شهر شباط سنة ١٩٨٢ م وأنشىء مكانه بناء حديث، هو فندق (أفاميا الشام)[3].

---

(١) جمع فسْقيّة وهي البحرة الصغيرة من الرخام.

(٢) في سنة ١٩٢٣ طبعت الحكومة السورية منظر الحي والزاوية على طابع بريد قيمته خمسة قروش، وفي سنة ١٩٢٥ طبعت وزارة المالية السورية هذه الصورة على ورقة النقد من فئة ٢٥ قرشاً.

(٣) للأستاذ كامل شحادة مراقب الآثار في محافظة حماه سابقاً كتاب مطبوع عن قصر الطيارة الحمراء.

الفصل الثالث

انتشار العائلة الكيلانية

نبتت جذور هذه العائلة، في بغداد، من الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ثم امتدت وانتشرت في كل اتجاهٍ حتى عمّت العالم الإسلامي تقريباً، إذ يندر أن تجد قطراً إسلامياً ليس فيه ذكر للعائلة الكيلانية، وبدأ ذلك في حياة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، فقد رأينا كيف أرسل ابنه موسى إلى مصر والشام ليدرّس فيهما، وقد توفي بدمشق ودفن بسفح جبل قاسيون، وابنه عيسى أيضاً رحل، بعد وفاة والده، إلى الشام ثم إلى مصر حيث توفي فيها، وابنه عبد العزيز، غزا عسقلان ثم استوطن الحيال وتوفي فيها، وابنه يحيى استوطن مصر ثم عاد إلى بغداد.

ثم انتشر حفدة الشيخ رحمه الله تعالى في كل اتجاه، فاستوطن سيف الدين يحيى وهو من ذرية عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر، مدينة حماه، ومن ذريته: العائلة الكيلانية الموجودة في حماه الآن، والتي يربو عدد أفرادها على ألف إنسان، وذهب الشيخ علاء الدين حفيد سيف الدين يحيى إلى مصر واستوطنها وتوفي في القاهرة يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٧٩٣ هـ[١] ثم انتشر حفدة السيد سيف الدين يحيى في بلاد الشام فاستوطن

---

(١) قلائد الجواهر ص ٤٨.

بعضهم دمشق وبعضهم جسر الشغور وحلب وقرى دمشق مثل (تل حنين، والهامة، والضمير وغيرها) واستوطن بعضهم مدينة نابلس في فلسطين حيث نشأت فيها عائلة (زيد الكيلاني) ثم انتقل بعضهم من نابلس إلى عمان وغيرها[1].

وأظن أنَّ العائلة الكيلانية هي اليوم أكثر العائلات الإسلامية عدداً وأوسعها انتشاراً، حتى تجد ذكرها في جميع الأقطار الإسلامية تقريباً، من الصين شرقاً إلى المغرب غرباً، ففي الهند العالم فضل الله الجيلاني شارح كتاب «الأدب المفرد» في الحديث للبخاري، ومناظر أحسن الكيلاني رئيس القسم الديني سابقاً في الجامعة العثمانية بحيدرآباد دكن، وصاحب كتاب «تدوين الحديث»، وأحمد الجيلاني رئيس أحد فصائل المجاهدين في أفغانستان، والشيخ علي الجيلاني هو رئيس اللجنة البرلمانية للجبهة الإسلامية المتحدة في ولاية جامو وكشمير.

وفي ندوة دور الإعلام الإسلامي في دعم الجهاد الأفغاني، التي عقدت في إسلام آباد، كان الدكتور إعجاز الجيلاني أحد المشاركين فيها (مجلة الإصلاح عدد ١٤٨). والأستاذ أسعد الجيلاني هو اليوم، أمير إقليم البنجاب وعضو برلمان الجماعة

(١) الآن، شباط سنة ١٩٩١، وزير الأوقاف في المملكة الأردنية هو الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني. ومنذ بضع سنوات كان وزير الصحة فيها الدكتور فؤاد الكيلاني.

الإسلامية في باكستان، وله أكثر من ثمانين كتاباً من تأليفه. (الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب ص (١٧٦).

وفي صحيفة الإتحاد الإماراتية بتاريخ ١٩٨٩/٨/٣ ذكروا أن عبد القادر الجيلاني هو رئيس اللجنة التنفيذية لجبهة التحرير الإريترية. هذا بالإضافة إلى الموجودين في بغداد وحماه ودمشق وعمان، وفي مصر والسودان، وغيرها من البلاد.

كما أنَّ بعض فروع العائلة الكيلانية، قد تغيَّر اسمها، وأصبحت تعرف بأسماء أخرى، غير اسم الكيلاني، إما بالنسبة للمكان الذي هي فيه، أو للجد الذي هاجر من وطنه الأصلي فنسب إليه، أو بالنسبة لحادثة معينة أثَّرت في مسيرة ذلك الفرع من العائلة. فعائلة: ظبيان، وعائلة: البحرة، في دمشق، هما كيلانيتان، وعائلة: زيد في نابلس كيلانية، حتى أن الشيخ يونس السامرائي يذكر في كتابه «الشيخ عبد القادر الكيلاني» أسماء كثير من العائلات والعشائر التي هي من ذرية الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى ويعزوها إلى كتاب «تاريخ العراق بين احتلالين»، وكتاب «عشائر العراق» لمؤلفهما (عباس العزاوي) مثل: عشيرة البوجمعة من ذريّة الشيخ عيسى ابن الشيخ عبد القادر، وعشيرة الحداحدة من ذرية عبد الرزاق، وعشيرة الحياليين والعبايجي من ذرية عبد العزيز، والبوحسن البكر، والبوحمد البكر، والبو غنيمة، والبوجاسم، والبوغنام، والمطالكة، والعشارات، والأغوات في الموصل، وآل الآلوسي في تكريت، وآل القاضي في تكريت، وآل الشيخ عبدان في لواء

ديالي، إلخ... كلهم من ذرية الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى.

هذا الانتشار الواسع للعائلة الكيلانية، وبقاء اسم (الكيلاني) منذ أكثر من ٨٥٠ سنة حتى الآن، بل وتشرُّف الناس بالانتساب إليه، قد يدل على صلاح الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى وإخلاصه وصدقه ومحبة الله سبحانه وتعالى له، فإن الله عز وجل إذا أحب عبداً حبَّبَ به عباده، ولا ريب أن الشيخ رحمه الله تعالى كان يدعو ويقول: ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾[1].

(١) سورة الأحقاف، الآية ١٥.

الفصل الرابع

تَلاميذُ الشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ رَحِمَهُ اللهُ تعالى

ذكر الأستاذ محمد العيني في كتابه «عبد القادر الكيلاني» أنه كان يتخرج من مدرسة الشيخ ورباطه في بغداد كل سنة نحو ثلاثة آلاف تلميذ ومريد، وفي ثلاث وثلاثين سنة من التدريس يكون قد تخرج على يديه نحو مائة ألف تلميذ ومريد.

وقد انتشر هؤلاء التلاميذ والمريدون في أنحاء العالم الإسلامي جميعه في ذلك الوقت كدعاة ومرشدين ومصلحين، ولم يحفظ التاريخ أسماء أكثرهم لأنهم لا يقعون تحت الحصر. ولكنه حفظ أسماء المشهورين منهم كأبي الفتح نصر بن المنى الذي أصبح شيخ الحنابلة، بعد وفاة الشيخ رحمه الله تعالى، وأحمد بن أبي بكر بن المبارك أبي السعود الحريمي، والحسن بن مسلم الذي كان رباطه بالقادسية، ومحمود بن عثمان بن مكارم النعَّال الذي كان يشرف على رباط الشيخ ببغداد، وعمر بن مسعود البزاز الذي تاب على يديه كثير من مماليك الخليفة، وعبد الله الجبائي من قرية الجبة بلبنان، كان نصرانياً، سُبي إلى دمشق فأسلم فاشتراه زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا أحد أصحاب الشيخ فأعتقه وأرسله إلى الشيخ في بغداد سنة ٥٤٠ هـ ليتعلم ويتفقه فظل معه حتى وفاته، ثم صحب الموفق بن قدامة صاحب

«المغني»، ثم رحل إلى أصبهان فدرّس فيها وأفتى إلى أن توفي سنة ٦٠٥ هـ، وحامد بن محمود الحراني الذي اتصل بنور الدين زنكي رحمه الله تعالى فولّاه القضاء والمظالم والتدريس في حران، وزين الدين بن إبراهيم بن نجا الأنصاري الدمشقي، درس في مدرسة الشيخ ببغداد، ثم رحل إلى دمشق ومصر واتصل بصلاح الدين رحمه الله تعالى وأصبح مستشاراً له، حتى كان يسميه: عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وأرسل والد موفق الدين بن قدامة ابنه الموفق إلى بغداد ليدرس في مدرسة الشيخ رحمه الله تعالى، فذهب هو وابن خالته الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، يقول ابن قدامة: «لبست أنا والحافظ عبد الغني الخرقة من يد شيخ الإسلام عبد القادر في وقت واحد، واشتغلنا عليه بالفقه وسمعنا منه وانتفعنا بصحبته[1]. وأسكننا في مدرسته، وكان يعنى بنا، وربما أرسل إلينا ابنه يحيى فيسرج لنا السراج، وربما يرسل إلينا طعاماً من منزله، وكان يصلي الفريضة بنا إماماً، وكنت أقرأ عليه من حفظي من كتاب الخِرَقي غدوة، ويقرأ عليه الحافظ عبد الغني من كتاب «الهداية» في الكتاب، فأقمنا عنده شهراً وتسعة أيام ثم توفاه الله تعالى»[2].

وموفق الدين بن أحمد بن محمد بن قدامة هذا من منطقة القدس بفلسطين، وُلد في شعبان سنة ٥٤١ هـ ورحل في سنة ٥٦١ هـ هو وابن خالته عبد الغني إلى بغداد فسمعا من الشيخ

---

(١) قلائد الجواهر ص ٦.

(٢) كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٣٩.

عبد القادر ومن هبة الله الدقاق وابن البطي وأبي زرعة وغيرهم، وصحب صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى. وتوفي سنة ٦٢٠ هـ بدمشق، ودفن بسفح جبل قاسيون، وذلك بعد أن ألف كتاب «المغني في شرح الخرقي» في الفقه الحنبلي، مع ذكر أقوال المجتهدين من أصحاب المذاهب الأخرى ودليل كل واحد منهم، فجاء من أوسع كتب الفقه المقارن وأجلِّها وأنفعها، وهو في تسع مجلدات.

ومن تلاميذه أيضاً أحمد بن المبارك المرقعاتي، ومحمد بن الفتح الهروي اللذان كانا يشرفان على مدرسته في بغداد[١] وكان أبو الفتح الهروي يشرف على خدمة الشيخ أيضاً، فهو يقول: «خدمت سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أربعين سنة فكان في مدتها يصلي الصبح بوضوء العشاء، وكان إذا أحدث جدد في وقته وضوءه وصلى ركعتين، وكان يصلي العشاء ويدخل خلوته ولا يدخلها أحد معه، ولا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر»[٢].

ومن تلاميذه أيضاً، شعيب أبو مدين، دفين تلمسان، شيخ المغرب، وأبو عمرو عثمان بن مرزوق بن حميد بن سلامة القرشي نزيل مصر وشيخها، وقد اجتمع الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بهما، في الحج، وكانوا في الزمن القديم يمضون الأشهر ذوات العدد في الحج، فتفقها عليه، وسمعا منه.

---

(١) كتاب هكذا ظهر جيل صلاح الدين للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ص ١٦٣.

(٢) قلائد الجواهر ص ٧٦.

يقول ابنه عبد الرزاق رحمه الله تعالى: «لما حجَّ والدي رحمه الله تعالى في السنة التي كنت معه فيها، اجتمع به الشيخان ابن مرزوق وأبو مدين، ولبسا منه خرقة بركة - هي كناية عن المبايعة - وأخذا العهد بالالتزام، وسمعا عليه جزءاً من مروياته، وَجَلسا بين يديه، وكان الشيخ سعد ابن الشيخ عثمان بن مرزوق المذكور يقول: كان أبي رحمه الله تعالى يقول: قال شيخنا عبد القادر كذا وكذا، رأيت سيدنا الشيخ عبد القادر يفعل كذا، سمعت أستاذنا الشيخ أبا محمد عبد القادر يقول كذا، كان إمامنا وقدوتنا الشيخ عبد القادر يفعل كذا»[1].

ويذكر صاحب «قلائد الجواهر»[2] قائمة طويلة بأسماء بعض تلاميذ الشيخ عبدالقادر رحمه الله تعالى منهم: الإمام العالم القاضي أبو يعلى محمد بن محمد الفراء، والشيخ أبو محمد محمود بن عثمان البقال - وفي رواية النعال -، والإمام أبو عمرو عثمان الملقب بشافعي زمانه، والشيخ الفقيه رسلان بن عبدالله بن شعبان، والقاضي عبدالملك بن عيسى بن هرباس، وأخوه عثمان وولده عبدالرحمن وعبدالكريم السمعاني محدث خراسان ويوسف بن هبة الله الدمشقي وغيرهم كثير. هذا بالإضافة إلى أولاده كلهم، فقد تتلمذوا عليه وسمعوا منه، وتولوا التدريس والتعليم، بعضهم في حياته، وبعضهم الآخر بعد وفاته.

---

(١) قلائد الجواهر ص ٥.
(٢) المصدر السابق ص ٥ و ٦.

الفصل الخامس

مدرسة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بعد وفاته

اشترى الأغنياء مدرسة الشيخ أبي سعيد المخرمي، أستاذ الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، التي كانت بمحلة باب الأزج - أصبحت تدعى فيما بعد بمحلة باب الشيخ، نسبة إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى - ووسَّعوها وأعادوا بناءها بأموال الأغنياء وعمل الفقراء في سنة ٥٢٨ هـ ثم فوَّضوها إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى. فقسمها إلى مدرسة لدراسة التلاميذ، وإلى رباط لتربية المريدين، وبعد أن توفي الشيخ رحمه الله تعالى في سنة ٥٦١ هـ لم يتخل أولاده عن المدرسة. بل ظلوا يدرّسون فيها: فدرس فيها ابنه الشيخ عبدالجبار حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ وابنه الشيخ إبراهيم حتى توفي سنة ٥٩٠ هـ، وابنه الشيخ عبدالوهاب حتى توفي سنة ٥٩٣ هـ، وابنه الشيخ عبدالرزاق حتى توفي سنة ٦٠٣ هـ، ثم درّس فيها من حفدته الشيخ عبدالسلام ابن الشيخ عبدالوهاب، والشيخ نصر قاضي القضاة ابن الشيخ عبدالرزاق وغيرهما. وشيّدوا جامعاً للصلاة متصلاً بالمدرسة، كان مشهوراً باسم الجامع ذي القباب السبعة. وعندما اجتاح هولاكو والتتار مدينة بغداد في سنة ٦٥٦ هـ قتلوا كثيراً من أفراد العائلة الكيلانية، وهدَّموا المدرسة والجامع، ثم أعيد بناؤهما بعد زوال خطر التتار، وفي سنة ٩١٤ هـ عندما احتل

الشاه إسماعيل الصفوي بغداد هدم المدرسة والجامع أيضاً، وعندما استعادها السلطان العثماني سليمان القانوني في يوم الاثنين ٢٤ جمادى الأولى سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) أمر بإعادة بنائهما، وبناء تكيةٍ للفقراء إلى جانب الجامع، فبدأ سنان باشا ببناء الجامع، ولكنه توفي قبل إكماله، فأكمله والي بغداد علي باشا في العقد التاسع من المائة العاشرة للهجرة.

ومما يذكر هنا أن ابن بطوطة عندما زار بغداد سنة ٧٢٧ هـ وكانت تحت حكم أبي سعيد خان من حفدة هولاكو ذكر أسماء الأضرحة والمزارات التي شاهدها ولم يذكر بينها ضريح الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى مما يدل على أنه كان لا يزال خرباً في ذلك الوقت[1].

وفي سنة ١٠٣٣ هـ تعرضت المدرسة والجامع للتخريب مرة أخرى عندما احتل الصفويون بقيادة الشاه عباس الأول بغداد مرة أخرى سنة ١٦٢٣ م، وعندما أخرجهم منها السلطان العثماني مراد الرابع في سنة ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) جدَّد العمارة ثانية تحت إشراف المفتي الأكبر يحيى الذي أشرف أيضاً على إعادة بناء مسجد أبي حنيفة رحمه الله.

وفي سنة ١١٣٩ هـ عمّر والي بغداد أحمد باشا صُفّةً في الجامع، وفي سنة ١٢٨٢ هـ أضاف السيد علي الكيلاني نقيب الأشراف الرواق الكبير المجاور للحرم، وفي سنة ١٢٩٧

---

(١) كتاب عبد القادر الكيلاني لمحمد العيني النسخة الفرنسية ص ٩٠.

عمّر السيد سلمان الكيلاني نقيب الأشراف منارة على الباب الغربي للجامع، وفي سنة ١٣١٧ هـ عمّر السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب الأشراف ساعةً لأوقات الصلاة تناطح السحاب. وحوضاً للوضوء ورواقاً والطابق العلوي الكائن فوق حجرات الطابق الأرضي[١]، وكان السلطان العثماني الثالث والعشرون أحمد الثالث (١٧٠٣ م) قد أمر ببناء مدرستين أضافهما إلى البناء القديم ليدرس فيهما التلاميذ والمريدون وينامون ويأكلون مجاناً. (كتاب محمد العيني ص ٩٢).

عندما دخل السلطان العثماني سليمان القانوني بغداد في سنة ٩٤١ هـ أسند نقابة الأشراف فيها إلى السيد الشيخ زين الدين الكيلاني من ذرية الشيخ عبدالعزيز ابن الشيخ عبدالقادر رحمه الله تعالى. وهذه ترجمة كتاب التولية: «مفخر السادات الكرام الشيخ زين الدين الكيلاني، بعد التحية الوافية لقد عهدنا إليكم نقابة الأشراف بمدينة بغداد المحروسة، وفوّضناكم بتصديق وثائق السادات من صحيحي النسب، وبمنع استعمال العلامة الخضراء لمن لم يكونوا من صحيحي النسب. وأملنا بأنكم ستبذلون قصارى مقدوركم لإجراء هذه الخدمات، ولتكن علامتنا هذه مصدر العمل. كتب ببغداد المحمية في ٢٠ رمضان سنة ٩٤١ هـ». السلطان الغازي: سليمان خان القانوني[٢].

واستمرت نقابة الأشراف محصورة في ذرية الشيخ عبد العزيز

---

(١) كتاب عبد القادر الكيلاني للشيخ يونس السامرائي ص ٤٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) كتاب عبد القادر الكيلاني للشيخ يونس السامرائي ص ٣٩.

ببغداد منذ ذلك الوقت حتى الآن، ما عدا فترة قصيرة تولى فيها نقابة أشراف بغداد واحد من ذرية الشيخ عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر رحمه الله، الموجودين في مدينة حماه، هو الشيخ إبراهيم ابن الشيخ شرف الدين ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ علي الهاشمي الكيلاني، وكان الشيخ عبد الرزاق أخو الشيخ إبراهيم المذكور متولياً نقابة الأشراف في حماه في الوقت نفسه(١). وقد بنى الشيخ إبراهيم هذا عدة جوامع في مدينة حماه، منها جامعان أطلق عليهما اسمه. أحدهما جامع الشيخ إبراهيم في حي الكيلانية في الحاضر، وقد تهدّم عندما هُدِم الحي بأكمله سنة ١٩٨٢ م. والآخر جامع الشيخ إبراهيم الكائن في المدخل الشمالي للسوق الطويل بحماه وفيه مدرسة دار العلوم الشرعية.

والآن يوجد نقيبان للأشراف في بغداد هما السيد يوسف ابن السيد عبد الله الكيلاني، والسيد أحمد محمود حسام الدين الكيلاني(٢).

أما في حماه فكان آخر نقباء الأشراف فيها هو الشيخ محمد مرتضى ابن الشيخ صالح الكيلاني الذي توفي في سنة ١٩٦٩ م رحمه الله تعالى، ثم ألغيت نقابة الأشراف في سورية بعد ذلك ـ مع العلم بأن كيلانيي حماه هم من ذرية الشيخ عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى ـ.

---

(١) الموجز في تاريخ القطب الغوث للأستاذ فخري الكيلاني رحمه الله تعالى ص ١٦.

(٢) عبد القادر الكيلاني للسامرائي ص ٤١.

الفصل السادس

أقوال العلماء في الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى

جمع الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى من الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة والتقوى والورع ما جعل العلماء القدماء والمحدثين يلهجون بذكره ويثنون عليه، ويجمعون على احترامه وتقديره، حتى ابن تيمية وابن كثير وابن القيم وغيرهم، نظراً لأنه أخضع التصوف للفقه وخلّصه من كثير ممّا اعتوره من الشّطط والمخالفات التي كادت أن تحيد بالخطّ الذي رسمه له المتصوفة الأوائل وهو إصلاح المجتمع، ما عدا واحداً من العلماء القدماء، وهو ابن الجوزي، فقد شذّ عن هذا الإجماع، فكان ينتقد الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، حتى قيل إنه صنف كتاباً ينقم فيه عليه أشياء كثيرة لأنه فارق سيرة السلف الصالح من أمثال الحسن البصري رحمه الله تعالى، على حسب دعواه[1]. مع أن أبا الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي كان من معاصري الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، فقد ولد سنة ٥٠٨ هـ وقيل سنة ٥١١ هـ وتوفي ليلة الجمعة ٢٣ رمضان سنة ٥٩٧ هـ. ولكن المعاصرة حجاب، كما يقولون. وقد تتلمذ ابن الجوزي على الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، وزير القائم بأمر الله

---

(١) كتاب «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب تحت رقم ١٣٤.

والمستنجد بالله، وكان الوزير ابن هبيرة صديقاً للشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، يجلّه ويحترمه ويثني عليه ويرسل إليه بالهدايا، فكيف لا يجل التلميذ ويحترم من كان أستاذه يجله ويحترمه؟! كما أنَّ كثيراً من المؤلفين القدماء كانوا ينتقدون ابن الجوزي لأنه ما كان يراجع ما يكتب لذلك كثرت أغلاطه في تصانيفه، كما كانوا يأخذون عليه كثرة الثناء على الكبراء، والتعاظم على الفقراء، وكثرة الدعاوى. وقد قال ابن قدامة المقدسي: إننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها(١).

أما موفق الدين بن قدامة المقدسي، صاحب المغني، فكان يقول عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة فإذا الشيخ عبد القادر مما انتهت إليه الرياسة بها علماً وعملاً وحالاً واستفتاءً، كان يكفي طالب العلم عن قصد غيره، من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين، وسعة الصدر، كان ملء العين. وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة، وما رأيت بعده مثله. ولم أسمع عن أحد يحكى من الكرامات أكثر مما يحكى عنه، ولا رأيت أحداً يعظمه الناس من أجل الدين أكثر منه»(٢).

وقال سلطان العلماء، شيخ الشافعية الشيخ عز الدين بن عبد السلام: إنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ

---

(١) ذيل الطبقات لابن رجب، ترجمة ابن الجوزي.

(٢) قلائد الجواهر ص ٦ و ٧.

عبد القادر، فإن كراماته نقلت بالتواتر(١).

وقال محب الدين عبدالله بن النجار، في تاريخه: «عبد القادر بن أبي صالح جنكي دوست من أهل جيلان، أحد الأئمة الأعلام، صاحب الكرامات الظاهرة، كان من الأولياء المجتهدين، والمشايخ المرجوع إليهم في أمور الدين، وأحد أئمة الإسلام العالمين، العاملين»(٢).

وقال أبو سعد عبدالكريم السمعاني: كان عبدالقادر أبو محمد من أهل جيلان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه، صالح، ديّن، خيّر، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة.. حصل له القبول التام عند الناس وانتفعوا بكلامه ووعظه، وانتصر أهل السنة بظهوره.

وقال شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: «كان الشيخ عبدالقادر متمسكاً بقوانين الشريعة، يدعو إليها وينفر عن مخالفتها، ويشغل الناس فيها، مع تمسكه بالعبادة والمجاهدة، ومزج ذلك بمخالطة الشاغل عنها غالباً كالأزواج والأولاد، ومن كان هذا سبيله كان أكمل من غيره، لأنها صفة صاحب الشريعة ﷺ»(٣).

وقال ابن رجب في «طبقاته»: عبد القادر بن أبي صالح

---

(١) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب تحت رقم ١٣٤، وكتاب سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٢٠ ص ٤٤٣.

(٢) نقلاً عن كتاب تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب تحت رقم ٣٧٧.

(٣) قلائد الجواهر ص ٢٣.

الجيلي ثم البغدادي، الزاهد، شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ، وسيد أهل الطريقة، محيي الدين، ظهر للناس، وحصل له القبول التام، وانتصر أهل السنة الشريفة بظهوره، وانخذل أهل البدع والأهواء، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته، وجاءته الفتاوى من سائر الأقطار، وهابه الخلفاء والوزراء والملوك فمن دونهم.

وقال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف الإشبيلي في كتاب «المشيخة البغدادية»: عبد القادر الجيلاني فقيه الحنابلة والشافعية ببغداد وشيخ جماعتهما، له القبول التام عند الفقهاء والفقراء والعوام، وهو أحد أركان الإسلام، انتفع به الخاص والعام، كان مجاب الدعوة، سريع الدمعة، دائم الذكر، كثير الفكر، رقيق القلب، دائم البِشْر، كريمَ النفس، سخيَّ اليد، غزير العلم، شريف الأخلاق، طيب الأعراق، مع قدم راسخ في العبادة والاجتهاد[1].

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في «تاريخه»: الشيخ محيي السنة والدين عبد القادر بن أبي صالح الجيلي دخل بغداد فسمع الحديث واشتغل به حتى برع فيه. وكان له اليد الطولى في الحديث والفقه والوعظ وعلوم الحقائق، وكان له سَمْت حسن، وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة، يصدعهم بذلك على رؤوس الأشهاد، ورؤوس المنابر

---

(١) قلائد الجواهر ص ٧.

وفي المحافل، ولا يأخذه في الله لومة لائم، وكان فيه زهد كثير، وله أحوال خارقات للعادات، ومكاشفات، وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار، قدس الله سره، ونور ضريحه[1].

وقال الشيخ حسن قضيب البان، شيخ الموصل، وهو من معاصري الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى: «الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى قائد ركب المحبين، وقدوة السالكين، وإمام الصديقين، وحجة العارفين، وصدر المقربين، في هذا الوقت»[2].

وقال الإمام العالم أبو العباس أحمد الشهير بابن فضل الله في كتاب «مسالك الأبصار»: «الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي الحنبلي، علم الأولياء، محيي الدين، سيد طائفة كانوا بالنهار لا يفترُون، وبالأسحار هم يستغفرون.. كان له مجلس يوالي فيه الانتحاب ويحرك فيه الأصحاب، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب.. توكل على الله حق اتكاله»[3].

وقال الإمام العلامة الشيخ عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن سعد اليافعي اليمني ثم المكي الشافعي في «تاريخه»: «قطب الأولياء الكرام، شيخ المسلمين والإسلام، ركن الشريعة وعلم الطريقة.. شيخ الشيوخ، قدوة الأولياء العارفين الأكابر أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي قدس سره ونور ضريحه، تحلّى

---

(١) قلائد الجواهر ص ٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٥.

رضي الله عنه بحلى العلوم الشرعية وتجمل بتيجان الفنون الدينية، وتزوَّد بأحسن الآداب وأشرف الأخلاق.. قام بنص الكتاب والسنة خطيباً على الأشهاد، ودعا الخلق إلى الله سبحانه وتعالى فأسرعوا إلى الانقياد... وأبرز جواهر التوحيد من بحار علوم تلاطمت أمواجها... وأبرأ النفوس من أسقامها وشفى الخواطر من أوهامها... وكم ردَّ إلى الله تعالى عاصياً... تتلمذ له خلق كثير من الفقهاء»[1].

وقال شيخ الإسلام الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه «بستان العارفين»: «ما علمنا فيما بلغنا من الثقات الناقلين كرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد، وانتهت إليه رياسة العلم في وقته، وتخرج بصحبته غير واحد من الأكابر، وانتهى إليه أكثر أعيان مشايخ العراق، وتتلمذ له خلق لا يحصون عدداً من أرباب المقامات الرفيعة، وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء رضي الله عنهم بالتبجيل والإعظام، والرجوع إلى قوله والمصير إلى حكمه، وأهرع إليه أهل السلوك من كل فج عميق، وكان جميل الصفات، شريف الأخلاق، كامل الأدب والمروءة، كثير التواضع، دائم البِشْر، وافر العلم والعقل، شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه، معظماً لأهل العلم، مكرِّماً لأرباب الدين والسنة، مبغضاً لأهل البدعة والأهواء، محباً لمريدي الحق، مع دوام المجاهدة، ولزوم المراقبة إلى الموت، وكان له كلام عالٍ في علوم المعارف شديد الغضب إذا انتهكت محارم الله سبحانه

(١) قلائد الجواهر ص ١٣٦.

وتعالى، سخي الكف، كريم النفس على أجمل طريقة، وبالجملة فلم يكن في زمنه مثله رضي الله عنه»[١].

وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي الرفاعي (٥٠٠ هـ ـ ٥٧٨ هـ) ـ من ذرية الإمام موسى الكاظم رحمه الله تعالى ـ وهو من معاصري الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «الشيخ عبد القادر من يستطيع وصف مناقبه؟ ومن يبلغ مبلغه؟ ذاك رجل بحر الشريعة عن يمينه، وبحر الحقيقة عن يساره، من أيهما شاء اغترف. لا ثاني له في وقتنا هذا»[٢].

وقد ذكر صاحب كتاب «قلائد الجواهر» كثيراً من الأَقوال الأُخرى في الثناء على الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، لجملة من العلماء والصالحين، بعضهم كان معاصراً للشيخ رحمه الله تعالى، وقد مرَّ ذكر بعضها في أثناء هذا الكتاب.

ونأتي الآن إلى قول الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية في الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، فهو يثني عليه ثناء عاطراً، وإذا مر ذكره قال: قدس الله روحه أو رضي الله عنه، انظر إليه يقول في كتاب «القدر»: يقول الشيخ عبدالقادر قدس الله روحه: كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا.. أما أنا فنازعت أقدار الحق بالحق للحق.. فالعبد مأمورٌ بأن يجاهد في سبيل الله ويدفع ما قدّر من المعاصي بما يقدّر من الطاعة، فهو

---

(١) قلائد الجواهر ص ١٣٧ بتصرف.

(٢) طبقات الأولياء لابن الملقن ص ١٠٠ وقلائد الجواهر ص ٦٦.

منازع للمقدور المحظور بالمقدور المأمور به من الله تعالى[1].

وأما أئمة الصوفية المشهورون مثل الجنيد وأتباعه والشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي.. فالشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور[2].

قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: «وعلامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط، فلا يكن لك غرض ولا مرام، لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها، ساكن الجوارح، مطمئن الجنان، مشروح الصدر، منور الوجه، قلت: هذا مقام آخر للشيخ عبد القادر، وهو الذي يذكره أئمة الدين»[3].

«فقد بيَّن الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أن لزوم الأمر والنهي لا بد منه في كل مقام»[4].

والمؤلفون المحدثون لهم أقوال حميدة أيضاً في الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى، فهذا أمير البيان شكيب أرسلان يقول: «كان الشيخ عبد القادر الجيلاني متصوفاً عظيماً، وصلت طريقته إلى إسبانيا، ثم انتقل مركزها إلى فاس بعد سقوط غرناطة، وبواسطتها زالت البدع من بين البربر، وتمسكوا بالسنة

---

(١) كتاب القدر ٨/٣٠٦.

(٢) المصدر السابق ٨/٣٦٩.

(٣) كتاب السلوك من الفتاوى لابن تيمية ١٠/٥٠٧.

(٤) المصدر السابق ١٠/٥٢٢.

والجماعة، كما اهتدى على يدها زنوج غربي إفريقيا»[1].

والدكتور أحمد الشلبي صاحب موسوعة التاريخ الإسلامي يقول: «عُرف الجيلاني بالتسامح وحب الجار وإغضاء الطرف عن الغنى وملذات الحياة، ومن تسامحه أنه كان إذا ذكر عنده أهل الكتاب لم يزدْ عن أن يعبر عن حسرته لانحرافهم عن طريق النور، ويدعو الله أن يهديهم سواء السبيل، ومن حبه للجار أنه كان لا ينعم بطعام أو مال دون جيرانه، فكان يوزع عليهم كل ما يرد إليه من الهدايا والأموال ويدعوهم إلى مشاركته طعامَه، وكان عزوفه عن الغنى سبباً في أن يعيش فقيراً على الرغم من أن الملوك والسلاطين كانوا يتقربون إليه بالهدايا والأموال، ولكنه كان يوزعها في الحال على الحاضرين وعلى الجيران والمريدين، وأكثر أتباعه ساروا على هذا النمط من خُلُق أستاذهم، وكان هذا هو السبب في انتشار الطريقة القادرية وكثرة أتباعها»[2].

والشيخ عبد الله بن محمد الخليفي، إمام وخطيب المسجد الحرام، يذكر الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى ويقول عند ذكره: قدس الله روحه؛ يقول في كتابه (دواء القلوب والأبدان من وساوس الشيطان)[3]: «وذكر الشيخ عبدالقادر الجيلاني قدس الله روحه ونور ضريحه، في كتاب «الغنية» عن ابن عباس رضي الله عنهما:

---

(١) كتاب حاضر العالم الإسلامي ص ٣٩٦ بتصرف.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي جـ ٦ ص ٢١١.

(٣) ص ١٩٢.

إذا كان ليلة القدر يأمر الله تعالى جبرائيل عليه السلام أن ينزل إلى الأرض ومعه سكان سدرة المنتهى، سبعون ألف ملك، ومعهم ألوية من نور. فإذا هبطوا إلى الأرض ركز جبرائيل لواءه والملائكة ألويتهم في أربعة مواطن: عند الكعبة وقبر النبي ﷺ ومسجد بيت المقدس وطور سيناء. ثم يقول جبرائيل عليه السلام: تفرقوا، فيتفرقون، فلا يبقى دار ولا حجرة ولا بيت ولا سفينة فيها مؤمن أو مؤمنة إلا دلفت الملائكة فيها إلا بيت فيه كلب أو خنزير أو جنب من حرام أو صورة تماثيل، فيسبحون ويقدسون ويهللون ويستغفرون لأمة محمد ﷺ حتى إذا كان وقت الفجر يصعدون إلى السماء»[1].

وأبو الحسن الندوي يقول عنه: «في القرن السادس الهجري، وقد تباعد الزمان عن النبوة وآثارها وبركاتها واتسعت الدنيا وكثرت أسباب الغفلة واللهو، نهض في بغداد، قلبِ العالم الإسلامي، رجل قوي الشخصية، قوي الإيمان، قوي العلم، قوي الدعوة، قوي التأثير، هو الشيخ عبد القادر، فجدد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي، والعبودية الخالصة. وحارب النفاق، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، يدخل منه المسلمون، يجدِّدون العهد والميثاق مع الله تعالى، وقد دخل في هذا الباب خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى، ظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم فأصبحوا يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان...»[2].

---

(١) الغنية ص ١٩٢.

(٢) كتاب رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ٢٨٢.

ويقول الشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى عنه: «إن الشيخ الجيلاني رحمه الله، أجمعت الأمة على قبوله، حتى ابن تيمية رحمه الله يقول: إن كراماته منقولة إلينا تواتراً.. وإن مطالعة كتب هؤلاء العلماء الفقهاء الذين تكلموا في أمر السير إلى الله تعالى تحرِّك الهمة نحو الله تعالى بشكل عجيب»[1].

---

(١) كتاب تربيتنا الروحية للشيخ سعيد حوى ص ١٧٩.

الفصل السابع

المؤلفون الذين ذكروا الشيخ رحمه الله تعالى في كتبهم

كتب كثير من المؤلفين عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، قدماء ومحدثين، عرباً وغير عرب، مسلمين وغير مسلمين، بعضهم خصَّه بكتاب كامل، وبعضهم ذكر ترجمته بين التراجم. وبعضهم استشهد به وبأقواله، في سياق موضوع كان يتكلم عنه ويبحث فيه. وسأذكر فيما يلي ما وصل إليه علمي من أسماء هؤلاء المؤلفين وكتبهم:

١) كتاب «أسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبدالقادر»[١] للإمام عبدالله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ.

٢) كتاب «بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب السادات الأخيار من المشايخ الأبرار»[٢] للشيخ نور الدين أبي الحسن علي بن يوسف اللخمي الشافعي المتوفى سنة ٧١٣ هـ، أخذت ترجمة الشيخ عبد القادر فيه نحو نصف الكتاب.

٣) «درر الجواهر في مناقب الشيخ عبدالقادر»[٣] لسراج الدين

---

(١) كشف الظنون ص ٩٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٦.

(٣) المصدر السابق ص ٧٤٧.

أبي حفص عمر بن علي بن أحمد المصري المعروف بابن الملقّن (سنة ٧٢٣ هـ - سنة ٨٠٤ هـ) وهو صاحب كتاب (طبقات الأولياء).

٤) «رشف المنهلين في تخميس أبيات الشيخ عبدالقادر»(١) لتقي الدين أبي بكر بن حجة.

٥) «الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبدالقادر»(٢) للشيخ أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاّني، صاحب «المواهب اللدنية»، المتوفى سنة ٩٢٣ هـ

٦) «روضة الناظر في ترجمة الشيخ عبدالقادر»(٣) لأبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ.

٧) «الشراب النيلي في ولاية الجيلي»(٤) لمحمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٧١ هـ.

٨) العز بن عبد السلام بن أحمد القيلوي البغدادي المتوفى سنة ٦٥٩ هـ خمس قصيدة الشيخ عبد القادر الكيلاني التي مطلعها:

ما في المناهل منهل مستعذب
إلا ولي فيه الألذ الأطيب(٥)

٩) «قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبدالقادر»(٦) للشيخ

---

(١) كشف الظنون ص ٩٠٤.
(٢) المصدر السابق ص ٩١٩.
(٣) المصدر السابق ص ٩٣٣.
(٤) المصدر السابق ص ١٠٣٠.
(٥) المصدر السابق ص ١٣٣٩.
(٦) المصدر السابق ص ١٣٥٣.

محمد بن يحيى التادفي الحنبلي، الحلبي، المتوفى سنة ٩٦٣ هـ.

١٠) «مناقب الشيخ عبدالقادر الكيلاني»[١] لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ.

١١) «تفريج الخاطر في مناقب الشيخ عبدالقادر»[٢]، للإربلي.

١٢) «مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني» مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٣٤٣٩.

١٣) «كتاب الطبقات الكبرى» لعبد الوهاب بن علي الأنصاري الشعراني. ترجمته للشيخ عبد القادر في جـ ١ ص ١٢٦).

١٤) «كتاب الذيل على طبقات الحنابلة» لزين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ثم الدمشقي المعروف بابن رجب (سنة ٧٣٦ هـ ـ سنة ٧٩٥ هـ): ترجمته للشيخ عبد القادر في جـ٣ تحت رقم ١٣٤. ومما يلفت النظر في هذا الكتاب أن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى هو الذي كان يصلي على أكابر المشايخ والصالحين الذين توفوا في بغداد بدءاً من سنة ٥٤١ هـ حتى وفاته سنة ٥٦١، والذين وردت تراجمهم في هذا الكتاب، فقد صلى على عبد الله بن علي بن أحمد المقرىء النحوي الأديب الزاهد يوم الاثنين ١٢، ربيع الآخر سنة ٥٤١، وعلى الجنيد بن يعقوب بن الحسن الفقيه الزاهد أبي القاسم في سادس عشر جمادى الآخرة سنة ٥٤٦ هـ؛ وعلى محمد بن ناصر بن محمد السلامي الأديب اللغوي الحافظ أبي الفضل في

---

(١) كشف الظنون ص ١٨٤٣.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي. د. أحمد الشلبي ٦/٢١٢.

ثامن عشر شعبان سنة ٥٥٠ هـ؛ وعلى أبي الوقت عبد الأول بن أبي عبد الله عيسى بن شعيب السِجْزي في ٦ ذي القعدة ٥٥٣ هـ، وعلى أحمد بن معالي بن بركة الحربي الذي برع في النظر، يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى ٥٥٤ هـ، وعلى عبد الله بن سعد بن الحسين الوزان العطار أبي المعمر يوم الاثنين ثامن عشر رجب سنة ٥٦٠ هـ. وهذا يدل على رفعة قدره، وعلى تصدره مشايخ بغداد في ذلك الوقت.

١٥) «كتاب سير أعلام النبلاء» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ جزء ٢٠، صفحة ٤٣٩ وما بعدها، كما ذكره أيضاً في كتابه (العبر في خبر من عبر) جـ ٤ ص ١٧٥.

١٦) تكملة الإكمال، للحافظ أبي بكر محمد عبد الغني البغدادي الحنبلي المعروف بابن نقطة المتوفى سنة ٦٢٩ تحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي ٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩٢ في باب الختلي والجيلي و٢/ ٥٤٦ في باب دُرُست ودوست.

١٧) كتاب «تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب» للشيخ الإمام جمال الدين أبي حامد محمد المعروف بابن الصابوني، المتوفى سنة ٦٨٠ هـ، تحقيق السيد مصطفى جواد. لم يتكلم المؤلف عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى فيه، ولكن عندما تكلم عن أبي العلاء أحمد بن أبي اليسر التنوخي، قال: وأجاز له جماعة من الشيوخ البغداديين منهم الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، وهنا تكلم محقق الكتاب

عن الشيخ رحمه الله تعالى كلاماً طويلاً وافياً.

١٨) كتاب «فوات الوفيات» لمحمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ، الجزء ٢، صفحة ٣٧٣.

١٩) كتاب «التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول» للسيد أبي الطيب الحسيني البخاري القنوجي ص ١٦٦.

٢٠) كتاب «نتيجة التحقيق» لمحمد الديلي، طبع في فاس سنة ١٣٠٩ هـ، ذكره الأستاذ محمد العيني في كتابه «عبد القادر الكيلاني» النسخة الفرنسية، صفحة ٢٤٧.

٢١) كتاب «أنوار الناظر» لأبي بكر عبد الله بن نصر البكري البغدادي، ذكره العيني في كتابه، صفحة ٢٤٧.

٢٢) كتاب «خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر» للإمام عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي، المتوفى سنة ٧٦٨ هـ. ذكره العيني في الصفحة ٢٤٧.

٢٣) كتاب «نزهة الخاطر في ترجمة سيدي الشريف عبد القادر» لملا علي بن سلطان محمد القاري، المتوفى سنة ١٠١٦ هـ، طبع في استانبول سنة ١٣٠٧ هـ، ومنه مخطوطة في مكتبة سليم آغا تحت رقم ٧٥، ذكره العيني في ص ٢٤٧.

٢٤) كتاب «الدر الفاخر» للسيد عبد القادر ابن الشيخ العيدروسي اليمني، ذكره العيني في الصفحة ٢٤٧.

٢٥) كتاب «زبدة الأسرار في مناقب غوث الأبرار» لعبد الحق الدهلوي المتوفى سنة ١٠٥١ هـ. ذكره العيني في الصفحة ٢٤٧.

٢٦) كتاب «زبدة الأعصار في أخبار قطب الأخيار» باللغة الفارسية للمؤلف السابق نفسه. العيني ـ صفحة ٢٤٧.

٢٧) كتاب «نزهة الناظر» لعلي محمد عبد اللطيف البغدادي، العيني ـ صفحة ٢٤٧.

٢٨) كتاب «الشرف الباهر» للإمام قطب الدين موسى، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ. العيني ـ صفحة ٢٤٨.

٢٩) كتاب «الجاني والداني» للسيد جعفر البرزنجي، طبع في بومباي. العيني ـ صفحة ٢٤٨.

٣٠) كتاب «روض البساتين في أخبار مولانا عبد القادر محيي الدين» لمحمد الأمين من تونس. العيني ـ صفحة ٢٤٨.

٣١) كتاب «أنهار المفاخر» لمحمد غوث الدين الشافعي من (مِدْراس) في الهند. العيني ـ صفحة ٢٤٨.

٣٢) كتاب «سلطان الأذكار في مناقب غوث الأبرار» لمولانا شاه محمد من همدان. العيني ـ صفحة ٢٤٨.

٣٣) كتاب «نسر الجواهر» لقاضي الإسلام محمد صبغة الله، من (مِدْراس) في الهند. العيني ـ صفحة ٢٤٨.

٣٤) كتاب «زين المجالس»، شعر باللغة الأوردية للقاضي محمد المركحي. العيني ـ صفحة ٢٤٨.

٣٥) كتاب «مرقاة المراتب»، باللغة التركية لسليمان حسبي، طبع في استانبول سنة ١٣٠٠ هـ، العيني - ص ٢٤٨.

٣٦) كتاب «تنشيط الخاطر». باللغة التركية لضياء الدين ترك زاده، طبع في استانبول سنة ١٣٠٢ هـ. العيني - ص ٢٤٨.

٣٧) كتاب «إكي غوث الأنام»، باللغة التركية لأحمد حلمي شاهبانده زاده طبع في استانبول سنة ١٢٣١ هـ. العيني - صفحة ٢٤٨.

٣٨) كتاب «الفتح المبين» لأبي المظفر السيد ظهير الدين القادري، طبع في القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ. العيني - صفحة ٢٤٨.

٣٩) كتاب «تفريج الخاطر في مناقب عبد القادر»، باللغة التركية لعبد القادر كمال الدين المتوفى سنة ١٣٠٥ هـ. العيني - صفحة ٢٤٨.

٤٠) كتاب «مناقب عبد القادر». مخطوط في مكتبة نور عثمانية، تحت رقم ٢٦٠٨. العيني - صفحة ٢٤٨.

٤١) كتاب «القادرية» مخطوط في مكتبة بيازيد تحت رقم ٣٣٧٨. العيني - صفحة ٢٤٨.

٤٢) كتاب «زمرد كلام عبد القادر» باللغة التركية، تأليف لالي زاري طاهر محمد. العيني - صفحة ٢٤٨.

٤٣) كتاب «نفحات الجامي»، باللغة التركية، في مكتبة نور عثمانية تحت رقم ٢٣١٠. العيني - صفحة ٢٤٨.

٤٤) كتاب «نهر المحاسن الغالية» لليافعي، في مكتبة آيا صوفيا تحت رقم ٢١٣٣. العيني ـ صفحة ٢٤٨.

٤٥) كتاب «شرح الغوثية»، باللغة الفارسية، مخطوط، في مكتبة جامعة استنبول تحت رقم ١٨٦٥. العيني ـ صفحة ٢٤٩.

٤٦) كتاب «تحفة القادرية» باللغة الفارسية لمحمد أبي علي المعالي، في مكتبة جامعة استنبول تحت رقم ١٨٦٥ أيضاً. العيني ـ ص ٢٤٩.

٤٧) كتاب «روض الرياحين في حكايات الصالحين» لليافعي، مترجم إلى اللغة التركية، في مكتبة آيا صوفيا تحت رقم ١٨٢٧. العيني ـ ص ٢٤٩.

٤٨) كتاب «كوكب المباني وموكب المعاني في شرح صلاة عبد القادر الكيلاني» في مكتبة السليمانية تحت رقم ١٨٥٣. العيني ـ ص ٢٤٩.

٤٩) كتاب «الدرر السنية في المواعظ الجيلانية» لمحمد سيف الدين الكيلاني، طبع في استنبول سنة ١٣٠٢ هـ. العيني ـ صفحة ٢٤٩.

٥٠) كتاب «المناقب الغوثية» باللغة الفارسية، لمحمد صديق الشابي السعدي. العيني ـ صفحة ٢٤٩.

٥١) كتاب «تذكرة أولياء بغداد» مخطوط في مكتبة جامعة استنبول تحت رقم ١٣١. العيني ـ صفحة ٢٤٩.

٥٢) كتاب «رسالة السلوك القادري»، في مكتبة حسن باشا

أيوب في استنبول تحت رقم ٦٧٧، العيني ـ صفحة ٢٤٩.

٥٣) كتاب «السيف الرباني» للشيخ السيد محمد المكي ابن السيد مصطفى بن محمد عزوز مفتي تونس. طبع سنة ١٣١٠ هـ ثم طبع مرة ثانية في بومباي سنة ١٣١٣ هـ بأمر السيد عبد الرحمن رئيس الطريقة في بغداد، وهذا الكتاب هو نقد لكتابٍ كان نشر بعنوان (رسالة الحق الظاهِر في الشيخ عبد القادر) لمؤلف اسمه (علي بن محمد الكاراماني). وفي هذا الكتاب افتراءات كثيرة على الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وفي آخر كتاب (السيف الرباني) الذي فنّد هذه الافتراءات أربع وأربعون رسالة تقريظٍ من كبار علماء تونس والجزائر والحجاز في ذلك الوقت. العيني ـ صفحة ٢٤٩.

٥٤) كتاب «توفيق الملك القادر في سلوك طريق الغوث عبد القادر» لحريري زاده كمال الدين. العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٥٥) كتاب «نفحات الرياض العلية في بيان الطريقة القادرية» لمحمد رفعت، باللغة التركية، في مكتبة (ملّت) باستنبول تحت رقم ٨٨٨. ويصف فيه أيضاً التكايا القادرية في بغداد، وحماه، وحلب، ودمشق، وكردستان، واليمن، وخراسان، وهمدان، وأحمد آباد، ولاهور، والقدس، وبورسه، وإيزنيك، وأندرينوبل، وسالونيك، وكريت، والبوسنة، ومصر، واستنبول، وينيجه، وغيرها إلخ... العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٥٦) Toumar - Tourouk لصدّيق ويجاني، باللغة التركية، نُشر في استنبول سنة ١٣٣٨ هـ. العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٥٧) A. Le ـلـ Les comfreries musulmanes du Hedjaz Chatelier, Ernest Leroux باللغة الفرنسية العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٥٨) Marabouts et khouan, par Rinn بـاللغة الفـرنسيـة. العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٥٩) The dervishes, par I. P. Brown بـاللغة الإنكليـزيـة العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٦٠) Confréries religieuses musulmanes. par Dupont et Copolani نشـر في الجـزائـر سنـة ١٧٩٧ بـاللغـة الفـرنسيـة. العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٦١) Abd - al - Qâdir Al Gilâni باللغة الألمانية von w. Braune نشر سنة ١٩٧٣ م. العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٦٢) Les saints musulmans enterrés à Bagdad (الأوليـاء المسلمون المدفونون في بغداد) باللغـة الفرنسيـة، للمستشرق ماسينيون L. Massignon قُدم إلى مؤتمر المستشرقين الذين عقد في كوبنهاغن في ١٥/٨/١٩٠٨ ثم نشرته مجلة تاريخ الأديان. العيني ـ صفحة ٢٥٠.

٦٣) كتاب «الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية» جمع وترتيب الحاج إسماعيل بن محمد سعيد القادري الجيلاني البغدادي، طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٠ هـ.

٦٤) كتاب «الموجز في تاريخ القطب الغوث والباز الأشهب»

للأستاذ فخري نورس الكيلاني رحمه الله تعالى، ذكر فيه نبذة عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ثم ذكر أسماء ذريته القاطنين في مدينة حماه، منذ أن استوطنها السيد سيف الدين محيي حتى تاريخ طبع الكتاب في سنة ١٩٥٦ م.

٦٥) كتاب «عبد القادر الكيلاني» للأستاذ محمد علي العيني، الأستاذ السابق في جامعة استنبول، باللغة التركية، ثم ترجم إلى اللغة الفرنسية. طبع سنة ١٩٥٦ م.

٦٦) كتاب «هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس» للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، طبع سنة ١٩٨٥ م، ذكر فيه المؤلف نبذة طويلة عن الغزالي ومثلها عن الشيخ عبد القادر الكيلاني، وبين أن مستشاري نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي رحمهما الله تعالى، ورجالهما الذين حاربوا الصليبيين واستردوا القدس هم من خريجي مدرستي الغزالي والكيلاني رحمهما الله تعالى.

٦٧) كتاب «نشأة القادرية» للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، نال به درجة الماجستير من الجامعة الأمريكية في بيروت.

٦٨) كتاب «الشيخ عبد القادر الكيلاني» للشيخ يونس الشيخ إبراهيم السامرائي. الطبعة الثالثة.

٦٩) كتاب «الباز الأشهب» لإبراهيم الدروبي.

٧٠) كتاب «الطراز المذهب» للعلامة محمود الألوسي.

٧١) كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للأستاذ أبي

الحسن علي الحسني الندوي الطبعة السادسة سنة ١٩٨٢ م.

كما ذكر كثير من أصحاب التراجم نبذاً عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في كتبهم، كابن كثير في «البداية والنهاية»، وابن الأَثيرفي «الكامل»، والسمعاني في كتاب «الأَنساب»، والشيخ حسين بن محمد الديار بكري في كتاب «تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس»، والزركلي في كتاب «الأَعلام»، وغيرهم. كما ورد ذكره أيضاً في موسوعة اللاروس الفرنسية وفي الموسوعة العربية الميسّرة، وللمستشرق الإنكليزي مرجليوث رسالة في ترجمته أيضاً.

كما ذكره ابن تيمية رحمه الله كثيراً في كتبه عن: القدر، والسلوك، والتصوف، في سياق بحثه في هذه الأمور. وقد علمت أنَّ الأستاذ موفق شكري الذي يعمل في مركز الدعوة والإرشاد في دبي يعد الآن رسالة عن الشيخ عبد القادر الكيلاني لينال بها درجة الدكتوراه من جامعة الزيتونة بتونس؛ وأن الشيخ عبد الوهاب المشهداني الذي يعمل واعظاً في أوقاف رأس الخيمة يُعد كتاباً عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى.

الفَصل الثامن

كُتبُ الشَّيخ عَبدِ القَادِر

رَحِمَهُ اللهُ تَعالى. نَثرُهُ وَشِعرُهُ

ألف الشيخ عبدالقادر كثيراً من الكتب، ونظم كثيراً من الأشعار، أذكر فيما يلي ما وصل إليه علمي :

١) الغنية لطالبي طريق الحق، في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية، جزءان، طبع في بولاق سنة ١٢٨٨ هـ.

٢) الفتح الرباني والفيض الرحماني، وهو مجالس في الوعظ والإرشاد.

٣) فتوح الغيب، يحوي ٧٨ مقالة في العقائد والتصوف والإرشاد.

٤) حزب بشائر الخيرات في الصلاة على صاحب الآيات البينات، ويليه ورد الجلالة للجيلاني، طبع في الإسكندرية سنة ١٣٠٤ هـ.

٥) جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر، جُمع فيه ما قاله الشيخ رحمه الله تعالى في مجالس وعظه، أولها يوم الجمعة تاسع رجب وآخرها الرابع والعشرون من رمضان سنة ٥٤٦ هـ. (كشف الظنون ص ٥٩٢).

٦) حزب الرجاء والانتهاء للشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ. (كشف الظنون ص ٦٦٢).

٧) الرسالة الغوثية للشيخ عبدالقادر الجيلي، (كشف الظنون ص ٨٧٩). وتوجد نسخة منها في مكتبة الأوقاف ببغداد، (كتاب السامرائي ص ١٦).

٨) معراج لطيف المعاني للشيخ عبد القادر الكيلاني. (كشف الظنون ص ١٧٣٨).

٩) يواقيت الحكم للشيخ عبد القادر الكيلاني. (كشف الظنون ص ٢٠٥٣).

١٠) المواهب الرحمانية للشيخ عبد القادر، ذكره صاحب (روضات الجنات). (كتاب محمد العيني ـ ص ٢٤٥).

١١) وصايا الشيخ عبد القادر، في مكتبة فيض الله الشيخ مراد تحت رقم ٢٥١. (كتاب محمد العيني ـ ص ٢٤٥).

١٢) بهجة الأسرار، وهو مجموعة مواعظ للشيخ عبد القادر، جمعها الشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف اللقمي أستاذ الجامع الأزهر الذي ولد في القاهرة سنة ٦٤٢ هـ ـ أي بعد وفاة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بـ ٨٣ سنة ـ وتوفي سنة ٧١٨ هـ. (كتاب محمد العيني ص ٢٤٦).

١٣) سر الأسرار في التصوف، ويوجد نسخة منه في مكتبة جامعة استنبول، قاعة رضا باشا، تحت رقم ٣٦١٦. (كتاب محمد العيني ص ٢٤٦)، ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة القادرية ببغداد، وطبع في باكستان باللغتين العربية والأردية. (كتاب السامرائي ص ١٦).

١٤) رسائل الشيخ عبد القادر: ١٥ رسالة باللغة الفارسية، في مكتبة جامعة استنبول، قاعة رضا باشا تحت رقم ٣١٠. (كتاب محمد العيني ص ٢٤٦).

١٥) ديوان الشيخ عبد القادر، باللغة الفارسية، مخطوط في

مكتبة جامعة استنبول تحت رقم ١٨٦٥، (كتاب العيني ص ٢٤٦).

١٦) رسائل بالفارسية ومترجمة إلى العربية، كتبها الشيخ عبد القادر إلى بعض مريديه في عراق العجم، ترجمها إلى العربية حسام الدين المطاقي، وترجمها إلى التركية رأفت سليمان باشا والي بورسه سنة ١٢٧٦ هـ، وتحوي هذه الرسائل بعض المواعظ مع ٢٧٥ آية من القرآن الكريم. (كتاب محمد العيني ص ٢٤٦).

١٧) كتاب (الفيوضات الربانية)، هذا الكتاب كنت ذكرته في قائمة المؤلفين الذين ذكروا الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في كتبهم، وأذكره هنا لأنه يحوي كثيراً من أوراد الشيخ رحمه الله تعالى كأوراد أيام الأسبوع السبعة، وورد الصبح، وورد الظهر، وورد العصر، وورد المغرب، وورد العشاء، وحزب الحفظ، وحزب النصر، مع بعض الأدعية والصلوات، والقصائد الشعرية التي سنرى نماذج منها فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

١٨) تنبيه الغبي إلى رؤية النبي ﷺ، نسخة مخطوطة في مكتبة الفاتيكان بروما. (كتاب الشيخ عبد القادر ليونس السامرائي صفحة ١٥).

١٩) الرد على الرافضة، نسخة مخطوطة في المكتبة القادرية ببغداد، (كتاب الشيخ عبد القادر ليونس السامرائي، صفحة ١٦).

٢٠) حزب عبد القادر الكيلاني، توجد منه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد.

٢١) (ومسك الختام) تفسير القرآن الكريم: مخطوط في جزئين، في مكتبة الشيخ رشيد كرامي في طرابلس الشام، تاريخ نسخه سنة ٦٢٢ هـ، وتوجد منه نسخة غير كاملة في الدائرة الهندية. (كتاب الشيخ عبد القادر للسامرائي، صفحة ١٥).

وقد يكون ثمة كتب أخرى للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى ولكنها لم تصلنا، بسبب فقدانها في نكبة التتار التي اجتاحت بغداد في سنة ٦٥٦ هـ أي بعد مضي أقل من مائة عام على وفاة الشيخ رحمه الله تعالى، عندما أتلفوا الكتب التي وجدوها في مكتبات بغداد كلها ورموا بها في نهر دجلة، فما كان من هذه الكتب له نسخ أخرى خارج بغداد فقد بقيت ووصلت إلينا. وما كانت نسخه محصورة في بغداد وحدها فقد تلف وذهب إلى غير رجعة، وقد يكون للشيخ رحمه الله تعالى كتب لم تخرج نسخها من بغداد بعد في ذلك الوقت، فتلفت مع ما تلف من الكتب في تلك النكبة.

وعلى كل حال، فالمتداول من هذه الكتب كلها، والموجود في المكتبات الآن، والذي استطعت الاطلاع عليه منها هو خمسة كتب فقط: الغنية، والفتح الرباني، وفتوح الغيب، والفيوضات الربانية، وحزب بشائر الخيرات. فلنلق نظرة عجلى على كلٍ منها:

١) كتاب (الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية):

طبعته دار الألباب بدمشق، بمجلد واحد يحتوي على جزئين، الجزء الأول فيه ١٩٢ صفحة، والجزء الثاني فيه

٢٠٠ صفحة، ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في الجزء الأول منه: كيفية الدخول في دين الإسلام، ثم نبذاً مختصرة عن الصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم ذكر الآداب الإسلامية وفصّل فيها تفصيلاً كبيراً، لأنها روح الإسلام وخلاصته، كما أنها الدليل على تغلغل الإيمان به إلى أعماق القلب، فذكر آداب السلام والاستئذان والأكل والشرب، وخصال الفطرة العشر، وآداب اللباس والنوم والسفر ودخول المنزل، ثم ذكر بر الوالدين وتسمية الوليد، وما يُفعل عند الغضب، ثم ذكر آداب الدعاء، وجواز المعالجة من الأمراض، وما يقال عند النظر في المرآة وعند دخوله السوق وعند القدوم من السفر إلخ.. ثم آداب النكاح، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بحث في الإيمان واعتقاد أهل السنة، ثم ذكر علامات أهل البدع والفرق الضالة. ثم ذكر فضل الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم وفضل بسم الله الرحمن الرحيم مع تفسيرها، ثم شروط التوبة ثم طريق التقوى، ثم ذكر صفة النار وصفة الجنة، ثم ذكر فضائل شهر رجب وفضائل شهر شعبان.

وبدأ الجزء الثاني بذكر فضائل شهر رمضان وليلة القدر، ثم عيد الفطر، ثم عشر ذي الحجة ويوم عرفة، ويوم النحر، ثم يوم عاشوراء، ثم ذكر فضائل يوم الجمعة، ثم فضائل أيام الأسبوع والأيام البيض، ثم فضل صلاة الليل، وأوراد الليل وأوراد النهار، ثم ذكر أوقات الصلوات الخمس المفروضة، وسننها الراتبة، ومكروهات الصلاة، وقصرها وجمعها، وصلاة الجنازة، وفضل عيادة المريض، ثم ذكر فضائل أيام الأسبوع، وحث على الاستكثار من النوافل بعد أداء الفرائض، ثم ذكر بعض الأدعية

لحفظ المسافر وقضاء الحاجة ودفع الظلم وذهاب الهموم وقضاء الديون، ثم حث على الوصية، ثم أتى إلى آداب المريدين والمجاهدين، والمحاسبة، والتوكل، وحسن الخلق. . . وقد استكثر رحمه الله تعالى من الاستشهاد بالأحاديث الشريفة في هذا الكتاب، فاستشهد في الجزء الأول بـ ٣٨٦ حديثاً شريفاً، وفي الجزء الثاني بـ ٤٩٣ حديثاً شريفاً. ولعل الله تعالى يهيىء له من يخرج أحاديثه كما هيأ لكتاب إحياء علوم الدين[1].

ولغة الكتاب متينة، رصينة، قوية، تدل على أنه قد ألفه تأليفاً ولم يلقه إلقاءً.

٢) كتاب (الفتح الرباني والفيض الرحماني):

النسخة التي أمامي من هذا الكتاب من نشر (دار الكتاب العربي) في بيروت، طبعة سنة ١٩٨٠ م. وهو مجلد واحد يقع في كلية ٣٧٥ صفحة، وهو لم يؤلف تأليفاً، وإنما هو دروس في الوعظ والإرشاد كان يلقيها الشيخ رحمه الله تعالى في مجالسه فنقلها عنه تلميذه عفيف الدين بن مبارك، تقع في ٦٢ مجلساً، المجلس الأول في ٣ شوال سنة ٥٤٥ هـ، والمجلس الأخير في يوم الجمعة سلخ شهر رجب سنة ٥٤٦ هـ. أي يحتوي على مجالسه التي ألقاها في أقل من سنة، وإذا علمنا أنه أمضى أربعين سنة في التدريس والوعظ

---

(١) علمت مؤخراً أن الأستاذ فرج توفيق الوليد، الأستاذ المساعد في كلية الشريعة التابعة لجامعة بغداد قد قام بتحقيق كتاب الغنية ورقم آياته وخرج أحاديثه وترجم أعلامه وشرح غريبه، جزاه الله تعالى خير الجزاء.

والإرشاد، لعلمنا أنه لو نقل عنه مجالس وعظه ودروسه كلها لكان لدينا أربعون مجلداً من هذا الكتاب على الأقل، فهل نقل عنه هذا القدر فقط، أم نقل عنه أكثر من ذلك ولكن وصل إلينا هذا القدر فقط وضاع الباقي؟

ولغة الكتاب سهلة واضحة، وهي بصيغة الخطاب، ليفهمها العامة من الناس، الذين يكثر حضورهم إلى أمثال هذه المجالس من الدروس، وهو يكثر في مجالسه هذه من استعمال التشبيهات البليغة مثل: «يا قوم أنتم تعدون خلف الدنيا حتى تعطيكم، وهي تعدو خلف أولياء الله حتى تعطيهم، تقف بين أيديهم ورأسها مطأطأ، اضرب نفسك بصمصامة التوحيد، والبس لها خوذة التوفيق، خذ لها رمح المجاهدة، وترس التقوى، وسيف اليقين، فتارة مطاعنة وأخرى مضاربة، ولا تزال كذلك حتى تذل لك»[1]. «لا تبرز إليهم إلا بعد أن تتدرع بدرع التقوىٰ وتضع على رأس قلبك خوذة الإيمان وبيدك سيف التوحيد وفي جعبتك سهام إجابة الدعاء وتركب حصان التوفيق»[2].. والكتاب كله يدور حول الوعظ والإرشاد وإصلاح النفوس وتزكية الأخلاق والزهد في الدنيا والإقبال على الأخرى، وطلب رضا المولى، بإتيان ما أمر، والانتهاء عما نهى؛ والحث على الصبر، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان، ويؤكد كثيراً على تحكيم الكتاب والسنة في الأعمال

---

(١) الفتح الرباني ص ٢٨٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٤.

كلها، وأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، وأن التصوف يكون بصفاء القلب وتزكية الأخلاق، لا بلبس الصوف واصفرار الوجوه، ويقول: تفقه ثم اعتزل. وينبه رحمه الله تعالى في هذا الكتاب إلى خطر داهم، وشيك الوقوع، سيجتاح بغداد وأمة الإسلام فيقول: «جاءني ما يكون من بلاء يأتي هذه البلدة، ثم دعا لأهل هذه البلدة بالدفع عنهم، ثم قال: لعمري إن في هذه البلدة من يستحق القتل والصلب. ولكن لعين تكرم ألف عين، أتهلكنا بهم، أتأخذنا بذنوبهم، إيش عملنا نحن»[1]. وقد حلت الكارثة ببغداد فعلاً بعد وفاته بخمس وتسعين سنة أي في سنة ٦٥٦ هـ عندما اجتاحها هولاكو والتتار، مع أن خطرهم لم يكن مستبيناً في حال حياته رحمه الله تعالى.

ويذكر رحمه الله تعالى في هذا الكتاب بعض الكلمات العامية، ولعلها كلمات فارسية أو تركية مثل: الرزكارية. والجامكية، والروزنة، والزوكاري. مما يدل على بدء تسرب بعض الكلمات الأعجمية إلى اللغة العربية منذ ذلك الوقت، وربما قبل ذلك الوقت أيضاً.

٣) كتاب (فتوح الغيب):

وهذا الكتاب مطبوع على هامش كتاب (قلائد الجواهر) للشيخ محمد التادفي. والظاهر أن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى قد أملى هذا الكتاب على ولده الشيخ عبد الرزاق رحمه الله تعالى. فقد جاء في أول الكتاب ما يلي: «قال الشيخ عبد الرزاق ولد المؤلف: قال والدي رضي الله تعالى عنه أبو محمد محيي الدين

---

(١) الفتح الرباني ص ٣٢٦.

الجيلاني الحسني الحسيني...» الحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً عدد خلقه ومداد كلماته وزنة عرشه... وهو يتألف من ثمانٍ وسبعين مقالة، في الاتباع والصبر، والشكر، والخوف والرجاء، والتوكل، ورضا الله تعالى، والورع والعزيمة، والسلوك، والزهد، والابتلاء، والمجاهدة، والتصوف، والتوحيد، وصفة المرشد، والحسد.. إلخ.

٤) كتاب (الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية):

هذا الكتاب فيه كثير من أوراد الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى وأدعيته وصلواته وأشعاره. ففيه أوراد أيام الأسبوع السبعة وأوراد الصلوات الخمس، وحزب الحفظ، وحزب النصر، ودعاء النصر، مع كثير من الأدعية الأخرى، وكثير من الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع وصيته لابنه عبد الرزاق، وكثير من القصائد، والأشعار، وتخميساتها.

وإليكم من أوراده، هذا الورد المسمى بورد الحزب الصغير: «اللهم حُلّ هذه العقدة، وأزلْ هذه العسرة، ولقّني حسن الميسور، وقني سوء المقدور، وارزقني حسن الطلب، واكفني سوء المنقلب، اللهم حجتي وعُدّتي فاقتي، ووسيلتي انقطاع حيلتي، ورأسمالي عدم احتيالي، وشفيعي دموعي، وكنزي عجزي، إلٰهي قطرةٌ من بحار جودك تغنيني، وذرة من تيار عفوك تكفيني، فارزقني، وعافني، واعف عني، واغفر لي، واقضي حاجتي، ونفسْ كربتي، وفرجْ همي، واكشفْ غمي برحمتك يا أرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين».

وثمة أوراد طويلة في هذا الكتاب لا مجال لذكرها هنا.

٥) كتاب (بشائر الخيرات في الصلاة على صاحب الآيات البينات):

هو كتيب صغير، من القطع الصغير، يقع في ٣٢ صفحة، ويتضمن صلواتٍ على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بصيغة خاصة، إليكم بعضاً منها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد البشير المبشر للمؤمنين بما قال الله العظيم: وبشر المؤمنين. وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. اللهم صل وسلم على سيدنا محمد البشير المبشر للذاكرين بما قال الله العظيم: فاذكروني أذكركم. اذكروا الله ذكراً كثيراً... اللهم صل وسلم على سيدنا محمد البشير المبشر للعاملين، بما قال الله العظيم: إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى. اللهم صل وسلم على سيدنا محمد البشير المبشر للأوابين بما قال الله العظيم: ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً...﴾. وهكذا للتوابين، والمتطهرين والمخلصين والمصلين والخاشعين والصابرين والخائفين والمتقين والمخبتين والكاظمين والمحسنين والمتصدقين والشاكرين والسائلين والصالحين والمبشرين والفائزين والزاهدين والمصطفين والمستغفرين والمقربين. وبعد انتهاء هذه الصلاة يأتي دعاة البسملة ثم ورد الجلالة ثم دعاء الجلالة.

وثمة كتاب آخر للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، مطبوع على هامش كتاب الغنية، في بعض طبعاته، هو (سر الأسرار)؟ وهو في التصوف، ولكنني لم أعثر عليه.

شِعْرُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى شعر جميل، بعضه باللغة العربية وبعضه الآخر باللغة الفارسية، فقد ذكر الأستاذ محمد علي العيني في كتابه (عبد القادر الكيلاني) أن له ديواناً من الشعر باللغة الفارسية، توجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة جامعة استنبول تحت رقم ١٨٦٥ . ويعد شعره كله، رحمه الله تعالى، من الشعر الصوفي، فهو كله في التصوف والحب الإلهي وحب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وفي الافتخار بطريقته، والسعي إلى الحصول على رضا ربه سبحانه وتعالى. أما باللغة العربية فأغلب قصائده توجد في كتاب (الفيوضات الربانية) كما يوجد بعض منها في كتاب (قلائد الجواهر) وفي كتاب (عبد القادر الكيلاني) للشيخ يونس السامرائي. وقد ذكر له الأستاذ محمد علي العيني في كتابه (عبد القادر الكيلاني) ـ النسخة الفرنسية ـ كثيراً من القصائد، بعضها ترجمها عن العربية، وبعضها الآخر ترجمها عن ديوان الشيخ عبد القادر باللغة الفارسية، والذي قال عنه إنه قد طبع في سنة ١٨٨٢ بمطبعة إقبال في مدينة كوانبور Gwanpur بالهند. وقد خمّس كثير من الشعراء بعض قصائد الشيخ رحمه الله تعالى، كالشيخ عبدالغني النابلسي، وابن حجة، رحمهم الله تعالى.

وأورد الآن شيئاً من قصائد الشيخ عبد القادر رحمه تعالى:

مقتطفات من قصيدة (أسماء الله الحسنى)[1]:

شرعت بتوحيد الإله مبسملاً
سأختم بالذكر الحميد مجمّلا

وأشهد أن الله لا رب غيره
تنزَّه عن حصْر العقول تكملا

وأرسل فينا أحمد، الحق قيّدا
نبياً به قام الوجود وقد خلا

فعلّمنا من كل خير مؤيد
وأظهر فينا الحلم والعلم والولا

فيا طالباً عزاً وكنزاً ورفعة
من الله فادعوه بأسمائه العلا

بحقك يا رحمن بالرحمة التي
أحاطت فكن لي يا رحيم مجمّلا

ويا ملْك يا قدوس قدسْ سريرتي
وسلم وجودي يا سلام من البلا

ويا بارىء النعماء زدْ فيض نعمة
أفضت علينا يا مصور أولا

رجوتك يا غفار فاقبل لتوبتي
بقهرك يا قهار شيطاني اخذلا

(١) الفيوضات الربانية ص ٣٧.

بحقك يا وهـاب علماً وحكمـة
وللرزق يا رزاق كن لي مسهلا
ويا قادراً، ذا البطش أهلك عدونا
ومقتــدر قــدِّرْ لحســادنـا البــلا
عطوف رؤوف بـالعبــاد ومسعف
لمن قد دعا، يا مالك الملك معقلا
ويا نور أنت النور في كل ما بدا
ويا هادِ كن للنور في القلب مشعلا
بأسمائك الحسنى دعوتك سيدي
وآياتك العـظمى ابتهلت توسـلا
إلهي فــارحم والـديّ وإخــوتي
ومَنْ هذه الأسماءَ يـدعو مـرتلا
وصلّ على جدي الحبيب محمد
بأحلى سلام في الوجود وأكملا
مع الآل والأصحاب جمعاً مؤيداً
وبعـدُ، فحمـد الله ختمـاً وأولا

مقتطفات من قصيدة (الغوثية)[1]:

خُـذْ بلطفـك يـا إلّهي من لـه زاد قليــلْ
مفلسٌ، بالصدق يأتي عند بابك يـا جليلْ
ذنبـه ذنب عظيم، فـاغفر الـذنب العـظيم
إنــه شخص غـريب، مـذنب، عبـد ذليـلْ

(١) الفيوضات الربانية ص ١٥٩.

منه عصيان ونسيان وسهو بعد سهو
منك إحسان وفضل بعد إعطاءٍ جزيلْ

قال يا رب ذنوبي مثل رمل لا تعد
فاعف عني كل ذنب، فاصفح الصفح الجميلْ

كيف حالي يا إلٓهي ليس لي خير العمل
سوء أعمالي كثير، زادُ طاعاتي قليلْ

أنت شافٍ، أنت كافٍ في مهمات الأمور
أنت حسبي، أنت ربي، أنت لي نعم الوكيلْ

عافني من كل داء، واقض عني حاجتي
إن لي قلباً سقيماً، أنت من يشفي العليلْ

هب لنا ملكاً كبيراً، نجنا مما نخاف
ربنا إذا أنت قاضٍ، والمنادي جبرئيلْ

رب هب لي كنز فضلٍ، أنت وهاب كريم
أعطني ما في الضمير، دلني، خير الدليلْ

على أن للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، في بعض أشعاره، شطحات، لا نجدها في نثره مطلقاً، ولا أدري صحة نسبتها إليه، وإن صحت نسبتها إليه فقد يكون لها تأويل مقبول في الشريعة التي أكّد الشيخ رحمه الله تعالى مراراً عليها واعتبرها الحكم والميزان لكل شيء في هذا الوجود.

رحمه الله سبحانه وتعالى وغفر له ولنا ولسائر المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

وهكذا نأتي إلى نهاية هذا الرجل العظيم، الذي رأى النور في جيلان في سنة ٤٧١ هـ، ونشأ فيها كشاب غرير، يفلح الأرض ويروي الزرع، ولكن همته كانت أكبر من ذلك بكثير، كان يتطلع إلى أن يفلح العقول ويروي الأذهان والأفهام، فيمم شطر بغداد في سنة ٤٨٨ هـ، وحيداً، فريداً، شاباً، غراً، لا يملك من حطام الدنيا إلا أربعين ديناراً، أعطته إياها أمه مع ما أعطته من الأخلاق الكريمة والتربية الصالحة، وعندما هاجمه اللصوص في الطريق، اعترف بأن معه أربعين ديناراً لئلا يُكتب عند الله تعالى كذاباً، فكان اعترافه هذا سبباً في توبة اللصوص جميعهم. وفي بغداد فوجىء بالفجور والموبقات والشح والبخل مع التبذير في غير طاعة الله تعالى، وفوجىء بانحراف المجتمع انحرافاً كبيراً عما رسمه له الإسلام، وباختلال الميزان اختلالاً كبيراً نحو الدنيا والتخلي عن الأخرى؛ ولكن ماذا يصنع وهو لا يملك مالاً ولا جاهاً، ولكنه يملك روحاً صافية ونفساً تتطلع إلى الكمال، لا ترضى إلا أن يكون لها الصدر دون العالمين أو القبر، وعضه الجوع، وأضناه الفقر، حتى مشى حافياً على الشوك، وأكل من نباتات الأنهار. فأي نوع من الرجال هذا؟! وحدثته نفسه بالهرب ولكنه ثبت وصبر

صبر الكرام، فثمة هدف يجب أن يبلغه، وقد كان هدفه عندما أتى إلى بغداد أن يدرس ويتعلم، فأصبح هدفه الآن أن يصلح ويرشد، ويهدي الضالين إلى سواء السبيل، ولكن البون شاسع بين ما يصبو إليه وبين ما هو فيه، والفرق كبير بين ما تتطلع إليه نفسه وبين واقعه المرير، وكان الصراع عنيفاً في نفس الفتى، فلجأ إلى الخرب والصحارى، وكان يشتد به الحال أحياناً فيصرخ كأن به مسّاً من جنون، وقالوا عنه: عبد القادر المجنون؛ وله في رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أسوة حسنة. وكان يأتيه من أمه أحياناً بلغة من مال فيسرع بتوزيعها على زملائه الفقراء، في خرب الإيوان. فأي نوع من الرجال هذا؟! واستمر على الدرس والتحصيل على الرغم من الصعاب والعثرات والجوع والحرمان. ورأى أن الفقه وحده لا يروي ظمأه ولا يبل غليله، ولا يحقق له ما يصبو إليه من إصلاح. فالقلوب قد صدئت ولا بد لها من شيء يجلوها. والإيمان في النفوس قد خبا ولا بد له مما يعيد اشتعاله، فيمّم نحو التصوف، نحو حقيقة الدين ولبّه، فدرسه وبرع فيه بعد ما درس الفقه وبرع فيه. ووجد أن التصوف لا بد له من لجام يمنع جموحه وشططه، ولا بد للحقيقة من دليل يقيمها على الطريق المستقيم. لذلك أخضع الحقيقة للشريعة فقال: كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، وأخضع التصوف للفقه فقال: تفقه ثم تصوف.

وأخذت الغمة تنزاح، وأخذ الظلام ينقشع ويتبدد، وأخذت

الدنيا تقبل منذ سنة ٥٢١ هـ، فقد تصدر للدرس منذ ذلك الوقت، ولكنه لا يرضى بشيء دون الغاية القصوى.

فمضى في سبيله بخطى ثابتة وعزم لا يلين، وطموح لا يعرف الحدود، نحو هدفه المنشود وهو إصلاح المجتمع الإسلامي، وإعادة ميزانه إلى الاعتدال.

وكان يستمد قوته من إيمانه بربه وتوكله عليه، فلم تأت سنة ٥٢٨ هـ إلا وقد تسامع به الناس وازدحموا عليه. فأعادوا له بناء مدرسة باب الأزج بعد أن وسعوها، وأصبحت تنسب إليه، ومضى في طريقه نحو رضا الله سبحانه وتعالى ونحو إصلاح المجتمع مجاهداً لا يلوي على أحد.

فقسم مدرسته إلى مدرسةٍ لتخريج التلاميذ ورباط لتربية المريدين، ووضع أسس طريقته القادرية لإصلاح الناس والمجتمع بالمجاهدة والتوكل والشكر والصبر وحسن الخلق والرضا والصدق، على أن يكون ذلك كله تحت مظلة الكتاب والسنة، اتباع بلا ابتداع. ولم تمض سنوات قليلة حتى انتشر صيته في الآفاق، وأصبحت تشد إليه الرحال لتلقي العلم وطريق السلوك، ولتزكية النفوس والتحلي بمكارم الأخلاق، لقد كانت مدرسته ورباطه مركز تدريبٍ لتخريج الرجال الأكفاء الصالحين، المجاهدين في الله حق الجهاد، فأتاه التلاميذ والمريدون من كل مكان، أتوه من الشرق ومن الغرب، من مصر والشام، وغيرها،

كانوا ينامون ويأكلون ويدرسون ويتربون بالمجان، ثم يعودون إلى أوطانهم بعدما يتخرجون، فكان منهم مستشارون لنور الدين زنكي وصلاح الدين رحمهما الله تعالى، وكان منهم قادة الجيل الذي استعاد القدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ تحت راية صلاح الدين رحمه الله تعالى، وكان منهم أساتذة ومرشدون نشروا طريقته في التربية والتزكية في أرجاء العالم الإسلامي كله من الصين والهند إلى مجاهل إفريقية، وأسلم على أيديهم أعداد لا تحصى من الناس، من التتار والزنوج وغيرهم. ولا شك أن هذا كله يكتب في صحيفته رحمه الله تعالى.

أما هو، رحمه الله تعالى، فلم تغيره الدنيا شيئاً بعدما أقبلت عليه، بل كانت كما قال فيها: يا دنيا تمردي على أوليائي في بدء الأمر لكي لا يحبوك، واخدميهم في آخر الأمر لكي لا يشتغلوا بك. فقد ذاق منها الأمرَّين في بدء الأمر فصبر، وعندما أقبلت عليه لم يعرها التفاتاً بل تركها تخدمه وتخدم تلاميذه ومريديه في سبيل الله تعالى. وما كان يأبه لعظيم أو وزير، وهابه الخلفاء فمن دونهم، يقول كلمة الحق والعدل لا يخشى فيها أحداً، ولا يخاف إلا من ربه سبحانه وتعالى. وظل رافعاً مشعل الهداية بيده، يهدي التائهين والضالين ليعودوا إلى سواء السبيل، حتى أتاه اليقين ليلة العاشر من ربيع الآخر سنة ٥٦١ هـ، وهو ابن تسعين عاماً رحمه الله تعالى.

وبعد هذا البحث الطويل، هل وفيته شيئاً من حقه، إنني

أشعر بأنني لم أوفه شيئاً، وأنىٰ لي ذلك، ولكن لعلي قد استطعت أن أفتح باباً يلج فيه غيري ممن هو أقدر مني على الإحاطة بأقدار الرجال، فيعرفنا برجالنا العظام فنقتدي بهم فيرحمنا الله سبحانه وتعالى وينصرنا.

ويكفي الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله شرفاً، أن يفتخر بالانتساب إلى كنيته (الكيلاني) عشرات الألوف ممن يشكلون أكبر عائلة إسلامية، تنحدر من صلب رجل واحد هو الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وينتشرون في أرجاء العالم الإسلامي كله، وأن يسير على منهجه في التربية والتزكية الألوف من المسلمين، في شرق البلاد الإسلامية وغربها، يلهجون كلهم باسمه ويترحمون عليه ويستغفرون له، ولعل هذا من محبة الله سبحانه وتعالى له، ورضاه عنه، فإذا أحب الله سبحانه عبداً حبب به عباده، ولعل هذا أيضاً يحقق ما قاله رحمه الله تعالى عن نفسه قبل وفاته:

أفلت شموس الأولين وشمسنا
أبداً على فلك العلى لا تغرب

بل يكفيه شرفاً، قبل هذا كله، أن يأتي من جيلان، وحيداً، فقيراً، جاهلاً، شريداً في خرب بغداد وما حولها ثم ينتهي به المطاف إلى أن يصبح شيخ أولياء عصره، وقبلة أنظار علمائه ورجاله، فأي نوع من الرجال هذا؟!.

رحمه الله سبحانه وتعالى رحمة واسعة وغفر له ولنا ولجميع

المسلمين، وجمعنا معه ومع العلماء العاملين المخلصين جميعهم تحت راية سيدنا محمد عليه وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم بعون الله تعالى وفضله فله الحمد وله الشكر

دبي في يوم الجمعة /١شعبان سنة ١٤١١ هـ
١٥ / ٢ / ١٩٩١ م

الدكتور عبد الرزّاق الكيلاني

مصادر الكتاب

- **الغنية**، للشيخ عبد القادر الكيلاني.
- **الفتح الرباني**، للشيخ عبد القادر الكيلاني.
- **فتوح الغيب**، للشيخ عبد القادر الكيلاني.
- **الفيوضات الربانية**، لإسماعيل بن محمد القادري.
- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي.
- **التعريفات**، لعلي بن محمد الجرجاني.
- **بستان العارفين**، للنووي.
- **المنتظم**، لابن الجوزي.
- **فتوح البلدان**، للبلاذري.
- **الكامل**، لابن الأثير.
- **مروج الذهب**، للمسعودي.
- **التعرف لمذهب أهل التصوف**، للكلاباذي.
- **طبقات الأولياء**، لابن الملقّن.
- **وفيات الأعيان**، لابن خلكان.
- **فوات الوفيات**، لمحمد شاكر الكتبي.
- **البداية والنهاية**، لابن كثير.
- **عوارف المعارف**، لعبد القاهر السهروردي.
- **العبر في خبر من عبر**، للذهبي.

- **سير أعلام النبلاء**، للذهبي.
- **الذيل على طبقات الحنابلة**، لابن رجب.
- **فتاوى ابن تيمية**، المجلد الثامن (كتاب القدر)، المجلد العاشر (كتاب السلوك)، المجلد الحادي عشر (كتاب التصوف).
- **تكملة الإكمال**، للحافظ أبي بكر محمد بن عبد الغني البغدادي الحنبلي المعروف بابن نقطة.
- **تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب**، لابن الصابوني.
- **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**، لأبي الطيب القنوجي.
- **اللمع**، لأبي نصر عبد الله السراج.
- **قواعد التصوف**، لأبي العباس أحمد زرّوق.
- **الطبقات الكبرى**، لعبد الوهاب الشعراني.
- **قلائد الجواهر**، لمحمد بن يحيى التادفي.
- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لحاجي خليفة.
- **حاشية ابن عابدين**.
- **الشيخ عبد القادر الكيلاني**، للأستاذ محمد علي العيني (النسخة الفرنسية).
- **من روائع حضارتنا**، لمصطفى السباعي رحمه الله تعالى.
- **الموجز في تاريخ القطب الغوث والباز الأشهب الشيخ عبد القادر الكيلاني**، للأستاذ فخري الكيلاني رحمه الله تعالى.
- **المستخلص في تزكية الأنفس**، للشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى.

- **تربيتنا الروحية**، للشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى.
- **الموسوعة الفقهية الكويتية**.
- **موسوعة التاريخ الإسلامي**، للدكتور أحمد شلبي.
- **رجال الفكر والدعوة في الإسلام** لأبي الحسن الندوي.
- **ربانية لا رهبانية**، لأبي الحسن الندوي.
- **سلاجقة إيران والعراق**، للدكتور عبد المنعم محمد حسنين.
- **ما يَعِدُ به الإسلام**، لروجيه جارودي ترجمة قصي أتاسي وميشيل واكيم.
- **المائة الأوائل**، للدكتور سهيل الزكار.
- **حقائق عن التصوف**، للشيخ عبد القادر عيسى.
- **الشيخ عبد القادر الكيلاني**، ليونس إبراهيم السامرائي.
- **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني.



الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

* * *